الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية

وزارة التعليم العالي والبحث العلمي

جامعة أبو بكر بلقايد تلمسان

كلية الآداب و اللغات

قسم اللغة العربية وآدابها

مذكرة مقدمة لنيل شهادة الماجستير في الأدب الحديث

تخصص: الرواية المغاربية الحديثة والمعاصرة موسومة:

المقدس والمدنس في رواية السحرة لبوراسيو الكوني

إعداد الطالبة :

أوهيبي كلثوم

تحت إشراف :

د. شريف بموسى عبد القادر

لجنة المناقشة

أ.د شايف عكاشة:	أستاذ التعليم العالي	جامعة تلمسان	رئيسا
د. شريف بموسى عبد القادر:	أستاذ محاضر	جامعة تلمسان	مشرفا ومقررا
أ.د محمد عباس:	أستاذ التعليم العالي	جامعة تلمسان	مناقشا
د. بن مالك سيدي محمد:	أستاذ محاضر	جامعة تلمسان	مناقشا
د. بوعلي عبد الناصر:	أستاذ محاضر	جامعة تلمسان	مناقشا

السنة الجامعية: 1431هـ - 1432هـ/ 2010م - 2011م

بسم الله الرحمن الرحيم

شكر و تقدير

الحمد و الشكر لله الذي هداني إلى طريق الصواب ، وفتح لي الأبواب واشرح لي صدري،

ويسر لي أمري

وأشكر كل يد امتدت لتساعدني، وكل إنسان تكلم لينصحني

وأخصّ بالذكر أساتذتي المحترمين، "شريف بموسى عبد القادر"

و الأستاذ "حكيم ميلود" رفع الله شأنيهما

كما أتقدم بالشكر الجزيل لكل طلبة الماجستير ولاسيما "بلقاسم إيمان" و"ديدوح فرح" وزيتون أمينة، "بوغانم فائزة"، "نوال" على كل ما قدموه لي

من دعم.

إلى كل هؤلاء امتنان وعرفان

إهداء

إلى والدي العزيز

أهدي هذا العمل

كلثوم

مقدمة

لقد سجلت الرواية العربية حضورا كميا ونوعيا أعطى ثماره على مستوى الساحة الأدبية، وهذا بفضل كُتاب برعوا في الكتابة إلى حد الدهشة، لأنهم وجدوا في رحاب الرواية متنفسا للتعبير عن أحوال مجتمعاتهم، واستنطاق النوازع الإنسانية ورصد التدفقات الوجدانية، بكل ما اعتراها من قلق وحيرة، فكانت بحق أصدق لسان عبّر عنها.

ويُعدّ إبراهيم الكوني من أبرز الروائيين العرب الذين شهدت الرواية تألقا على أيديهم، بفضل إبداعاته المتعاقبة والمتميزة، فقدّم مشروعا روائيا، منفتحا على مجالات تخيلية، زاوج فيها بين العديد من النصوص التراثية، فجاءت غنية بقضايا مصيرية شغلت بال الإنسان "الترقي" بصفة خاصة والإنسان العربي بصفة عامة.

فجاءت نصوصه تحمل في طياتها روح الحضارة الترقية، وكل ما احتوته من أنظمة اجتماعية واقتصادية، إضافة إلى قيمها ومعتقداتها، محاولا بذلك تحديد هوية هذا المجتمع وما يحمله من قدرات وأصول تاريخية، سعيا منه إلى التأصيل لها والتعريف بها.

وانطلاقا من اهتمامه الشديد بهذا المجتمع ومعتقداته وتقاليده، جاءت تجربته محمّلة بطابع عجائبي، لتنتج نصا متعدد المعاني،عميق الدلالة، يجسّد العوالم الخفية للذات العربية وواقعها المأساوي، بطريقة أسطورية، عجائبية رمزية، تحمل أفكارا ذات بعد تاريخي فلسفي وديني ... فأثار العديد من القضايا التي اهتم بها الكثير من الفلاسفة والمفكرين وسلط الضوء عليها، فأبدى وجهة نظره في المرأة ،والصحراء، والأسطورة و المقدسات بطريقة جمع فيها بين جمالية السرد ومنطقية الحدث، بلغة

آسرة تشد الانتباه، فقدّم للقارئ شيئا مختلفا وجديدا يحمل ذلك الشغف الذي طالما تمنى أن يجده في الأعمال الأدبية الأخرى، بطريقة أخّاذة تجعله يذيب الحواجز ليغوص في تلك العوالم، بحيث يصبح جزءا لا يتجزأ من الرواية، وكان القارئ شخصية من شخصياتها.

وتعودُ دوافع اختياري لهذا الموضوع،إلى عوامل ذاتية وأخرى موضوعية، أما الذاتية، فهي حب نما وعلاقة توطدت بالعالم الروائي وكل ما زخر به من قراءات في محاولة للوقوف على مضامينه وعوالمه المختلفة، أما الدوافع الموضوعية، فهي رغبة في طرقي أبواب المجهول، لأنّ أعمال الكوني ما زالت تشكّل صرحا غامضا يجهله كثير من طلاب الجامعة الجزائرية إن لم نقل جلهم. ثمّ رغبتي في الوقوف على المراجع التي استقى منها الكوني مادته الحكائية، واستيعاب فضاءات تكونها توقا للكشف عن قيمها التخيلية، والارتقاء بمداركنا إلى الأفق الفسيح لإحالاتها الرمزية، والإمساك بجواهرها ومكنوناتها المثقلة، الناطقة بهموم الواقع الذي عرف فيه الإنسان تزلزلا وانهيارا في القيم، في مجتمعات سادها الجهل و الظلم.

وبغية التمكن من ناصية النص والإحاطة به، ينطلق كل باحث من فرضيات وإشكاليات تكون سندا له في التوغل لأواسط النص، قصد اكتشاف أسراره، لا سيما وأن الكوني قدّم بنى ركز فيها على عوامل الصحراء منتقدا بذلك الحضارة المعاصرة، برؤى جديدة في شكل سردي ومكان وزمان قاسيين قساوة الصحراء. ومن هنا جاءت إشكالية هذا الموضوع لتقف على سر عودة إبراهيم الكوني إلى الثقافات الترقية القديمة، وحديثه عن عاداتها ومعتقداتها، ولماذا لجأ في نصوصه إلى البعد الأسطوري

العجائبي على الرغم من أننا في عصر علمي يؤمن بالمنطق لا غير؟ أهي رغبة منه في التجديد الفني أم أنّ عجز العقل عن تفسير الظواهر الكونية جعله يحيد عما هو عقلاني إلى ما هو إنشائي؟ وكيف وظف جدلية المقدس والمدنس ضمن هذا التنوّع الدلالي؟

ولقد قسّمت المذكرة إلى ثلاثة فصول وخاتمة، ممهّدة للموضوع بمدخل وقفت فيه على نشأة الرواية الليبية، وواقعها النقدي، أمّا الفصل الأول فكان بعنوان "المقدس والمدنس، تحديدات و تمظهرات" ، عرضت فيه ماهية المصطلحين، وأهم الاتجاهات التي اختضنتهما بالدراسة، ثم عرجت فيه لأتناول العلاقة التي تحكم هذين المفهومين، لأنهي الفصل بمبحث عرضت فيه أهم تمظهراتهما. أما الفصل الثاني، فخصصته لتطبيق مفهوم المقدس على رواية "السحرة" لإبراهيم الكوني، فجاء عنوانه: "تجليات المقدس في الرواية"، ليتطرّق هذا المفهوم إلى كل الموجودات التي احتوتها صفحات الرواية من شخصيات، وزمان، ومكان، وأشياء، وظواهر طبيعية، بالإضافة إلى التجليات النفسية و الاجتماعية التي ميزت الفرد "الترقي" ومجتمعه.

وحاول الفصل الأخير المعنون" تجليات المدنس في رواية السحرة" أن يمس الموجودات المدنّسة التي جاءت الرواية على ذكرها، لأختم مذكرتي بخاتمة جعلتها حوصلة لأهمّ الاستنتاجات التي جاءت في البحث.

وقد اعتمدت على مجموعة من المراجع والدراسات ذات الأثر البالغ في بلورة هذا البحث، حيث كان المصدر الأساس في هذا العمل روايتي "السحرة" و"المجوس" لإبراهيم الكوني، وملحمة "الحدود القصوى" لسعيد الغانمي، و "صور ورموز" لميرسيا إيلياد، بالإضافة إلى بعض الكتب النقدية نحو "البنية و الدلالة في روايات إبراهيم نصر

الله" لأحمد مرشد، و "في الرواية العربية الجديدة" لصالح فخري، وغيرها من الكتب التي سايرت البحث حتى نهايته، وفيما يخصّ المنهج المعتمد فقد اعتمدت المنهج الأنثروبولوجي، إذ يُعدّ أقرب المناهج صلة بمثل هذه البحوث الموضوعاتية، كما لجأت في أحايين كثيرة إلى استعمال الوصف والتحليل.

لقد واجهتني مجموعة من الصعوبات أثناء البحث، تتمثّل مجملها في غياب مرجعية تؤصّل للحقول الأنثروبولوجية، فضلا عن جهلي بالمجتمع الترقي وعاداته وتقاليده، فلا غرو حينئذ أن يكون الولوج إلى عوالم إبراهيم الكوني مغامرة يعتريها نقص في الإحاطة بالموضوع من كلّ جوانبه.

ولا يسعني في هذا المقام إلاّ أن أتوجّه أوّلا بالحمد لله الذي أعانني على إتمام هذه المذكرة حمدا طيبا مباركا، ثمّ أتوجه بالشكر الجزيل إلى كل من كان عونا لي في إنهاء هذه المذكرة، وأخص بالذكر أستاذي الكريم الشريف بموسى عبد القادر، وأساتذتي الكرام الذين شرفوني بمناقشتهم لهذه المذكرة، كما أتقدم إلى الجميع بعظيم الامتنان و جميل العرفان.

والله نسأل العفو والمغفرة، والتوفيق والسداد.

أوهيبي كلثوم

04 سبتمبر 2010 الموافق 29 رمضان 1431ه

مدخل

نشأة الرواية الليبية وواقعها النقدي

نشأة الرواية الليبية وواقعها النقدي:

الرواية إبداع أدبي يعتمد السرد والقص يتناول مجالات حياتية في «بنية شديدة التعقيد متراكبة التشكيل، تتلاحم فيما بينها وتتضافر لتشكل في نهاية المطاف، شكلا أدبيا جميلا... اللّغة هي مادته الأولى، كمادة كل جنس أدبي آخر في حقيقة الأمر والخيال هو الماء الكريم الذي يَسقى هذه اللغة فتنمو وتربو وتمرع و تخصب»[1].

وقد استطاعت الرواية أن تجد لها طريقا للتألق في سماء الأدب منافسة بذلك أقوى الأجناس الأدبية وأكثرها شيوعا ألا هو الشعر مُهدِّدة مملكته المحصنة وعرشه الأبدي الذي تربّع عليه لأمد طويل.وتعود شعبية الرواية وتألقها الدائم إلى الخصوصية والمرونة التي تتمتع بها فهي «توجد حيث يوجد الإنسان، هي تنوع عجيب من الفنون المختلفة... فالقارئ يلفيها مُتضَمَنَة في الأسطورة وفي الخرافة، والأقصوصة، والخبر،وفي الحكاية على لسان الحيوان، كذلك نجدها في الملحمة والتراجيديا، وفي الدرامَا، والكوميديا، كما في القصص التاريخي والتمثيل الإيمائي، ونراها في اللوحة المرسومة، ونقرأها في الزخارف الزجاجية، وفي

1- مرتاض عبد المالك، "**في نظرية الرواية بحث في تقنية السرد** "، عن المجلس الوطني للثقافة والفنون، الكويت، 1998م، ص29.

الخبر الصحفي وفي الأحاديث المتبادلة»[1] .بهذه الكيفية ظفرت الرواية بخصائص نمّت حوافزها ومكنوناتها لتوقظ فيضا تواقا جعلها قادرة على الولوج والغوص في عالم القراءة والقراء، مستقطبة عقول المتلقين وعَواطفهم «حاملة طاقة خاصة جعلت الكثيرين يفكرون باعتمادها وسيلة للخطاب والتواصل مع الآخرين وجعلتهم يلجئون إليها حسب مَا يقول **عبد الرحمان منيف** لقول أشياء لايستطيعون قولها في خطاباتهم الاعتيادية»[2]كيف لا .وهي مملكة الرموز وبوابة الغموض، في ربوعها تنسج الفنون وتحاكُ الأفكارُ وتوضعُ الأقنعة، وتُعبّد الطرق وتفند الوسائل لصياغة فنٍّ هو من«أمكَر الوسائل»[3]، يقرأ في سياقات متنوعة وأزمنة مختلفة بدلالات غنية تتجاوز شرط وجوده الأول من هنا تأخذ الرواية صفة الحكاية وتتظاهر بالحياد، ورُبما تتناول أماكن وأزمنة قد تبدو للوهلة الأولى بعيدة أو مختلفة.

«و ما تكاد تنطوي الصفحة الأخيرة حتى يبادر الإنسان بمحاورة نفسه متسائلا مقارنا مستغربا ليصل في النهاية إلى الإدانة والرفض وربما إلى شيء أكثر خطرا»[4]،فالرواية

1- ينظر: عزة آغا ملك، **الوضع التركيبي في عملية التواصل الروائي**"، مجلة الفكر العربي المعاصر، تصدر عن مركز الإنماء القومي"، بيروت،، فيفري عدد 48-49، ص47.

3- رزان محمود إبراهيم، "**خطاب النهضة والتقدم في الرواية العربية المعاصرة**"، دار الشروق، الأردن، ط1، 2003م، ص25

3- رزان محمود إبراهيم، المرجع نفسه، ص26.

4- ينظر: عبد الرحمان منيف، "**عروة الزمن الباهي**"، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، ط1، 1997م، ص137-138.

هي مغامرة خطيرة لأنها «خطاب يملك نوعا من السحر والقابلية على الإغراء و بالتالي التأثير على الناس»[1].

فالرواية هي أيضا « محاولة سردية للتعويض عن فقدان»[2]، فزيادة عن كونها مرآة تجوب الشوارع، هي أداة خطيرة يتخفىَّ وراءها الكاتب ليحمِّلها رسائل قادرة على الوصول إلى أبعد الأماكن»[3]، مسجاها شريعة تخاطب المجتمع من أجل إعادة هيكلة نظمه وقواعده.

والرواية العربية بدورها سايرت الركب، وخاضت رحلة التمرد على الواقع العربي الذي عانى الأمرّين في ظل الاضطهاد السياسي و الظلمات التي أغرقته في أغوار لا عمق لها، فاجتاحت النفوس واستنطقتها وعكست مظاهر البؤس والحرمان ووقفت على مكمن التشتت والضياع « بعمق وجوهرية وحساسية وبسرعة تفوق تطور الواقع نفسه »[4].

و لم تتخلف الرواية المغاربية عن هذا الركب على الرغم من تأخرها في الظهور مقارنة بأقطار المشرق العربي، إلاّ أنّها لم ترض التقليد وُجودا لها، وإنّما « سعت إلى إيجاد سُبل وخلق عَوالم تميزها عن سائر الكتابة الروائية فأصبحت نوعا من البحث المتواصل

1- إبراهيم سعدي، "**دراسات ومقالات في الرواية**"،منشورات السهل، الجزائر،دط،2009،ص 125.

2- مطاع الصفدي، "**بحثا عن النص الروائي**"، مجلة الفكر العربي المعاصر، عدد 48-49، ص4.

3- رزان محمود إبراهيم، "**خطاب النهضة و التقدم في الرواية المعاصرة**"، ص 26

4-إبراهيم عباس،تقنيات البنية السردية في الرواية المغاربية،المطبعة الوطنية للكتاب، الجزائر،ط1،2002م، ص 15

والمعاصر عن قيم جديدة مستقلة »[1]، فذهبت عميقا في جرحها وصدقها، متحدية، مكابرة، تبحث عن الجوهر الكامن في الإنسان والوجود والكون»[2]، دون أن ننكر«إسهام عنصر الثقافة الغربية بوضوح في تشكيل مكونات الخطاب الروائي المغاربي وتأسيسه جنسا أدبيا مستحدثا في الثقافة المغاربية المعاصرة دون إغفال التأثير الذي مارسته المشرقية على هذا الخطاب»[3].

فمنذ مطلع السبعينيات وبداية الثمانينيات، بدأت تشكل التجربة الروائية في بلدان المغرب العربي ظاهرة أدبية جديرة بالاهتمام والبحث وقد كانت قبل ذلك لا تتعدى تلك المحاولات الفردية المتناثرة والمغرقة في الذاتية. في هذه المرحلة حقق المتن الروائي تطورا متناميا من حيث الكم و الكيف واكتسب قاعدة قراء ما فتئت تتنامى.

هذه الأرضية فرضت على الباحثين العودة و التساؤل عن زمن بداية الرواية والبحث عن النصوص التي مهدت لها و أرست قواعدها في هذه الأقطار وقد اعترضتهم في ذلك مصاعب جمّة تنبع أساسا من اختلافهم في تحديد المقاييس النقدية للنص الروائي؛ فالتصنيفات التي ألحقت بالأعمال الأدبية أوقعت الكثير من الكتاب في فخ المصطلحات

1- جمال فوغالي واسيني الأعرج، "**شعرية السرد الروائي**"، عن وزارة الثقافة، الجزائر،د.ط، 2007م، ص30

2-ينظر: نفسه، ص22.

3-بشوشة بن جمعة، "**أسئلة المتن الروائي في الثمانينيات**"، مجلة الموقف الأدبي عن إتحاد الكتاب العرب، ، دمشق، عدد 272، كانون الأول ،2010/04/02.

التي تصعب النجاة منها، إذ يتعذر معرفة المعيار في وصف عمل إبداعي بأنه حكاية أو قصة قصيرة أو قصة طويلة و التي تطور مصطلحها ليصبح رواية. واحتلت تونس الصدارة؛ فقد كانت السّباقة مغاربيا في صياغة نص روائي حيث يُرجع النقاد بداية نشأة الرواية في تونس إلى مستهل هذا القرن بظهور نص «الهيفاء و سراج الليل» 1906م للأديب المصلح السويسي القيرواني، ثم نص "الساحرة التونسية" 1910 م **للأديب محمد الصادق الرزقي.** وعمد بعضهم الآخر من الباحثين والنقاد إلى تحديد زمن بداية الرواية بأواخر الثلاثينيات ومطلع الأربعينيات، تاريخ ظهور "حدث أبوهريرة " قال **للأديب محمود المسعدي.** أمّا تحديد زمن نشـــــــأة الجنس الروائي في المغرب فيثير هو أيضا الجدل، حيث أرجع بعض من النقاد والباحثين زمن انبثاق الرواية المغربية إلى الثلث الأول من القرن العشرين، وهو الزمن الذي اقترن بظهور نص«الرحلة المراكشية أو مرآة المسار والوقتية 1923م » للأديب المصلح عبد الله المؤقت. وهو عمل لا يرقى إلى فن الرواية وإنّما كان تقريرا لوقائع المجتمع في صورة أقرب إلى المثالية الأدبية.

بينما ذهب بعضهم الآخر إلى اعتبار الجزء الأول من نص « في الطفولة» سنة 1957م للكاتب **عبد المجيد بن جلون** «تأسيسا للكتابة الروائية المغربية التي أخذت تحتل

حيزا مُهما في النتاج الأدبي خلال الستينات، وقد ربطت نشأة هذا النوع الأدبي بالواقع المغربي بعد الاستقلال»[1].

أما في ليبيا فقد شهدت محاولات التأسيس لهذا الجنس الأدبي انطلاقتها مع بداية الستينات، فعام 1961م سيبقى خالدا في ذاكرة المشهد الإبداعي في ليبيا إذ كان شاهدا على انطلاقتها الحقيقية من خلال إصدار الأديب **محمد فريد سيالة** لرواية «"اعترافات إنسان" لتكون أول رواية ليبية مطبوعة »[2]، إلاّ أنّ البحث والتقصي أثبت خلاف ذلك إذ يرى بعض الباحثين أنّ نشأة هذا الفن «تعود إلى العقد الرابع من هذا القرن تحديدا سنة 1937م ففيها صدرت الطبعة الأولى من رواية مبروكة للأستاذ **حسن ظافر** التي تدور أحداثها إبّان الحرب الإيطالية و بالضبط بين عامي 1911-1912 م بالجبل الأخضر. ومبروكة فتاة ليبية استشهد والدها وأخوها في خضم المعارك ضد الإيطاليين وقد تطوعت في كتائب المجاهدين، فكانت تحمل الزاد و الماء لهم وتقوم بتمريض جرحاهم، و في الوقت نفسه كانت تتغلغل بين صفوف الطالبات كقروية بسيطة لتنقل إلى قيادة المجاهدين أخبار

[1]- فاطمة الزهراء أزريل، "**مفاهيم نقد الرواية بالمغرب مصادرها العربية و الأجنبية**"، الدار البيضاء، نشر الفنك، 1989م، ص90.

2- حسن الأشلم ، "**جدلية الرؤية و المنهج قراءة في نقد الرواية الليبية** "، ضمن كتاب "تحولات الخطاب النقدي العربي المعاصر مؤتمر النقد الدولي الحادي عشر، كلية الآداب، جامعة اليرموك، عالم الكتب، الأردن، 2006م، ص57.

تحركات هؤلاء الغزاة،...وسيطر المؤلف من خلال عملها وقائع الجهاد المقدس لليبيين ضد الغزو الهجومي الإيطالي... »[1].

وقد طبعت على نفقة مؤلفها عام 1937م في دمشق، وهذا الاختلاف راجع إلى ضياع أغلب الدوريات الليبية، وندرة الأعمال وصعوبة العثور عليها بسبب المشاكل التي عانت منها الطباعة الليبية.

و توالت الأعمال وتتابعت في الستينات لتشهد الساحة الأدبية أعمالا أخرى هي: "أقوى من الحرب" 1962م، و "حصار الكوف" 1964م **لمحمد علي عمر**، و "غروب بلا شروق"1968م **لسعد عمر الغفير سالم**، و هي نصوص كانت أقرب إلى القصة منها إلى الرواية، غير أنّ الانطلاقة الحقيقية للرواية الليبية كانت مع مطلع السبعينيات بتواتر تراكمها لتسجل ما يقارب الثلاثة والعشرين نصا روائيا بينها : «**"من مكة إلى هنا"** للأديب الصادق رجب النيهوم 1970م و "مبروكة ... بطلة من ليبيا 1970 م **لخليفة عبد المجيد** » و"المنتصر، قلوب معذبة" 1971م **لعبد الهادي محمد الربيعي**، و"جديد حتى الروح" 1972م **لمحمد علي عمر**، "نافذة على المطل الخلفي" 1973م، لصاحبها **محمد علي سالم عجينة**، و"وميض في جدار الليل" 1974م **لأحمد محمد نصر**.

---

[1] الصيد أبوديب، الرواية، بمناسبة انعقاد ندوة الرواية العربية وقضايا الأمة، طرابلس 97 ناصر(يوليو)، رابطو الأدباء والكتاب الليبين بالجماهرية العظمى عن الموقع.

ثمّ تتوطد دعائم الرواية الليبية في الثمانينات لتشهد هذه المرحلة «الطفرة الحقيقية بها من خلال عدد من الروائيين الذين تركوا بصماتهم الواضحة في الداخل والخارج »[1]، على نحو وما نجده عند **إبراهيم الكوني** و**أحمد الفقيه** صاحب رواية "حقول الرماد" 1985م، و**مبارك الدريبي** صاحب رواية "طيور المساء" 1984م، و**مرضية الفاس**" المظروف الأزرق" 1982م، وكلها اتجهت « إلى تقديم محتوياتها بطريقة توحي على الواقع »[2] هذه الروايات وغيرها قدمت امتلاكا معرفيا وجماليا للراهن الذي تصدر عنه زمانا ومكانا، فكانت الناهضة بمساره لتاريخي.و متتبع مسار الرواية يتبين له بجلاء أنّ الرواية الليبية قطعت أشواطا كبيرة مع نهاية التسعينات وبداية الألفية من خلال انفتاحها على آفاق معرفية وتقنيات سردية جديدة وذلك بفضل أدباء وكتاب من أمثال **عبد الله الغزال وعبد الرسول العريبي وإبراهيم الكوني** وغيرهم.

بين النقد و الرواية الليبية :

لقد ظهرت في السنوات الأخيرة حركة نقدية نشيطة في الوطن العربي شغل فيها النقد الروائي حيزا كبيرا، فتعرض فيها لمختلف الجوانب الروائية كما رصدَ جميع مضامينها وواكب جميع التغيرات التي مستها عبر محطاتها وأنساقها.

1-حسن الأشلم، جدلية الرواية والمنهج، قراءة في نقد الرواية الليبية، ص57.

2-تيودور ،وضعية السارد في الرواية المعاصرة،ترجمة: محمد برادة،مجلة فصول،دراسة الرواية، ع2صيف12، 91/1993.

ومن البديهي أن تنال الرواية الليبية حظها الوافر من النقد، نظرا للكم الذي حققته وفرة المادة والأرضية التي يحتاجها هذا الأخير، ليبرز مواطن الجمال في الرواية العربية،« إلاّ أن هذه المسيرة الإبداعية وعلى الرغم من مضي أكثر من أربعة عقود على بدايتها لم تلق الترحيب المناسب الذي يبرز مكانتها داخل المشهد الإبداعي الليبي»1ففي حين عَرَفت نظيرَاتها بالأقطار العربية المجاورة تسارعا نقديًا بالغا، ظلت هي تعاني من التجاهل والاهتمام « فالمشهد النقدي لم يتعامل مع الرواية بوصفها فنا له تقنياته الخاصة وأبعادُهُ المضمونة المتميزة عن أجناس كالشعر والقصة القصيرة»2.

والدراسات التي عُنيت بالرواية، شكَّلها النقد الصحفي بالدرجة الأولى، إذ سايرها عبر نشأتها«ويُعزى هذا القصور إلى طبيعة النقد الروائي الذي يكتسي خصوصية... تتمثل في أنه يتعلق بجنس أدبي وافد من الغرب... ومن ثمَّ فإن الناقد العربي حين يقارب الرواية لا يتوفر فيها على أصُول أو تراث نقدي لذا عليه أن يبحث عن جذور له في النقد الأوروبي بالضرورة »3. ويرجع حسن الأشلم هذا التهميش إلى« غياب الصدمة الإبداعية في نشأة الرواية الليبية ويأتي تأكيد ذلك من خلال حقيقة مفادها أن معظم كتاب الرواية الليبية هم

1- المرجع السابق، ص 57.

2 - المرجع السابق ، ص57.

3 - فاطمة الزهراء ازريل، "**مفاهيم نقد الرواية بالمغرب مصادرها العربيةوالأجنبية**"، ص30

من كتاب القصة القصيرة (الكوني،أحمد نصر الله) وبالتالي فإنّ هذه الرواية تعدّ امتدادا تقنيًا و مضمونيًا للقصة القصيرة لدى هؤلاء الكتاب1 .

أما الدراسات الخارجية _ وفي ظل الركود الذي عانى منه النقد الروائي الليبي– تلقفت هذا الفن وانكبَّت على دراسته، فكانت من بين الدراسات النقدية الأولى للرواية الليبية دراسة الباحث سمر روحي بعنوان "دراسات في الرواية الليبية" ، والذي أشاد فيه بمكانتها وضرورة الاهتمام بها.

وقام الباحث حسن الأشلم برصد ثلاث محطات ارتكز حولها النقد الليبي وهي كالأتي: 2

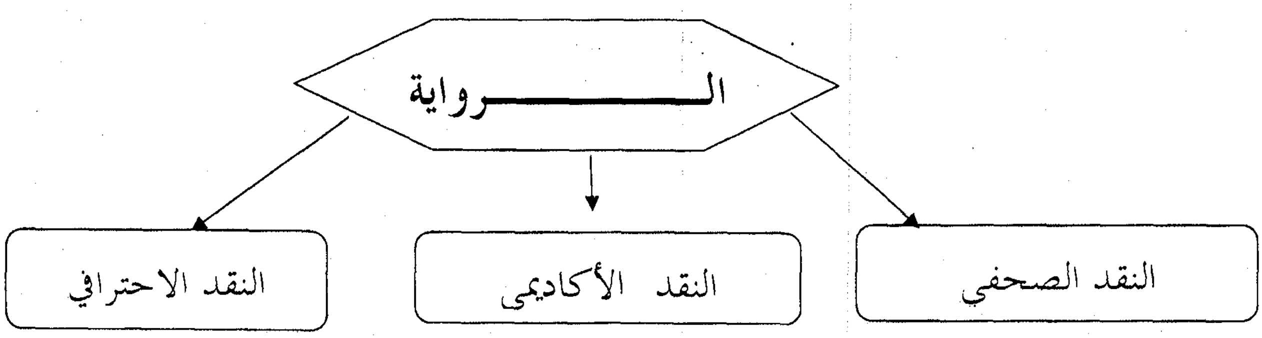

1-. حسن الأشلم، "جدلية الرواية والمنهج"، ص59

2-المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

النقد الصحفي:

غالبا ما تضمنت عبارة النقد الصحفي معنى « قبيحا قد ينتقص من قيمة هذه الإسهامات التي احتوتها الصحف والمجلات بدعوى أنها وليدة اللحظة والانطباع الذاتي» اينضاف إلى ذلك غياب منهج يرسي قواعدها، وينظم أفكارها ويَعُود إقبال النقاد الليبيين على هذا الشكل خلال تلك الفترة الى عدم تلقف مفهوم الرواية التي عانت من نظرة الشك والتي تصنفها ضمن دائرة المشوه القادم من الآخر. كما أنّ عامل اختيار نقاد الرواية للمقالة يعودُ إلى عامل النشأة « والذي لا تسمح في أغلب الأحيان بتأليف كتب شاملة حَولَها، لأنّ هذه الكتب تحتاج إلى نظرة شمولية لا يمكن أن تتأتى للناقد إلاّ بعد تراكم في النتاج الأدبي وتبَحُّر وإطلاع في المجال النقدي»2.

1.النقد الأكاديمي:

لم تعترف الجامعة هي الأيضا بالرواية الليبية، ممّا زاد من ضعف النقد ولكنها ما فتئت أن اعترفت بها وقدمت إسهامات خجولة لتتوقف فيما بعدُ فاسحة المجال أمام الجهود الفردية.

1- فاطمة الزهراء ازريل، مفاهيم نقد الرواية بالمغرب مصادرها العربية و الأجنبية، ص29

2- فاطمة الزهراء ازرويل،المرجع السابق ، ص 30.

2.النقد الاحترافي :

ويقصد به الجهود الفردية في محاولة النهوض بالنقد الليبي الذي تبنَّاهُ النقد الصحفي وتجاهلته الجامعة، باعتبار الرواية دخيلة على المجتمع العربي، على الرغم من القصور الذي شابه، إذ إنّ مَلامِحه تجسَّدت في محاولة معظم المشتغلين به التواصل قدر المستطاع مع المرجعية النقدية الغربية.

إنّ المتتبع للنقد الليبي يلمس حَرَكة نقدية امتازت بالتقهقر في بداياته نظرا للصعوبات التي واجهت هذا الفن الجديد، وقد عرف النقد على إثرها ثلاث محطات شكلت مراحل تطوره حيث قام الباحثون بالتوفيق بين هذه الدوائر لتحقيق مرجعية يصل فيها التفاعل بينها إلى تحقيق الغاية المنشودة من هذه المحاولة.وهي الرقي والتأصيل للنقد الروائي الليبي.

الفصل الأول

المقدس والمدنس تحديدات وتمظهرات

1. ماهية المقدس والمدنس :

أ. المقدس والمدنس بين اللغة و الاصطلاح :

أ. 1- المقدس والمدنس لغة :

لقد أثار كلٌّ من المقدس والمدنس جدلاً كبيرا لدى الدارسين لما يحتويانه من مفاهيم عقائدية، فألفاظ التقديس والقداسة والمقدس في سنوات الأربعين تحيل إلى مرجعية دينية بالأساس، سواء كان موضع التقديس أماكن أو كتب أو كائنات[1] لذا نجد هما محدودين على صعيد الثقافة العربية الإسلامية وذلك لارتباطهما بالثقافة الغربية ولاسيما الديانتين المسيحية واليهودية. ونظرا للدلالة السلبية التي ارتبطت بالمفهومين؛ يتحرج الكثير من الباحثين من استعمالهما في دراساتهم الأكاديمية إذ إن: « مقولتي المقدس والمدنس تثيران العديد من التساؤلات في ذهن القارئ العربي لأنهما يبدوان وكأنهما ينتميان إلى جهاز مفهومي غربي مخالف لنظام المفاهيم العربي الإسلامي»[2].

ويعرِّف **ابن منظور** التقديس بقوله :« التقديس : تنزيه الله عزَّ وجل، وفي التهذيب[3] القدس، تنزيه الله تعالى وهو المتقدس، القدوس، المقدس، يقال قدوس فقول من القدس وهو الطهارة ... وجاء في التفسير أنّه المبارك، والقدوس هو الله عزّ وجل والقدس، البركة ... والأرض المقدسة المطهّرة، وقال الفراء : الأرض المقدسة، القاهرة وهي دمشق وفلسطين وبعض الأردن»[4]، إلاّ أنّ المادة المشتقة منها قد تنسحب على متاع الدنيا فيقال :

---

1 – محمد الجوة، الحقيقية و المقدس، ضمن كتاب "**الإنسان والمقدس**"، دار محمد علي الحامي للنشر، فرع صفاقص، تونس، ط1،1994 م، ص5.

2 – محمد الجويلي، "**الزعيم السياسي في المخيال الإسلامي بين المقدس والمدنس**"، المؤسسة الوطنية، تونس، د ط، د ت، ص236.

3 –الأزهري، أبو منصور محمد بن أحمد الأزهر الهروي، "**تهذيب اللغة** "، تحقيق: أحمد عبد الرحمن مخيمر، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 2004م، 3/6

4– ابن منظور، جمال الدين محمد بن مكرم، "**لسان العرب**"، مادة (ق د س)، دار صادر، بيروت، ط1، 1374ه، 1965م، 6/168-169.

«للسطل المقدّس لأنّه يتقدّسُ منه أي يتطهر . وقال الأخفش: وقد قيل قُدوسٌ بفتح القاف فأمّا القراءة بضمّ القاف وجاء في التفسير: أنّ القدّوس المبارك، ويقالُ أرض مقدسة أي مباركة »[1].

أمّا في التنزيل العزيز فقد ورد هذا اللفظ تسع مرات[2] باشتقاقاته المختلفة جاءت بعضها مسندة إلى الله تعالى " نقدسُ لك، القدوس" وبعضها الآخر نسب إلى أماكن مقدسة مثل الواد " طوى" الذي تكلم فيه سبحانه وتعالى مع موسى عليه السلام، والاشتقاقات المتبقية كلها وصفت «روح القدس وهو جبريل عليه السلام»[3] والمقدس هو«المطهر من المآثم»[4].

والمتأمّل في هذه الآيات وما قيل في تفاسيرها يتضح له أنها تضمنت المعاني التالية :

– **التنزيه:** القدوس:«إشارة إلى أنه منزه عن نقائص الملوك المعروفة من الغرور، والاسترسال في الشهوات ونحو ذلك من نقائص النفوس»[5]، وقال الزمخشري في هذا الصدد التنزيه : «تزايد عن كل شيء وتعالى عنه في صفاته وأفعاله»[6].

– **الطهارة:** القدوس : اسم يشيع بالقداسة والطهارة المطلقة ويلقي في ضمير المؤمن هذا الإشعاع الطهور فينظف قلبه ليصبح صالحا ليلتقي فيوض الملك القدوس والتسبيح له والتقديس.

1- المصدر السابق،6 /169.

2- ورد لفظ المقدس باشتقاقاته في الآيات التالية : البقرة:30-87-253، سورة المائدة :21-110، سورة طه: 12-، سورة النحل: 102، سورة الحشر: 23، الجمعة :1، ينظر: محمد فؤاد عبد الباقي ،"**المعجم المفهرس لألفاظ القرآن**"، دار المعرفة بيروت، ط1، 1414ه، 1994م، ص683.

3- ابن كثير، عماد الدين أبو الفداء، إسماعيل القرشي، "**تفسير القرآن الكريم**"، دار التراث العربي، بيروت،، د.ط، 166/1.

4- الزمخشري، جار الله محمد بن عمر، " **الكشاف، عن حقائق التنزيل، وعيون الأقاويل في وجوه التأويل**"، دار الكتاب العربي، بيروت، 400/3.

5- الطاهر بن عاشور ، "**تفسير التحرير والتنوير**"، دار التونسية، تونس، د ط، 1984م، 120/27.

6- الزمخشري، المصدر السابق،144/6.

– **المبارك أو البركة**: «قال وهب بن منبه :أي الطاهر، وقال مجاهد وقتادة "أي المبارك"»[1].

– **التعظيم**: عن **مُرَّة عَن ابن مسعود** وناس من الصحابة؛ « ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك قال يقولون نصلي لك»، وقال **مجاهد**: « ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك، نعظمك ونكبرك»، وقال **ابن مرير** : «التقديس هو التعظيم والتطهير.. وبقولهم قدوس: طهارة وتعظيم له»[2] .

يتبين من التعاريف والتفاسير السابقة أنّ مفهوم المقدس تتمحور حوله أربع دلالات هي:

الطهارة، البركة (المبارك)، التنزيه، العظمة أو التعظيم، وهي دلالات لا تستند إلا للذات الإلهية المنزّهة عن كل العيوب والنقائص، كما أنّها جاءت من خلال القرآن الكريم لوصف فعل من أفعال الملائكة (نقدس لك)، ووصف الروح القدس – جبريل عليه السلام – وفي وصف أماكن مثل الواد المقدس "طوى" أو الأرض التي أمر موسى قومه بالهجرة إليها. وهي كلها مخلوقات وأماكن ارتبط فيها التقديس بالاختبار الإلهي لذا فهي مطهرة ومنزهة إلهيا.

وأهم ما يلاحظه الباحث من خلال النص القرآني هو تجرد الإنسان من هذه الصفة، فالمقدس حسب دلالة النص الديني لا تنسحب على البشر غير أنّه وبمرور الزمن، تشبّع المفهوم واكتسب دلالاتٍ ومفاهيم جديدة جعلته «يعود ليلتصق بعالم الإنسان، ولكن يلتصق بنخبة هذا العالم وصفوته من البشر الطاهرين المنزهين عن العيوب والنقائص، أو الذين يتخيل أن يكونوا كذلك»[3]، كما هو الحال في الديانة المسيحية والتي «صار فيها الرجل إلها عند النصارى»[4].

1- ابن كثير، المصدر السابق، 343/1.

2- المصدر السابق، الصفحة نفسها.

3- محمد الجويلي، "**الزعيم السياسي في المخيال الإسلامي بين المقدس و المدنس**"،ص37.

4- محمد عبد المعين خان، "**الأساطير والخرافات عند العرب**"، دار الحداثة ، لبنان، ط3 ،1981م، ص152.

ونظرا للإنزيحات التي يحيل عليها هذا المفهوم فإنّه يشير عند الإنسان الديني نوعًا من التبجيل والاحترام، فبقدر ما يثيره هذا اللفظ من خشوع واحترام، بقدر ما تحيط به الخشية والرهبة، وهذا هو موطن الازدواجية التي تصاحبه، فالمقدس «تلبسّ الإعجاب بالخوف، والافتنان بالهلع والذعر»[1].

ويأخذ المقدس أيضا معنى الحرام؛ وقد طبق على الأشياء المقدسة مبدأ التحريم حتى لا يتم انتهاكها وتدنيسها.

ويطلق عليه في اللغة الفرنسية لفظ[2] Le sacré و يشير إلى الإلهي أو الطريق إلى الله، كما أنّه يتعلق بكل ما هو ديني من شعائر وطقوس تدفع إلى الاحترام والتبجيل.

أما كلمة Saintété فمعناها القداسة ومنها تأتي كلمة Le saint والتي تشير إلى القديس الفاضل الحاصل على تمام القبول عند الله.

وإذا كان المقدس هو الطاهر المنزه عن العيوب فإنّ المدنس هو الرجس ويعرفه ابن منظور: «والدنس في الثياب، اللطخ والوسخ ونحوه حتى في الأخلاق والجمع أدناس وقد دَنّس، يدنس، دنسا فهو دنيس، توسّخ، تدنس، اتّسخ...وفي الحديث : الإيمان كأن ثيابهُ لم يمسسها دنسٌ، الدنس، الوسخ، ورجلٌ دَنيس المروءة والاسم الدنس، ودَنَس الرجلُ عِرضَهُ إذا فعل ما يشينهُ»[3].

فالمدنس هو نقيض المقدس وهو الرجس مقابل الطهر الذي لا يخلو من العيوب والنقائص بل هو العيوب نفسها.

ويذهب البعض إلى أنّ المدنس يشير إلى الدنيا، فالدنيا من الدناءة «أي من الحقارة والرجس ومن الدنو والقرب الذي يوحي بالانجاز أي الزوال، و الانتهاء»[4] ، ويعرفها **التهانوي** بقوله : «الدُّنيا بالضم وسكون النون في اللغة عبارة عن هذا العالم...واعلم أن

1- محمد الجويلي، المرجع السابق، ص37.

2- ENCYCLOPEDIQUE UNIVERSALISE ,SACRE

3- ابن منظور، "**لسان العرب**"، مادة(د،ن،س)،88/6.

4- محمد الجويلي،"**الزعيم السياسي في المخيال الإسلامي بين المقدس والمدنس**"،ص36-37.

العلماء فسروا الدنيا بأنها ما حواه الليل والنهار وأقالته السماء وأقلته الأرض واختلفوا في المزهود فيه من الدنيا، فقيل الدينار والدرهم وقيل المطعم، والمشرب، والملبس، والمسكن قيل الحياة»[1] فالمدنس هو **الدنيوي**، وهو العالم الحسي الناقص المليء بالمتاعب والرذائل الآيل إلى الزوال.

وأكثر القرآن مشتمل على ذمّ الدنيا «وصَرف النفس عنها»[2]، فقد أنقص الله من قيمتها ونهانا عن الاغترار بها من ذلك قوله عز وجل: ﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ ۖ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ۖ فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ ۗ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَـٰعُ ٱلْغُرُورِ ﴿١٨٥﴾ ﴾[3]، ويبين الله مثلها في قوله تعالى:﴿ وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَـٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ ٱلرِّيَـٰحُ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ مُّقْتَدِرًا ﴿٤٥﴾ ﴾*+. كما أنّ الرسول صلى الله عليه وسلم حذرنا منها مبينا لنا صفاتها، ففي خطبة له عليه السلام ، أما بعد :«فإني أحذّركم الدنيا، فإنها حلوة ، خضرة،

1- محمد التهانوي،"**كشاف اصطلاحات الفنون والعلوم**"،تقديم رفيق العجم،مكتبة لبنان ناشرون،لبنان، ط1،1996، 913/1.

2- احمد بن مصطفى الشهير بطاش، كبرى زاده، موسوعة" **مصطلحات السعادة ومصباح السادة في موضوعات العلوم**"، بقديم: رفيق العجم، تحقيق: دحروج، مكتبة لبنان ناشرون ، لبنان، ط1، 1998، ص449.

3- سورة آل عمران الآية 185.

4- سورة الكهف الآية 45

حُفّت بالشهوات ، وتحبّبت بالعاجلة، وراقت بالقليل، وتحلّت بالآمال، وتزيّنت بالغرور، لا تدوم حبرتها ولا تُؤمن فُجعتها، غرّارة، ضرّارة، حائلة، زائلة، نافذة، بائدة....»[1].

وعنه صلى الله عليه وسلم أنّه وقف على مزبلة فقال : «هلموا إلى الدنيا وأخذ خرقا قد بليت على تلك المزبلة وعظاما قد نخرت فقال هذه الدنيا»[2] «الدنيا ملعونة ملعون ما فيها إلا ما كان لله منها»[3]. والدنيا التي ذمتها الآيات القرآنية، و الأحاديث النبوية هي تلك «الدنيا التي تعيش في القلب لا دنيا المظهر والمادة»[4].

ويقابل لفظ المدنس في المعاجم الفرنسية Profane إلاّ أن هذا الأخير يطرح إشكالية في ترجمته إلى اللغة العربية، فهل هو الدنيوي أم المدنس أم العادي أو الطبيعي، أو النافل الأرضي ؟

أ – 2 . المقدس والمدنس اصطلاحا :

إنّ مسألة المقدس والمدنس تطرح أكثر من إشكالية، وهذا راجع إلى طبيعتهما التي يلفها الغموض، إذ جعلتهما يدخلان حيز السهل الممتنع، سهلين في رصد ظواهرها وممتنعين من حيث الماهية، فالعقل قادر على إدراك كُنههما، أمّا اللّغة فتظل عاجزة عن التعبير عنهما، و في ظل المحاولات التي استقرأتها يُلفى المتتبع للظاهرة اختلافا وتعددا في الآراء والمذاهب لتحديد مفهومها، ويتفق الباحثون على أنّ كُلٌّ من يخوض غمار البحث فيهما يجد صعوبة في بحثه، لأن دراستهما تستدعي أولا العودة والبحث عن الجذور التاريخية للمقدسات والمدنسات ورصد أصولها وتتبع مراحلهما عبر مختلف الأطوار التي مرت بها

1- علي بن ابي طالب، "**نهج البلاغة**"، شرح محمد عبدو، تحقيق علي احمد حمود، المكتبة العصرية، بيروت،د ط، 2006، 137/1

2- أبو حامد الغزالي، "**إحياء علوم الدين**"، دار الثقافة ،بيروت، ط1، 1991م، 176/3.

3- المرجع نفسه،175/3.

4- محمد احمد علي،" **مقامات العرفان**"، مؤسسة الانتشار العربي، بيروت، ط1-2007، ص:97.

المجتمعات الإنسانية، بالإضافة إلى مشكلة أخرى، هي اختلافهم في المناهج التي استقرؤا بها الظاهرتين.

هذه الإشكالية، ولدت فجوة بين الدارسين، فالباحث يُلفي المؤيد و المعارض لفكرة قراءة المقدس ،إذ إنّ مجرد البحث عن المقدس هو تعدِّي وإنتهاك للدين وحرماته وهذا ما تنحو نحوه الباحثة **ماكريوس** إذ تقول : « إنّ البحث في المقدس والمدنس هو في ذاته إبطال لمفعول قدسيته بل إنّه شكل من أشكال انتهاك المحرّم »[1] وهي نفس الفكرة التي تبناها **روجي كايو** فهو أيضا يمنع الخوض في المقدس لأنّه : «مقولة حساسة، ينبني عليها السلوك الديني، تهبه طابعه المميز، وتفرض على المؤمنين احتراما يقي اعتقاده كل روح نقدية، فيعرض عن الخوض فيه، ويضعه خارج العقل وما بعده»[2].

من خلال التعريف الذي يقدمه **روجي كايو** فإن المقدس عنده يأخذ بعدا روحيا لأن مظهره متسَّم بطابع ديني، فهو عالم مفارق غيبي، مجاوز للحقائق الطبيعية، لذا يمنع البحث فيه لأنه يجاوز المستوى الإدراكي للعقل البشري

أما الباحث الانثروبولوجي **ميرسيا إلياد**، فأول تعريف يقدمه للقدسي « أنّه يضاد الدنيوي»[3] وانطلاقا من هذا التعريف يقدم لنا نقطة ارتكازية للبحث عن المقدس، فمسألة المقدس تقتضي بالضرورة البحث عن نقيضه، وإقامة موازنة بينهما في سبيل إدراك كنههما، فالقدسي هو العالم المثالي المتعالي، هو مركز القوة ومنبع الحقيقة المطلقة، الذي يلزم الإنسان أن يقف أمامه موقف الإجلال، لأنّ تجليه دائما يقدم حقيقة من صعيد آخر تتجاوز الحقائق الطبيعية، وهذا كله يأتي مقابل العالم الناقص فالمدنس أو الدنيوي «هو الموجودات التي لم

1-نقلا عن ماكريوس،نور الدين الزاهي،" **المقدس الإسلامي**"،دار توبقال للنشر، الدار البيضاء،ط1، 2005، ص: 17.

2 -Roger calloi ,l'homme et le sacré, p :18.

3- ميرسيا إلياد، "**المقدس و المدنس**"، العربي للطباعة والنشر والتوزيع، دمشق، ط1 ،1987، ص13.

يعد يتخذ منها الإنسان موقف التقديس أو المساس أو أية تجلية واحترام»[1] لأنّه عالم زائل آيل إلى الفناء.

أمّا **ميلسن** فلجأ إلى دراسة المقدس من خلال دراسة الإنسان، لأنّه يشكل ظاهرة دينية، فوجوده شرط أساسي في معرفة ماهية المقدس والمدنس. ففهمهما منوط بفهم الإنسان ولغاته التي يتواصل بها، لأن الإنسان يعرب عن واقعه بمفاهيم وأساطير و رموز، و **ميلسن** دَعَا إلى دراسة هذه الرموز والواقع الذي يعتبره مقدسا ومتعاليا لفهم المقدس.

ومن خلال دراسته توصل إلى تعريف المقدس على أنّه : « علاقة»[2] ينتجها الإنسان مع مجتمعه وتجربة وجدانية يقيمها مع شيء ما تخضع لعاطفة الخوف أو الدهشة، فهو الوحيد القادر على إيراد المقاييس التي على أساسها يميز بين ما هو قدسي وغير قدسي.

وإلى هذا النحو يذهب **مالوفا أبو رغيف** فالقدسية عنده : « لا تكمن في البناية أو الحجر ... بل ما يحمله الإنسان اتجاه هذا الشيء، هو القيمة الشعورية والدينية والتبجيل اتجاه شيء ما ..... »[3]

وفي المقابل تذهب الماركسية إلى أن المقدس هو وليد العجز الإنساني، فعندما يعجز الإنسان عن فهم ظواهر بعينها يقوم بتقديسها و الدليل على ذلك تدرجه في تقديس الأشياء، إذ اكتفى في بداياته « بكائنات أكثر تواضعا وأعظم قربا من الإنسان مثل الأشجار، والصخور، والينابيع، أو الحيوانات التي كانت تثير دهشة الإنسان من حيث قُوتها أو طرافتها أو روعة غريزتها...»[4].

فكلما تطورت معرفته وتمكن من فك رموز الأشياء التي كان يعبدها فإنّه يتجاوزها للبحث عن شيء أكثر غرابة ودهشة، وهي الفرضية التي استندت عليها الماركسية إذ تعتقد : « أن

1- جيب عادل العوا، "**علم الأديان وبنية الفكر الإسلامي**"، منشورات عويدات،بيروت،ط1، 1977،ص:196

2- جيب عادل العوا ،المرجع نفسه ص20 .

3 - مالوف أبورغيف، "**المقدس والعصبيات الدينية**"، الحوار المتمدن.

4-جيب عادل العوا، المرجع السابق، ص73 .

المقدس والأنظمة الدينية عامة تستمد جذورها من العجز الإنساني عند مجابهة الكوارث الطبيعية مجابهة فعلية ومن العجز عن التفسير الظواهر الفلكية تفسيرا موضوعيا» [1].

ويذهب البعض الآخر إلى أن المقدس يعتبر أداة نموذجية تنظيمية بحكم طابعه المتعالي، فالمقدس له «وظيفة علاجية وقائية» [2] قوامها التطهير، ووحدة الجماعة والتماهي مع الإله، لأنّه عنصر من عناصر بنية الوعي تنتشل الإنسان من الفوضى إلى التنظيم، فاستجلاء المقدس في الحياة البشرية يغطي النقائص ويقضي على الفوضى التي يشعها العالم الدنيوي، لأنّ هذا الأخير يكتسب قيمة تدميرية .

فالمقدس هو عالم تنظيمي يُحدّ من سلبية ورتابة العالم الدنيوي، ونظرا للايجابية التي يكتسبها بحكم وظيفته التطهيرية يعتبر أحد « أركان توازن الأنا في مواجهة النسق الاجتماعي الثقافي المتحرك» [3] كونه يخفف من وطأة التوترات، إذ يستطيع تحويل الحاضر المظلم إلى مستقبل مشرق،

فالمقدسات رموز« تحدد لأفراد الثقافة رؤيتهم للعالم المحيط، وإن ظلت رموزا غير معلنة أو حتى محسوسة دائما » [4].

وينفرد المقدس بميزة هي قدرته على التحول و التجدد، **فرودولف أوتو** «الشأن المقدس بأنه مغاير» [5] فهو غير ثابت لأنّ رؤية الإنسان للمقدس قابلة للتغير تبعا لتطور معرفته بالعالم

1- التيجاني قماط، "**الإنسان والمقدس**"،ص 72

2- ينظر: نور الدين طوالبي،"**في إشكالية المقدس**" ،ديوان المطبوعات الجامعية،الجزائر،ط1،1988 ، ص42-43.

3-التيجاني قماط،المرجع السابق،ص:72.

4- سعد البازغي، **استقبال الآخر ، الغرب في النقد العربي الحديث**، المركز الثقافي العربي ، ط1 ،2004، الدار البيضاء ، المغرب، ص53.

- ميرسيا إلياد، "**الحنين إلى الأصول في منهجية الأديان وتاريخها**"،ترجمة:حسن قبيسي،المركز الثقافي ، الدار البيضاء،المغرب،ط1،

الخارجي،« فما هو مقدس اليوم قد يصبح مدنسا غدا»[1]، بالإضافة إلى خاصية أخرى هي قدرته على التجلي والتمظهر في العديد من الظواهر والأشياء المادية.

إنّ إهامية المقدس والمدنس جعلت العديد من الباحثين يربطون بينهما وبين الدين، لأنّ الظاهرتين أبرزتا في محاولة تعريف الدين، فالنقلة النوعية، التي عرفها المجتمع الصناعي دفعت بعلماء الأنثروبولوجيا إلى إعادة النظر في بنية المجتمع، وأول نقطة تنبهوا إليها هي العناية بالمشكلة الدينية في العصر الحديث، فقاموا بدراستها من خلال مضامين كبرى كدراسة، الأساطير، الشعائر الدينية، مفهوم المقدسات.

ويعرف **دوركهايم** الدين بقوله « كل المعتقدات الدينية بسيطها ومركبها، تنضوي على خصوصية عامة مشتركة، فهي تفرض تقسيما لكل الأشياء المنظور منها والغيبي يضعها في زمرتين، زمرة المقدس، وزمرة الدنيوي، وهو يرى أنّ هذا التقسيم إلى عالمين يحتوي الواحد منهما على كل ما هو مقدس والآخر كل ما هو دنيوي الذي هو السمة الأساسية للدين»[2]، فمن خلال تعريف **دور كهايم** نرى أنّه يعرف المقدس بالديني، ويجعله متعارضا مع المدنس، فالمقدس عند **إميل دور كهايم** يتضمن « ظواهر تعتبر بأنّها تفوق الطبيعة لأنّها سامية ونافذة وخارج حدود الزمن والأحداث »[3]، و بالتالي فالمقدس عنده يحتوي على كل ماهو غريب وعجيب، فهو« متماثل معالإلهي Le Divin لذا فإنّه مميز بالتعالي عن حياة الأفراد»[+].

هذا التعريف اعترض عليه الكثير من الباحثين لأنّه تعريف شمل جميع الديانات ونبهوا إلى الاختلافات الحاصلة بين الديانات سواء على المستوى العمودي أو الأفقي، «فعلى المستوى العمودي (التاريخي) هناك اختلافات كبيرة بين الديانات المجردة و النسقية من مثل

2005، ص5.

1- جيب عادل العوا، علم الأديان وبنية الفكر الإسلامي،ص73.

2- فراس السواح، نشأة الدين ،بحث في ماهية الدافع الديني ،منشورات دار العلاء ،دمشق ،ط3، 1998، ص 26.

3- معين خليل العمر، معجم علم اجتماع المعاصر، دار الشروق للنشر و التوزيع، الأردن، ط1، 2000م، ص367.

+ نقلا عن : Les formes élémantaire de la vi e religieuse، نور الدين الزاهي، ص17.

الديانات الكتابية السماوية، والديانات الأولية التي ظلت ممركزة حول العلاقة المباشرة مع الطبيعة بعوالمها الخفية و الظاهرة.

أما الثاني فيتم فيه إغفال الفروق الأفقية خصوصا عندما يتعلق الأمر بالديانات الكتابية (اليهودية، المسيحية و الإسلام)، يرجع هذا الإغفال إما إلى الاكتفاء بمعرفة العلاقة بين المقدس الديني سواء داخل اليهودية أو المسيحية، ومن تم تعميم هذه العلاقة على المجموع بحجة أنّها ديانات كتابية، متشابهاتها تطغى وتتغلب على متمايزاتها.

أما الاعتراض الثالث وانتبه إليه الفيلسوف الألماني **كانط** حيث «أرساه عبر إيضاح الفرق بين المقدس sacré والولاية والقداسة sainteté يشير المقدس إلى علاقة بين ذوات وأشياء أو موضوعات، هي موضوعات وأشياء العالم، بينما القداسة تحيل إلى علاقة بينَ ذوات إلهية وذوات المؤمنين»[1].

أمّا الثقافة العربية الإسلامية فنظرتها للمقدس تختلف عن نظرة الغرب له، لأنّ بنيتها العقائدية تقوم على مبدأ التوحيد، فالإسلام عقلن هذا المفهوم وحَصره في الرؤية الإنسانية لصفة الألوهية، هو الحقيقة المطلقة، وكل ما يحف بالعالم الإلهي في نقاوته وطهارته الخالصة،« أما المدنس فهو التمرد والخروج عن هاته الصفة، ويُنبه **جوزيف شلهود** على ضرورة تميز المقدس Le sacré عن القداسة sainteté داخل الثقافة العربية الإسلامية على أنّ المقدس «مماز للدين، وإن كان في الوقت نفسه يعانق كل من الطاهرLe pur والدنس L'impur ، فإن الدين موجه نحو القداسة بما هي طهارة Pureté »[2].

من خلال التعريف الذي يقدمه **جوزيف** يرى أن المقدس يحمل دلالة ازدواجية تتمظهر في شكلين، الطاهر والدنس، « إنّها عناصره الأساسية على اعتبار أن الطاهر سيكون على صلة بالسماوي الديني، بينما الدنس يكون على صلة بالمجال السحري والجني وبين السماوي والدنيوي يحضُرُ الحلال Le licite والحرام L'illicité، فالأول ينظم

---

1 نور الدين الزاهي، المقدس الإسلامي،دار توبقال للنشر،الدار البيضاء،ط1، 2005، ص19-20.

2 المرجع السابق، ص.27 .

العلاقة بالمجال الدنيوي بينما الآخر فإنه ينظم العلاقة بالمجال السماوي»[1], وهذا ما يجعله في رأيه متمايز عن الدين، ولكن **نور الدين الزاهي** يذهب إلى عكس ما ذهب إليه **جوزيف شلهود**، فهو يقر بشمولية المقدس، وينفي تقابله مع الديني نجده يقول : «أن المقدس يشمل حقل القداسة، فهو أشمل منها،لأنه لا يقتصر بفعل غناه الدلالي على الذوات، بل يحيل إلى الزمان و المكان أيضا، مما يؤدي إلى ميزته الثالثة والمتمثلة في تداخله الكبير مع الديني، وفي التصاقه بالإلهي الطاهر والذي لا يجعله متماهيا معه»[2]، وبناءً عليه، فالدين هو الذي يهيكل وينظم علاقة الإنسان بالمقدس والمدنس، فهو « المحيط الذي تتحرك داخله علاقة الدنيوي القدسي وهو المنظم لأساليب تأكيد هذا الحضور عن طريق التصورات والممارسات التي يدعوا إليها لتفريق العالمين »[3].

وعليه يمكن ربط المقدس بكل ما هو ديني أو عقائدي، فالمقدس هو «إحساس ديني مرتبط بكل ما هو علي عن الإنسان، ويتطلب زيادة على الاحترام و الانبهار لهفة خاصة هي في الحقيقة الأمر إحساس يتكون من عنصر الخوف وعنصر السرية أو اللامعرفة و عنصر الإنبهار أمام المقدس»[4].

2- جدلية المقدس و المدنس :

إنّ التعاريف التي ساقها الباحثون من أمثال **موس ودوركهايم** قامت بالتميز الجذري بين مجالين اثنين، الأول متعلق بالقدسي و الثاني متعلق بالدنيوي، هذه التعاريف قطعت الوصال بين العالمين و**دوركهايم** يؤكد هذا الانفصال بقوله : « ليس في تاريخ الفكر البشري مثل آخر على مقولتين تتقابلان تقابلا تاما، حتى أنّ تقابل الخير و الشر نوعان متضادان من جنس واحد هو الأخلاقي، أمّا المقدس و(العادي) فهما أشبه بجنسين

---

1 المرجع السابق، ص27

2نور الدين الزاهي، المرجع نفسه ، ص32

3 حكيم ميلود، الكرامة الصوفية في منطقة تلمسان، دراسة انتروبولوجية –سيميائية ، من خلال مدونة ابن مريم "البستان في ذاكرة الأولياء والعلماء بتلمسان "، رسالة ماجستير، إشراف عبد الحميد بورايو، جامعة تلمسان،1997-1998،ص6-7.

4 أعواج بن عمر ، تمثلات المقدس في ثقافة المؤسسة، مجلة أنثروبولوجية الأديان ، ع5، ص195.

مختلفين»[1]، و قد أصبحت هذه المقابلة بين المقدس والمدنس ضرورية في تمييز ما هو ديني عما هو لا ديني.

وهو نفس الاتّجاه الذي تنحو نحوه الصوفية باعتبار أنّ المقدس: « هو الحقيقة المطلقة ..... بينما المدنس هو عالم كل ما فيه متسخ ومفارق للعالم الرباني ....وبلغة الفلاسفة يصبح المقدس جوهرا والمدنس عرضا أي أن الأول حقيقة لا زمنية سرمدية تتعالى على التاريخ وتزدريه، في حين أنّ المدنس مغرق في الزمنية وملطخ بالتاريخية فهو زائل لا يدوم».[2]

يتضح من خلال هذه الآراء أنّه لا وجود للمدنس في العالم القدسي، ولا حضور للقدسي في دائرة الدنيوي، لأنّهما عالمان مختلفان تتجلى حقيقتهما في الطاهر والخبيث ويترجم التضاد بين القدسي و الدنيوي غالبا بالتضاد بين الحقيقي وغير الحقيقي أو الزائف .

وبهذا نفهم امتناع قياس تماس بين الأشياء المقدسة وغير مقدسة ويتضح سبب التحريم أو ضرورة اتخاذ قيود خاصة عند الاضطرار إلى إقامة ضرب من العلاقة بين النوعين المذكورين «إنّ الأشياء المقدسة هي الأشياء التي يعزلها التحريم عن سواها ويحميها. وأنّ الأشياء غير مقدسة هي التي ينطبق عليها التحريم لتظل على مسافة من الأشياء المقدسة»[3].

إلاّ أن الدراسات التي جاءت بعد **دوركهايم** حاولت التخفيف من وطأة هذا التعارض لأنّ العلاقة بين المقدس و المدنس لا تعرف الاستقرار، فهي مطاطية، وعليه فإنّ المقدس يحوي الدنيوي فكلاهما ضروري لتطور الحياة، و الدليل على ذلك أنّ الأشياء دنيوية بسيطة مثل شرب الماء الذي يروي العطش يحمل وظيفة قدسية يؤشر عليها شكر الله وحده... »[4].

1- جيب عادل العوا ، "**علم الأديان و بنية الفكر الإسلامي**"، ص67.

2 -محمد الجو يلي، "**الزعيم السياسي في المخيال الإسلامي**"، ص37.

3- المرجع السابق، ص67.

نور الدين الزاهي، المقدس الإسلامي، ص 22 .

فالقدسي يتصل بالدنيوي من خلال صلة تجمعهما إلى دارة واحدة : « فالمقدس يبين ويظهر تعايش الجوهرين، المتضادين، قدسي دنيوي، روح مادة ، أبدي فان »[1].

والإيديولوجيات الإسلامية تقر بالعلاقة بين المقدس والمدنس، إنّ المدنس هو ضرورة حتمية ملازمة للوجود البشري لا مفر منه ومن المستحيل توظيفه لخدمة المقدس لذا وجب إخضاعه للشرع.[2]فالعلاقة بينهما تبقي علاقة تضايف لأنّ المقدس هو الذي ينظم العالم الدنيوي ويحد من عشوائية وعمائه ويبقى الإنسان هو نقطة التقاء العالمين، لأنّه يستلهم المقدس من الدين، ويقوم بتفعيله في العالم الدنيوي حتى يحقق ذاتيته.

وبناءً على ما تقدم إنّ المقدس يجسد العالم السحري و العجائبي الذي لا يستطيع العقل البشري إدراكه، لذا يأتي العالم الدنيوي حلقة وصل ليفتح أفاق المغامرة لمعانقة الممكن منه وذلك عن طريق تقريبه إلى المجال القدسي عن طريق التشبيه.

3- تمظهرات المقدس والمدنس:

إنّ الطبيعة الإنسيابية للمقدس والمدنس، والتي جعلتهما فوق الحقائق الطبيعية، جعلت الباحثين عاجزين عن إيراد تعريف جامع مانع للمصطلحين، فجنحوا إلى البحث عنهما من خلال تجلياتهما hierophanie وتمظهراتهما، فلقد بيَّن **ميرسيا إلياد** في أبحاثه كيف أن كل شيء :« قابل لأن يكون مقدسا، فالمكان والزمان والكائنات الحية والجماد، والكماليات، والأفعال جميعها قابلة للانخراط ضمن فضاء مقدس»[3].

3- أ. المكان المقدس والمدنس:

إنّ الثنائية التي استند عليها **دوركهايم** في تعريفه للدين، و التي على اثرها قسم الأشياء المنظور منها والغيبي إلى زمرتين، زمرة المقدس وزمرة المدنس، فرضت نفسها على المكان، ليتسم هو أيضا بطابع قدسي وآخر دنيوي.

---

1 Mircia Eliad/T raite d'histoire de religieuse/p38

2محمد اجو يلي، "الزعيم السياسي"، ص38.

3-ميرسيا إلياد، "**المقدس والدنيوي**"، ص:190-191.

وهو التقسيم نفسه الذي اعتمده **ميرسيا إلياد**، فالإنسان المؤمن عنده يفرق بين مكانين؛ مكان قدسي وغير قدسي، فالمكان القدسي عنده : « هو مكان ليس متجانسا فيه انقطاعات وفجوات، فيه أجزاء تختلف اختلافا نوعيا عن الأجزاء الأخرى»[1]. أمّا المكان الدنيوي أو مكان الخبرة الدنيوية فهو«متجانس ومحايد، لانكسار يفرقه نوعيا»[2]. ليتضح من المقارنة التي يجريها **ميرسيا إلياد** بين المكانين، يتضح أن المكان القدسي هو المكان الحقيقي، لأن حضور المقدس فيه طبعه بصفة الرهبة والخشية والطمأنينة، وهذا ما يمنحه الديمومة والفعالية، وعلى النقيض الآخر يوجد المكان الدنيوي أو الموضوعي الذي أفرغ من محتواه وطبع بصفة النقصان، لأنه مكان مجهول غير مطوّب، يتسم بالعماء ، ومجرد مساحة لا شكل لها، إذ إن حضوره لا قيمة له، وهو يترك في نفس الإنسان الديني فراغا لطالما بحث عن سدّه بمحاكاة المقدس.

من خلال البحث عن الأمكنة المقدسة التي يجد فيها الإنسان الديني توازنا روحيا، أما التشريع الإسلامي فقد فضّل أماكن بعينها وخصّها بالتقديس و ها هو **ابن خلدون** يبين ذلك في مقدمته إذ يقول : « اعلم أن الله سبحانه وتعالى فضّل من الأرض بقاعا اختصها بتشريفه، وجعلها مواطن لعبادته، يضاعف فيها الثواب وتنمو بها الأجور، وأخبرنا بذلك على ألسنة رُسله وأنبيائه، لطفا بعباده وتسهيلا لطرق السعادة لهم، وكانت المساجد الثلاث هي أفضل بقاع الأرض حسبما ثبت في الصحيحين وهي مكة والمدينة وبيت المقدس»[3].

من خلال التعريف يتضح أن الأماكن المقدسة التي خصّها الله بتشريف عظيم في الإسلام تنحصر في ثلاثة أماكن، وهي أماكن ارتبط فيها التقديس بالاختيار الإلهي، فقد اختارها الله، ليتعبد فيها، فهي مباركة ومترهة إلهيا إذ كانت معظمها مهدا للوحي .

1- ميرسيا إلياد، "**المقدس والدنيوي**"، ص23.

2 -"المرجع نفسه ، الصفحة نفسها.

3 ابن خلدون، عبد الرحمن، "**المقدمة**"، تحقيق: عبد السلام الشدادي، المركز الوطني للبحوث في عصور ما قبل التاريخ، وعلم الإنسان والتاريخ، الجزائر عاصمة الثقافة العربية ،ع3، 2006 ،186/2 .

فمكة بيت إبراهيم عليه السلام، أوّل بيت يوضع للناس مصداقا لقوله تعالى :﴿ إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَـٰلَمِينَ ﴿٩٦﴾ ﴾[1]،

وأذن الله للناس بالحج فيه، « وبيت المقدس هو بيت داوود وسليمان عليهما السلام، وقد دفن كثير من الأنبياء من ولد إسحاق فيه و حواليه»[2].

وقد حثنا الرسول **صلى الله عليه وسلم** على زيارة هذه الأماكن والتبرُك بها، لأن مجاورتها والصلاة فيها، تكسب الأجر الكثير، فقد روى عن الرسول **صلى الله عليه وسلم** « لا تشد الرحالُ إلاّ إلى ثلاثة مساجد:مسجدي هذا، ومسجد الحرام، ومسجد الأقصى »[3]، فالصلاة بمكة بمائة ألف حسنة، والصلاة بالمدينة بألف حسنة، والصلاة بالأقصى بخمس مائة حسنة.

والمساجد بشتى أنواعها أماكن مقدسة، فهي خير البقاع، لأنها تشكل العتبة الفاصلة بين الدنيوي والقدسي، فهي أماكن يتعبد ويذكر اسم الله فيها غدُوا وآصالا.

أعطى الإسلام صفة القداسة على الأرض كلها، و التمايز الحاصل بين هذه الأماكن تمايز من حيث الدرجة لا غير، لارتباط بعض هذه الأماكن بأحداث مقدسة، وهذا ما يبينه حديث رسول الله **صلى الله عليه وسلم** ، عن جابر ابن عبد الله رضي الله عنهما أنّ النبي **صلى الله عليه وسلم** قال : «...جُعلت لي الأرض مسجدا وطهورا.... »[4].

---

1 سورة آل عمران، الآية 96.

2 ابن خلدون، المصدر نفسه،ص187.

3- مسلم بن الحجاج أبوالحسين القشيري النيسابوري،صحيح مسلم،تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي،دار إحياء التراث العربي،بيروت، د ط، د ت.

4 البخاري محمد ابن إسماعيل أبو عبد الله الجعفي،،صحيح البخاري، تحقيق:مصطفى ديب البغا، دار ابن كثير،اليمامة، بيروت،ط03، 1987، 168/1.

وهذه الأماكن تثير عند المؤمن الخشية والرهبة والخوف في آن واحد، وهي بمثابة،« نافذة أو كوّة يمكن العبور بواسطتها من الوجود الدنيوي إلى الوجود المثالي المقدس»[1]، ففي مكة مثلا تغسل الذنوب لتمنح الجسد خلقا جديدا وهي رمز لبداية حياة جديدة أبلاها الزمن الدنيوي، وكأن الإنسان بزيارته للكعبة يموت ثم يبعث مجددا، يضاف إلى هذا الجبل، فمثلا" **عرفات**" وهو من شعائر الحج يندرج في جملة الصور التي تعبر عن الصلة بين السماء والأرض وانتهاك حرمة هذه الأماكن المقدسة يعد إثما عظيما، « فقد ذاع أنّ رجلا من جرهم فسق بامرأة، وكان الرجل يُدعى بأسافٍ، والمرأة نائلة، فمسخهما الله عز وجل حجرين صُيّرا بعد ذلك وثنين وعُبدا تقربا بهما إلى الله تعالى»[2]، وعن أنس **رضي الله عنه**، عن النبي **صلى الله عليه وسلم** قال : « المدينة حرم إلى كذا لا يقطع شجرها، ولا يحدث فيها حدث، من أحدث فيها حَدثا، فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين »[3].

نستشف من الحديث أن الإحداث بالأماكن المقدسة يعد جرما عظيما، يستوجب اللعنة والعقاب .

والدخول في المكان المقدس يتطلب من المؤمن أن يتطهر حسيا ومعنويا،وفي الإشارة الحسية قال تعالى لنبيه موسى:﴿ إِنِّيٓ أَنَا۠ رَبُّكَ فَٱخۡلَعۡ نَعۡلَيۡكَۖ إِنَّكَ بِٱلۡوَادِ ٱلۡمُقَدَّسِ طُوٗى ﴿١٢﴾ ﴾[4]، فهناك رواية تقول« أنّ النعل الذي كان يلبسه موسى **عليه السلام** مصنوع من جلد الخنزير لهذا أمره الربّ أن يخلع نعليه حتى يطأ هذا المكان المقدس»[5].

---

1 ميرسيا إلياد، المقدس و الدنيوي ، ص39.

2 المسعودي ، أبو الحسن علي بن الحُسين بن علي، مروج الذهب ومعادن الجوهر، تحقيق: قاسم السماعي الرقاعي، دار القلم، بيروت، لبنان، د.ط، د.ت ،م2\57.

3 البخاري، مصدر سابق ،661/2.

4 سورة طه، الآية 12.

5-لباد الغالي ، المكان المقدس في المخيال الشعبي الجزائري، مجلة انثروبولوجية الأديان، ع5، ص 79

أمّا في المخيال الشعبي فقد لقيت قبور الأولياء والأئمة تعظيما و إجلالا كبيرين، فقد كان شيوخ الشيعة وشيوخ الطرق الصوفية، يحثون الناس على زيارة قبور الأئمة، فكانوا يزورونها ويستشفعون بها ويكثرون الدعاء عندها، وقد قيل الكثير عن فضل زائرها لما يحصل عليه من أجر وثواب من ذلك ما نقله أحمد أمين، قال : « من زار أمير المؤمنين عارفا بحقه غير متخير ولا متكبر كتب الله له أجر مائة شهيد وغفر الله ما تقدم من ذنبه وما تأخر»[1].

وكان على كل من يزور هذه الأماكن إن يتقيد بشروط وضعها الأئمة الدعاء والاغتسال والتعطر ولبس الثوب الطاهر، ومن ذلك قولهم «إذا أردت زيارة قبر موسى الكاظم وقبر محمد بن علي فاغتسل وتعطر والبس ثوبك الطاهر»[2] أما الأماكن المدنسة فتتمحور في تلك التي نهاها الله سبحانه وتعالى عن حمل كتابه فيها، كأرض العدو، أو ذكر أي اسم من أسمائه عندها كبيت الخلاء بالإضافة إلى الأسواق، فهي أماكن مدنسة، لما روي عنه صلى الله عليه وسلم،فعن «محمد بن جبير بن مطعم عن أبيه:أنّ رجلا أتى النبي صلى الله عليه وسلم فقال: يا رسول الله أيّ البلاد شرّ؟ فقال:لا أدري فلما أتى جبريل محمدا صلى الله عليه وسلم قال يا جبريل أيّ البلاد شرّ؟ قال: لا أدري حتى أسأل ربّي.....ثمّ جاء فقال:يا محمد سألتني أي البلاد شر وإني قلت لا أدري وإني سألت ربي أي البلاد شرفقال:أسواقها »[3]، لما فيها من فتن يضاف إلى هذا كله الأماكن أو المضارب التي يستوطنها الشيطان لأنّه نجس، أي الأماكن المجهولة غير المطوبة.

أما بالنسبة للديانات الأخرى فأهم مكان يثير الرهبة والخشية عندهم الكنيسة فهي بناء مقدس ومقام العبادة، وهي بمنزلة المسجد عندنا تقام فيها مختلف الطقوس والشعائر الدينية كإقامة الصلوات وعقد القران، تعميد الأطفال، أما الأمكنة المدنسة فتمثل أساسا في

---

1 أحمد أمين، ظهر الإسلام، دار الكتاب العربي ، بيروت، ط5، 1969 ،123/4.

2-المرجع نفسه 125/4

3محمد بن عبد الله الحاكم النيسابوري، المستدرك على الصحيحين ،تحقيق،مصطفى عبد القادر عطا،دار الكتب العلمية، بيروت،ط 01، 1990،167/1.

كل ما يخرجُ عن أماكن العبادة عندهم، أي أماكن الحياة اليومية، وبين المكان المقدس والدنيوي يحاول الإنسان الديني أن يعيش العالمين لأن توقه إلى المكان المقدس يضاهي توقه للعيش في المكان الدنيوي.

3- ب. الزمان :

إنّ الزمن عند الإنسان الديني، تعتريه فروق فهو مماثل للمكان، فثمّة الزمن المقدس، والزمن العادي، وهو التقسيم الذي جنح إليه **ميرسيا إلياد** فالأول (المقدس) ذو بنية دائرية مغلقة، فهو نوع من الحاضر الأزلي، لأنّه قائل للاسترجاع، يستطيع أن يتحينه الإنسان في فترات معلومة من خلال الأعياد والشعائر الدينية، متوسما طقوسا تكفل له الخروج من الزمن الدنيوي، فالزمن المقدس : « زمن لا يجري ولا يتكون من ديمومة غير قابلة للنكوص بل هو زمن أنطلوجي بامتياز، زمن بارمندي، مُساو لنفسه لا يتغير ولا ينفذ»[1]، إذا الزمن المقدس هو الزمن الحقيقي، اللحظة القوية والثابتة لأنّه زمن الأصل الذي أعطى الوجود معالمه الحقيقية، لأنّه: « زمن تجلت فيه أعمال الآلهة أو الكائنات الشبه الإلهية أو الأسلاف الأسطوريين»[2]، أما الآخر فهو زمن عادي موضوعي، ذو بنية خطية امتدادية غير قابلة للاسترجاع، لذا اكتسبت صفة النقصان لأنّه مُدمر يبلي الكائن البشري والمجتمع والكون، لذا نجد الإنسان يعمد إلى إبطاله حتى يدرك الزمن الأصلي، ويتدارك النقص بواسطة طقوس تجدد الطهارة التي كانت موجودة في لحظات الخلق.

غير أنّ هذا الزمن يعرف لحظات مقدسة كونه« قابل للتوقف دوريا»[3]، هذه اللحظات : « لا تشترك في الزمان الدنيوي الذي يسبقها ويليها، هُنيهات لها بنية مغايرة كليا وأصل مختلف، هو الزمن البدئي الذي قدسته الآلهة والقابل لأن يصير حاضرا بواسطة العيد»[4] .

---

1 ميرسيا إلياد، المقدس والدنيوي، ص68.

2 عبد الله بن معمّر، الزمان المقدس الشعبي، تجلياته ووظائفه، ، مجلة انثروبولوجية الأديان ،ص129.

3- ميرسيا إلياد، المقدس والدنيوي، ص70.

4- ميرسيا إلياد، المرجع نفسه، ص69.

والأزمنة المقدسة في الإسلام تتمثل في شهر رمضان الذي أنزل فيه القرآن وخصّه الله بليلة مباركة في ليلة القدر.

وكذلك الحج فهو زمن التوحد و الترابط بين المسلمين، وأحب الساعات عند الله ساعات الصلوات المكتوبات.

وعرفت المجتمعات الشعبية أيضا أعيادا هي عبارة عن تحسن للحظة المقدسة فالناير والذي يوافق بداية السنة الجديدة يحتفل به في شهر يناير، وهو يشكل النقطة الحرجة في السنة لأنّه يقع بين فصلين وهما الخريف والشتاء. وعيد المولد النبوي الشريف وكذلك عاشوراء، وهو أحد الأعياد الدينية التي يحتفل بها المسلمون ويلتزمون فيها بإخراج الزكاة.

فإحياء هذه الأعياد تسمح للمؤمن بنوع من المشاركة والاندماج في زمن قد تجلت فيه أفعال الآلهة والكائنات الشبه الإلهية.

أما بالنسبة للديانات الأخرى فإنّ أهم الأزمنة المقدسة تتجسد أساسا في أوقات الصلوات التي يحددها الرهبان.

أما عند اليهود فأوقات الصلوات أهمها: صلاة الصباح وصلاة المساء، أما أحبها إليهم فصلاة الغفران«ويؤديها الكاهن الخادم في المعبد مع كاهنين آخرين ليلة يوم الغفران مرة واحدة في السنة»[1] هذا اليوم هو يوم التكفير عن الذنوب ومدتها عشرة أيام، وصلاة القمر: «تتلى في إحدى ليالي الأسبوع الثاني من كل شهر»[2] أما الأزمنة المدنسة أو الخطيرة، فهي تصادف الجمعة الثالث عشر من كل شهر، فالمسيحيون، يتشاءمون من هذا اليوم لأنّه يصادف صلب عيسى **عليه السلام**، إثر وشاية بوذا تلمذه الذي يحمل الرقم ثلاثة عشر به. لذا نجدهم يتجنبون وضع هذا الرقم في مستشفياتهم وحتى في طوابقهم.

---

1 -عبد الرزاق الموحي ،العبادات في الديانة اليهودية، صفحات للدراسات والنشر، دمشق ،ط 2 ، 2007 ،ص69.

2- المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

وبالتالي يتجلى لنا أن الزمن المقدس، هو زمن خالص، كامل، أما الدنيوي ناقص زائل والعلاقة الجدلية بينهما، دفعت الإنسان إلى محاولة التوفيق بينهما بتقليص الفارق لتحقيق الرغبة الأبدية التي بحث عنها.

3- جـ. الذوات :

إنّ الإسلام جرّد الإنسان من صفة القداسة، وحصرها في أزمنة وأماكن معلومة، فحتى الأنبياء لم تنسحب عليهم هذه الصفة، على الرغم من أنّ الله اصطفاهم وحَباهم بنوع من التشريف والتكريم، ولكن لم يصل إلى درجة التقديس، وإنّما اقتصر دورهم على تبليغ رسالتهم، وهذا على عكس ما اتسمت به المسيحية التي ألّهت عيسى اعتقادا منها بأنّه : « جمع في شخصه بين ما هو مقدس إلهي ومقدس إنساني»[1]، بالإضافة إلى الجدل الدائر بينها وبين اليهودية والتنافس على جعل ابن لله، وهذا ما جاء ذكره في القرآن الكريم : ﴿ وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَى ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَٰهِهِمْ يُضَٰهِـُٔونَ قَوْلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَبْلُ قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٣٠﴾ ﴾[2].

و لم يتوَقف الحدّ عندَ هذا القدر، فالمسيحيون غالوا في دينهم، إذ جعلوا البابا مقدسا ينحنون أمامه ويُقبّلون يديه، وجعلوه معصوما من الخطأ عندما يتحدث عن أمور الدينية.... « فالبابا عندهم هو ممثل الله في الأرض»[3]، حتى تحوَّل « هذا التعظيم عندهم إلى شك والشك إلى شرك»[4]، مصدقا لقوله تعالى ﴿ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم بِرُسُلِنَا وَقَفَّيْنَا

1- محمد عبد المعيد خان، الأساطير والخرافات عند العرب دار الحداثة ، بيروت، ط3 ،1971، ص 103.

2- سورة التوبة، الآية 30.

3-كامل النجار، المقدس، الحوار المتمدن.

4-محمد عبد المعيد خان، المرجع السابق، ص 152.

بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْإِنجِيلَ وَجَعَلْنَا فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً وَرَهْبَانِيَّةً ٱبْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَٰهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ رِضْوَٰنِ ٱللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا ۖ فَـَٔاتَيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿٢٧﴾ ﴾[1]، وجاءت آيتا القرآن توضحان النفوذ الذي مارسه الأحبار و الربانيون على اليهود والمسيحيين، الذين أطاعوهم طاعة عمياء، فقد كانوا يفعلون كل ما يأمرونهم به قال تعالى : \ ﴾[2].

هذا التصور المسيحي انتقل إلى المخيال الشعبي، فقام الناس بتقديس الأئمة والأولياء وغالوا في ذلك اعتقادا منهم أنهم ورثة الأنبياء في الأرض يجوز لهم ما جاز للأنبياء الله و رسوله، « فدور الولاية عندهم يبدأ بانتهاء دور النبوة، ودور الولاية هو دور الإمام يعقب النبيّ »[3]، و الولاية تطلق على ثلاث مراتب: « ولاية عامة، وهي لأهل الإيمان والتقوى، وولاية خاصة:وهي لأهل الاستشراق على العلم بالله،وولاية خاصة:وهي لأهل التمكن في معرفة الله على نعت العيان»[4]. وقد وصل الأمر ببعض المتصوفة إلى قول أشياء خيالية عن أئمتهم، من ذلك ما ورد عن الفرقة البيانية التي زعم أصحابه الربوبية وملحقاتها لزعيمها بيان بن سمعان، الذي قال عنه: « إنّ روح الإله تناسخت في الأنبياء و الأئمة حتى صارت إلى إمامهم هذا»[5]، هذه النظرة التقديسية مست أيضا علي وأبناءه الذين قدستهم الشيعة،

1- سورة الحديد الآية 27.

2- سورة التوبة الآية 31.

3-زكي نجيب محمود، تجديد الفكر العربي، دار الشروق، بيروت، ط7، 1982م، ص113.

4-محمد بن بريكة، موسوعة الطرق الصوفية، فنون التصوف الإسلامي، دار الحكمة، الجزائر، د ط،2009،424/3.

5 -زكي نجيب محمود، المرجع السابق، ص 127.

وظلوا يقولون بعد اسم كل منهم " قدسّ الله سرّه"، وحثهم الناس على زيارة أضرحتهم والتبرك بها من أجل جلب المنفعة .

إنّ هذه التصورات حولت الإنسان البشري عند هؤلاء إلى كائن مالك للحقيقة وامتلاكه للحقائق مكّنه أن يصبح وسيطا بين الله والبشر، ففي اعتقادهم أنّ روح الله تتحد بأجساد الأولياء فينقلون الوحي من دون وسائط .

والإسلام يرفض مثل هذه الاعتقادات، ويناقض هذا التصور، وينفي فكرة الحلول التي تخرج صاحبها من الطبيعة البشرية، وتدرأ عنه الخطأ.

وفي المقابل تأتي الذوات المدنسة، ويأتي على رأسها إبليس (الشيطان) لعنة الله عليه الذي لعنته كتب الوحي بالمنافق المتكبر لأنّه أبى أن يسمع قول الله ويسجد لآدم مع الملائكة الساجدين، وهو أكثر الأرواح الساقطة شرّا ومعنى «الصفة الشيطانية مرادف للصفة الجهنمية التي تنطوي على الخبث والبراعة و حب الأذى والتمتع بالإيذاء،كأنّه متنفس لطبيعة صاحبها»[1] ، لذا جاءت الكثير من الآيات على ذكره، محذرة من بطشه، مظهرة العداء الذي يكنه للإنسان «فوظيفته تكمن في أن يثبت عجز الإنسان أمام الغواية والفتنة،وأن يمتحن مشيئته وهو يتردد بين الخير والشّر والمباح و الحرام»[2]، من ذلك قوله تعالى : ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلًا﴾[3].

وفي قوله :﴿ فَقُلْنَا يَا آدَمُ إِنَّ هَذَا عَدُوٌّ لَكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَى﴾[4]، إضافة فإبليس متربص بالإنسان يعمل دائما على زَلِهِ وغوايته يقول سبحانه

1- العقاد:عباس محمود،إبليس، بحث في تاريخ الخير والشّر،وتمييز الإنسان بينهما من مطلع التاريخ إلى اليوم، مطبعة نهضة مصر، القاهرة(مصر)، د ط، 1985، ص:37.

2-المرجع نفسه، ص:5.

3 سورة الكهف الآية 50.

4 سورة طه الآية 117.

وتعالى :﴿قال ربي بما أغويتني لأزينن لهم في الأرض، و لأغوينّهم جمعين﴾ [1]، ومن الذوات المدنسة أيضا المردة والعفاريت، فالمارد هو «العاتي مرَد على الأمر بالضم يمرُدُ، مُرُودًا، ومَرَادَة، فهو مَارِدٌ ومريدٌ، وتمرَّدَ، أقبل وَعتا....»[2]، فالمارِدُ هو الخارج عن الطاعة مصداقا لقوله تعالى : (**وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَانٍ مَرِيدٍ**)[3] ، أمّا العفريت : العِفارة : الخبث والشيطنة، قال الزجاج : « العفريت من الرجال النافذ في الأمر المبالغ فيه مع الخبث ودهاء... »[4]، قال تعالى: (**وَحِفْظًا مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ مَارِدٍ**)[5].

والكفارُ أيضا نجاسة أي مدنسين، وذلك لكفرهم وشركهم بالله، لقوله تعالى :(**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَذَا وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ إِنْ شَاءَ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ**)[6] يضاف إليهم :﴿ **الر كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَى صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ** »[7].السحرة و العرافين لأنّهم يشركون بالله ويأتون الخبائث وقد نهانا الإسلام عن إتباع السحرة والتردد عليهم، لقوله **صلى الله عليه وسلم** «من أتى عرّافا أو كاهنا فصدّقه فيما يقول كفر بما أنزل على محمد صلى الله عليه وسلم.»[8].

د-الأشياء:

للأمة الإسلامية أشياء مقدّسة كان لها علاقة بالزمن والمكان المقدس ومن ضمن الأشياء التي

1- سورة الحجر، الآية 30.

2 -ابن منظور،لسان العرب،مادة(م،ر،د)،400/3.

3- سورة الحج، الآية 3

4- ابن منظور،المصدر السابق،مادة(ع،ف،ر)576/4.

5- سورة الصافات الآية07.

6سورة التوبة، الآية28.

7- سورة إبراهيم، الآية 01.

8-محمد بن عبد الله الحاكم النيسابوري، المستدرك على الصحيحين،تح:مصطفى عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية،بيروت،ط 01،1990، 49/1.

قدسها الإسلام، وأحاطها الله بتشريفه وبركته، القرآن الكريم الذي نزل على سيدنا محمد ﷺ، وعظمته تكمن في إعجازه لما احتواه من توضيح لأمور العقيدة وأحكام العبادات، إذ جاءت آياته رحمة للناس وشفاء للنعباد،مصداقا لقوله تعالى وفيه تلمس البركة ويطلب الخير الكثير لقولهتعالى: ﴿ **وَهَذَا ذِكْرٌ مُبَارَكٌ أَنْزَلْنَاهُ أَفَأَنْتُمْ لَهُ مُنْكِرُونَ**[1] ﴾.

كما بينت الأحاديث أفضلية بالنسبته للكتب التي طالها التحريف والتغير ففي حديث لسويد ين الصامت أنّه قال للرسول **صلى الله عليه وسلم** لعلّ الذي معك مثل الذي معي، فقال وما الذي معك، قال سويد : مجلة لقمان فقال الرسول: أعرضها عليّ، ففرضها عليه، فقال له : « إنّ هذا الكلام حسن والذي معي أفضل من هذا، قرآن أنزله الله تعالى، هو هدى ونور »[2].

وامتد التقديس: « إلى الحجر الأسود الذي قال عنه عمر بن خطاب، إنّي أعلم أنّك حجر لا تنفع ولا تضر، ولولا رأيت رسول الله يقبّلك لما قبّلتك »[3].

يتضح من خلال ما ورد آنفا أنّ كل من القرآن و الحجر الأسود يمثلان بالنسبة للإنسان الدّيني حلقة وصل بين عالم الفناء وعالم البقاء.

أمّا المخيال الشعبي فقد بلور أشياء وأضفى عليها صفة القداسة ومنها الأبخرة مقدسة ، وهي عادة مترسبة في نفسيات الأفراد منذ عصور ما قبل الإسلام لأنّ الوثنيون كانوا يحرقون البخور لآلهتهم ومعبداتهم، تذرعا لها وطلبا لرضاها، وبعد مجيء الإسلام ظلت العادة سارية المفعول وبقي المسلمون يحرقون البخور في المساجد والأضرحة تقربا من الله والأنبياء والأولياء الصالحين »[4]

1سورة الأنبياء،الآية50.

2جرجس داود داود،أديان العرب،ص 235.

3البخاري،صحيح البخاري،باب ما ذكر في الحجر الأسود،579/2.

4- باوش نصيرة،بيت المقدس والمدنس في أحتفالية الزواج، مجلة انثروبولوجية الأديان ،ص 93.

وقد ذكر النّويري أنّ «أم خليفة المقدر بالله كانت تبخر الكعبة وصخرة المقدس كل جمعة»[1] فالأبخرة من طقوس الطهارة.

إضافة إلى هذا العرف ألصقت صفة القداسة بكل ما يحيط بالأضرحة، فصفة القداسة تجاوزت الولي لتطال كل الأشياء التي يستعملها أو يلمسها.

وكان يعتقد الزائر أن« البركة لا تنقطع بموت ولي بل تستمر في النشاط والفعالية فتنتقل إلى جدران الخريج وماء النبع، وبصفة عامة إلى كل الأشياء التي لامسها الولي أو جلس عند ها»[2].

و الأشياء المحيطة بالضريح كلّها مقدسة لانتهك ولا تدنس بأي شكل من الأشكال، ومن الأشياء المقدسة في الديانة المسيحية واليهودية نجد نجمة داوود و الصليب الذي يأخذ مكانا مميزا في حياتهم اليومية.

وتدنيس الأشياء المقدسة ، سواء بإزاحتها من أماكنها أو إحداث تغيرات فيها يحدث خلخلة في نظام العالم وهذا يبينه ليبق في قوله :﴿إنّ وجود الأشياء المقدسة ف أماكنها هو ما يجعل منها مقدسة، لأنّها لو انتزعت من أماكنها حتى لو فكريا لتذمر نظام العالم بكامله لذلك فالأشياء المقدسة تسهم في إبقاء العالم على نظامه بإحلالها المواقع التي وصفت فيها ﴾[3].

أما الأشياء المدنسة فتتمثل أساسا في الأحكام التي نهانا الله —سبحانه وتعالى- ورسوله عن اقتناءها واستعمالها للزينة، فعن جابر عبد الله رضي الله عنه أنّه سمع الرسول صلى الله عليه وسلم عام الفتح وهو بمكة : «إنّ الله ورسوله حرّم بيع الخمر والميتة والخنزير

1-النويري،شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب ، نهاية الأرب في فنون الأدب، مطابع كوستاتسوماس ،لبنان، د ط، د ت،64/12.

2- وحياني خضر،كرامات الأولياء،رسالة ماجستير،إشراف قلفاط شكري،قسم الأنثروبولوجيا،كلية الثقافة الشعبية،أبو بكر لقايد،تلمسان،1001،2002،ص .37

3-بلباد الغالي،المكان المقدس في المخيال الشعبي، مجلة انثروبولوجية الأديان ،ص 88.

و الأصنام فقيل يا رسول الله أرأيت شحوم الميتة فإنّها يطلى بها السفن ويدهن بها الجلود ويصطبح بها الناس فقال لا هو حرام... »[1].

٥- النبات:

انبهر الإنسان بالطبيعة وعظمتها، وسحر بهائها، فهي لازالت تشكل سرا عجز عن فك رموزه، فعبر مختلف العصور حاول التواصل معها لأنّها مجال مقدس في نظره، فقد كان العربُ في الجاهلية يقدسون نباتات تقربا إليها، فكفار قريش عظموا شجرة خضراء تسمى ذات أنواط وهي : « شجرة قريبة من مكة كما ذكره ياقوت، يأتونها كل سنة، فيعلقون عليها أسلحتهم، ويذبحون عنها ويعتكفون عنها يوما »[2].

ومع مجيء الإسلام قدس الناس الشجرة التي بويع عندها الرسول **صلى الله عليه وسلم** وقد ورد ذكرها في القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿ **لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَابَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا**﴾[3] فقام الناس بزيارتها والتبرك بها ، فلما سمع أمير المؤمنين الأمر بقطعها، خشية أن تعبد . واحتل النخل مكانة مرموقة في حياة العرب، فلم تكن النخلة أقل شأنا من الأشجار الأخرى، كونها « نؤلف قواما من مقومات حياتهم، وليس ببعيد، أن تقدس ويقدس غيرها من الأشجار في بلاد، أعظمها عميق، أجرد صحراوي »[4].

فقد أقام العربي قرابة بينه و بين النخيل لما روي عن الرسول **صلى الله عليه وسلم** «أكرموا عماتكم النخل وسميت« عماتنا لأنّها خلقت من فضلة طينة آدم عليه السلام أما الضمير في عماتكم فيدل على أن النبي صلى الله عليه وسلم أراد به إظهار عقلية الجاهلية»[5].

1-البخاري، صحيح البخاري، 779/2.

2- محمد عبد المعين خان ، الأساطير والخرافات عند العرب، ص 113 .

3سورة الفتح الآية 18

4محمد عبد المعين خان ،المرجع نفسه، ص 60.

5محمد عبد المعين خان ، المرجع السابق، ص ،ن.

وتوهم العربي القرابة بينه وبين النخل، ذلك لأنّه رأى فيها شبها به، « لأنّها تشبه الإنسان من حيث امتياز، ومميزاتها المخصوصة باللقاح .....فلو قطع رأسها لهلكت ، ولها غلاف كالمشيمةالتي يكون الجنين بها »[1].فمثلا الأشجار المحاذية للأضرحة لازالت تقدس وتعظم، ويمنع منعا باتا إلحاق الضرر بها، أو قطع أي جزء منها، « ونرى في مناسبات مختلفة ان بعض النسوة يعلقن خرزا وَمزقا من الثياب على بعض الشجار »[2]، تقربا منها وتبركا بها، ففي ظنهم أن هذه الأشجار تحقق أمانيهم وتشفيهم من أمراضهم وهي ظاهرة شائعة في المجتمعات الإسلامية.

ومن الأشجار المقدسة أيضا شجرة التين و الزيتون واللتان ذكرهما الله في كتابه العزيز، مبينا فوائدهما وذلك في قوله تعالى: (**اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِنْ شَجَرَةٍ مُبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُورٌ عَلَى نُورٍ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ**)[3]، وفي قوله جل وعلا : (**وَالتِّينِ وَالزَّيْتُونِ**) [4]، وحضهما بالذكر لعظيم منافعهما في الأرض .

أما الديانات الأخرى فالطبيعة كلها مقدسة لأنّها تجلي إلهي، إلا أن اليهود يخصون شجرة الغرقد بنوع من الرعاية و الاهتمام المفرط، لأنّها سوف تكون ملاذهم الوحيد في الاختباء عند قيام الساعة وهذا ما يبينه حديث رسول الله **صلى الله عليه وسلم** : « لا تقوم الساعة حتى يقال المسلمون اليهود فيقتلهم المسلمون حتى يختبئ اليهود من وراء الحجر و الشجر فيقوا الحجر أو الشجر يا مسلم يا عبد الله هذا يهودي خلفي فتعال فاقتله إلا شجر الغرقد فإنّه من شجر اليهود »[5].

1محمد عبد المعين خان ، المرجع نفسه،ص،ن.

2جرجس داود داود،أديان العرب قبل الإسلام،وجهها الحضاري و الاجتماعي،مجد للدراسات،بيروت،ط3،2004، ص 350.

3-سورة النور،الآية 35.

4-سورة التين،الآية 01.

5-مسلم، صحيح مسلم، 438/2.

وجاء القرآن على ذكر بعض الحيوانات كالنحل لعظم منافعها لقوله تعالى : ﴿ **وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ (68) ثُمَّ كُلِي مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا يَخْرُجُ مِنْ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ (69)** ﴾ [1]، وفي المقابل نجد حيوانات مدنسة كالخنزير فقد قام الإسلام بتحريم أكله لأسباب صحية، بإضافة إلى الكلب الذي أمر الرسول صلى الله عليه وسلم بقتله مما جاء في الحديث عن بن عمر قال: « من أمسك كلبا فإنّه ينقص كل يوم من عمله قيراط إلا كلب حرث أو ماشية»[2].

ومن الحيوانات المدنسة أيضا نجد الحية أو الأفعى التي روي أنها كانت في صورة جمل وأن الله تعالى عاقبها حتى لافها بالأرض وقسّم عقابها عل عشر أقسام حين احتملت دخول إبليس في جوفها حتى وسوس لأدم من فيها [3].

تأسيسا على ما تقدم ذكره آنفا نخلص على أنّ المقدس و المدنس يختلفان باختلاف الاتجاهات والعقائد الدينية وفكرة عقيدة لها مفهومها للظاهرتين، فأول تعريف لهما يقوم على تضادهما.

أما الإسلام فقد عقلن المقدس ومحوره حول الذات الإلهية، المقدس يحوي في طياته على كل ما هو غريب وعجيب لأنّه بعد غير مرئي للوجود المادي فحين يبقى العالم الدنيوي ممثلا في ممارسات الإنسان العادية ، وأهم خصائصه تتجسد في قدرته على التمظهر في العديد من الأشكال و الظواهر الحية المادية وتبقى مهمة الإنسان البحث عن هذه التمظهرات والتجليات، فحين تبقى العلاقة بين المجالين علاقة تجاذب وتنافر تحكمها حدود يتضمنها المجال الديني فما على الإنسان إلاّ أن يعيش الجوهرين ويحاول التوفيق بينهما حتى يحقق ذاتيته وتطلعه إلى الكمال.

1-سورة النحل،الآية68-69.

2-البخاري،صحيح البخاري، 817/2..ينظر: الجاحظ، كتاب الحيوان، تحقيق:عبد السلام محمد هارون، دار الجيل، بيروت د ط،1992 ، 294/1

3-المصدر نفسه،297/1.

الفصل الثاني

تجليات المقدس في رواية السحرة

تأتي رواية السحرة لإبراهيم الكوني* الصادرة سنة:1994 ــ 1995 بجزأيها كنتاج أدبي يبلور ويؤكد مجموع الخصائص الفنية التي تميزت بها نصوصه السابقة؛ إذ أنها تتميّز بقيامها على« عدد من العناصر المحدودة على عالم الصحراء، بما فيه من ندرة وامتداد وقسوة وانفتاح على جوهر الكون والوجود » ."[1]

تقوم الرواية على تثبيت الاقتباسات في مفتتح الفصول لإضاءة عوالمها الداخلية، في جوّ يجمع بين ما هو جمالي ميتافيزيقي، وواقعي أسطوري، وتشويقي معرفي، بلغة آسرة تخدم طابع الرواية المتسم بواقعيته السحرية،« إنها لغة روائية تحتشد بالتأملات حول الكون ومعنى الوجود، في هذا العالم في سياحة حرة للعقل المتفلت من أسر المعقول والمألوف السائد »[2] فتراه يحاور اللغة فتحاوره، فيحرّرها من القيد ويوجهها بسوط الحكمة المستمدة من عقائد الطوارق فتتصاعد لتولد زاخرة بالإشارات والرموز، محملة بكثير من العلامات والدلالات في سبيل إحياء تاريخ وحلم قديم فقدناه بلعنة الجنون والنسيان، وهذا ما يتضح من خلال عودته المستمرة إلى الماضي، واستخدامه لتقنيتي القناع والاستعارة ؛ للتعبير عن الحاضر بتقديم صورة تراثية استوحاها من القصص الديني، ليمزجها ويجاوزها بمثولوجيا المجتمعات الترقيّة، وما توارثته من معتقدات وأساطير، فالرواية تحوي في طياتها قصة سيدنا آدم وأمّنا حواء، فيجعل منها نقطة إرتكازية يبني عليها دعامات روايته، فيمدّها ويزوّدها بأبعاد انثروبولوجية تكتسي طابعا أسطوريا .

هذه الازدواجية(التراث العربي وأساطير الطوارق سمحت له ببناء عوالم استعاد فيها الوجود الضائع؛ ليختلس السر من العدم فيمضي بحثا عن الحقيقة، « التي فقدناها بوجودنا في البادايات عندما اخترن الخطيئة الأولى.»[3] ليمدّ الجسر بين ماض سعيد وحاضر بائس، فالسؤال متصل بوجود الإنسان، ووعيه لذاته، وجذوره الثقافية، هذا الوعي وهذه الهوية

---

*باحث وكاتب وروائي ليبي له العديد من الأعمال الأدبية:الصلاة خارج نطاق الصوات الخمس 1974 وغيرها ينظر:سمر روحي الفيصل،معجم الروائيين العرب،دار جروس برس،بيروت،ط1 ،1995،ص:17.

1 - فخري صالح، "**في الرواية العربية الجديدة**"، منشورات الاختلاف، الجزائر، ط1، 1430هـ ــ 2009 ، ص: 167 .

2 ــ المرجع نفسه، ص: 145 .

3 ــ إبراهيم الكوني، "**الرواية والخطيئة**"، مجلة فصول، العدد: 01، 1998م، 161/17 .

المشطورة بين الحاضر والماضي،....فالكوني في روايته السحرة يختبر أغوار النفس، فيكشف عن طبائعها الشريرة، ويجسد حمق الإنسان وشقاءه، وسعيه الدائم وراء الوهم، وهم غذّته الظلمات؛ فطمست الأبصار لا بل البصائر عن الحقائق، فصار ينشد الزيف أينما ذهب؛ لأنّ انبهاره بوميض الأشياء جعله يتغاضى عن اللب والجوهر، ويتعلّق بالسطح والقشور، متناسيا بذلك أنّه يسمم بدنه وروحه، فقلب القيم وقرأ الإيجاب في السلب، والسلب في الإيجاب؛ لأنّه تنكّر لتراثه، وتجاهل وجوده، ففقد بذلك لغة التخاطب، فاعتراه الضياع، وأصبح التيه له ناموسا .

هكذا يقوم الكوني بترحيل الحاضر إلى الماضي؛ ليرسم روعة الزمن الأوّل؛ لأنّه وجود ينعدم فيه الشقاء، فركن إلى تجميع كل الوسائل لإقامة التقابل بينهما ضمن « أمثولة كبرى طرحت على الأمس أسئلة اليوم في لفتة لا تلبث أن تستغرق منظور الغد وتوقّعاته »[1].

إنّ تجربة الكوني المشحونة بالقلق والتمرّد رصدت كلّ ما يزخر به المجتمع الترقي من عادات وتقاليد، فشكلت هذه العناصر فضاء رحبا ينهض بثنائية المقدّس والمدنّس لتطال كل ما تحويه الصحراء من موجودات وكائنات، فالرواية جاءت لغتها مشحونة بطابع القدسية، كما أنها نبتت على إرادة التمسك بالماضي .

والمقدسات في الرواية هي كالتالي:

1 ــ تجليات المقدّس في مكونات الرواية :

أ ــ في الشخصيات والحيوان :

أ ــ 1ــ **في الشخصيات** : تعدّ الشخصيات من أهمّ العناصر المكوّنة والناهضة بالعمل السردي،« فهي العنصر الفاعل والمحرّك للأحداث ، والمحفّز على تنامي النص السردي»[2] من هنا كان حضورها في العمل القصصي أو الروائي ضروري للعناصر الأخرى التي «تحيى بحياتها وتقتات من حيويّتها وحركيّتها، فهي مرتبطة بها إمّا فعلا أو انفعالا »[1]، ونظرا

---

1 ــ صلاح فضل،"**قراءة الصورة وصور القراءة** "، دار الشروق ،مصر،ط1،1997، ص: 186 .

2 ــ محمد معتصم، "**الذاكرة القصوى**"، دراسة وتحليل للروايات : رجوع إلى الطفولة، الساحة الشرقيّة، محاولة عيش، دار الثقافة للنشر والتوزيع،المغرب، ط1، 1426هـ ــ 2006، ص: 69 .

لمكانتها تبوّأت مكانة مهمّة في النقد الأدبي أعطتها من الخصوصيّة الشيء الكثير؛ لذا دأب الروائيون على الاهتمام بشخصياتهم؛ فبنوها بناء متميّزا يختلف من كاتب إلى آخر، من أجل أن تقوم هذه الشخصيّة بالوظيفة التأليفيّة التي أُسندت إليها، « وقد حاولوا من خلالها تجسيد أكبر قدر من تجلّيات الحياة الاجتماعية »[2].

وقد كثرت الآراء والنظريّات التي أولت هذا العنصر اهتماما بدءًا بالكلاسيكية؛ التي عدّت الشخصيّة كائنا واقعيّا، وقد نظر إليها علماء النفس على أنّها جوهر بسيكولوجي « مما جعل بعض المحلّلين النفسانيين للأدب يستعينون بتصريحات الكتّاب وآرائهم قصد معرفة الشخصيّة » .[3] مرورا بالمناهج النقديّة المعاصرة نحو: البنيويّة، والسميائيّة، وما يصطلح عليه بـــ : المنهج الجمعاني أو التكاملي ، فعرفت الشخصيّة على إثرها عدّة تقسيمات وتصنيفات .

أمّا شخصيّات رواية السحرة، فقد تميّزت بطابعها الدال والمنفرد؛ لأنها تتخذ أسماء وصفاتا تلخّص هويّتها ، ولم يجنح إبراهيم الكوني إلى تقديمها دفعة واحدة، بل جعلها تتواتر بالتدرج على مستوى الفضاء الروائي، وقد اعتمد صيغا محدَّدة في التقديم، فقدّمها بواسطة نفسها، وأحيانا بواسطة شخصيّات أخرى، وفي أحايين كثيرة بواسطة راوٍ خارج القصّة .

لقد حوَت رواية السحرة شخصيّات متنوّعة ذات سمات منحتها تفرّدا ، وعليه تتجلى لنا مجموعتين من الشخصيّات المقدّسة في الرواية، الأولى تمثّلت في الآلهة ، أمّا الأخرى، فقد جسّدها الشخصيات البشريّة .

أ ــ 1ــ 1 -الشخصيات الإلهية:

---

1 ــ ملاح بناحي، "**آليات الخطاب النقدي المعاصر في مقاربة القصة الجزائرية، دراسة في قراءة القراءة**"، دار الغرب للطباعة والنشر،وهران،ط2،2002، ص: 70 .

2 ــ ينظر:مرشد أحمد، "**البنية والدلالة في روايات إبراهيم نصر الله**"، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ط1، 2005، ص: 33.

3 ــ جويدة حماش،"**بناء الشخصية في حكاية عبدو و الجماجم والجبل**"، لمصطفى فاسي،مقاربة في السر ديات،منشورات الأوراس،الجزائر،د،ط،2007،ص58.

➢ **تانيت** : هي الشخصية الرئيسة بين الآلهة التي قدّستها قبائل الطوارق، إنها سيّدة السماء، إلهة الحبّ والخصوبة، رمزوا لها بتقاطع(+)، وهو أوّل حرف في لغة التيفيناغ، هذا التقاطع اكتسى طابع القدسيّة، فصار وسما يميّز كلّ مخلوقات الصحراء؛ لأنّ لها القدرة على حماية صاحبه من التيه، ومن اعتداء اللصوص والغزاة،« فتانيت ليست مجرّد صنم، بل لها تأثير كبير في حياة أبناء القبيلة الذين يقدّمون لها النذور و القرابين، ويتبرّكون بها، ويتوسّلون إليها كي تشفي مرضاهم .»[1] بالإضافة إلى ذلك ، فإنّ النسوة جعلن من التقاطع زينة يزيّن به أثوابهنّ، وكل ما يحيط بهنّ، ويقوم رجال القبيلة بطبع الوسم بالنار على أفخاذ الإبل ليحموها من الضياع، ويحمل الوسم سمة البركة، فهو تقاطع ورمز يتوّج به الحدّادون سروجهم وأسلحتهم تيمّنا وتبرّكا وطلبا للتوفيق .

إنّ رمز الآلهة تانيت (+) يوحي ويحاكي كائنات الصحراء؛ لأنّه يومئ بانفصالها عن أصلها؛ الذي ضيّعت سبيل العودة إليه، فاعتراها الشقاء والتيه، وكثيرا ما كان البطل "جبارين" يتمعّن في الوسم الذي يشير إلى الجهات الأربع للصحراء، محاولا حل الغموض الذي يحيط بالوسم، حتى توصّل إلى سر الدائرة التي جمعت الأجزاء الأربعة .

➢ **أمناي** : ثاني إله ورد ذكره في الرواية، وهو إله النجاة عند قبائل التوارق، يقدّمون له القرابين، ويتوسّلون فيه الخلاص، وهو ما فعله الساحر العظيم "أكّا" إذ « فكّر أن يقدّم قربانا للإله آمناي حمدا له على النجاة »[2] إذ كان لهذا الأخير يدا في تخليص"أكّا" من ابنته التي تحوّلت إلى" تامزا "مهولة والتي كاد يفقد حياته بسببها .

أ ــ 1ــ 2 ــ الشخصيّات البشريّة:

➢ **آمغار**: هو الزعيم باللغة التّرقيّة، وهو« الجدّ أو الزعيم أو الحكيم أو الأب الروحي للقبيلة »[3]تخضع له في كل شيء ولا تعصي له أمرا، هو مدبّر أمورها وموجّهها، في غيابه تدبّ الفوضى وفي حضوره يسود النظام، فمن خلال التقديم الخارجي لهذه

---

1 ــ محمد رياض وتار، "**توظيف التراث في الرواية**"،اتحاد الكتاب العرب،دمشق،د ط،2002، ص: 224 .

2 ــ إبراهيم الكوني، السحرة، ص: 138 .

3 ــ رواية السحرة ، ص: 13 .

الشخصيّة، اتّضح أنّها تجمع بين ما هو إلهي وما هو بشريّ، فقد كانت له القدرة على التواصل مع العالم العلويّ، وفهم لغة الخفاء التي استعصت على غيره من البشر، عاشر قبائل الجنّ، وتزوّج من بناتهم، فكان الجنّ الذين سلّمهم أمره يسهرون على مداواته كلّما حلّ به مرض أو يأس « ملّ وعرف السأم إلى نفسه طريقا؛ فسهر الجنّ على مداواته بالطواف، بعثوا له بالمردة، وضعوه على محفّة محبوكة من أعمدة الطلح، وحملوه في رحلة طافت صحراء الأرض، وصحراء الماء، ورأى ممالك لم ترها عين، ولم تسمع بوجودها أذن، ولم تخطر ببال بشر .»[1] وعرف سرّ الخلود؛ لأنّه عندما سئم العيش طلب من أهل الخفاء الراحة الأبديّة، ولكنّهم أبوا ؛ لأنّ ناموسهم « يرى رأيا آخر عندما يتعلّق الأمر بمخلوق هاجر يوما، ونزل الأرض الأخرى، فهل يموت الإنسان مرّتين يا مولاي؟ ألا يكفي أنّه مات مرّة وأرجعناه إلى آزجر بموجب ميثاق؟ »[2] فالزعيم أصابه مرض عويص، والسحرة عجزوا عن إيجاد ترياق له، بعد أن بدأ جسمه في التحلّل ، والديدان غزت بدنه، فخلفته القبيلة وراءها، خشية أن تصيبها العدوى، غير أنّ الجنّ أنقذته وصنعت له ترياقا من العشبة السحريّة، فأعادته من الغيبوبة التي استهوته ظلماتها، فاستجمع قواه ولحق بالقبيلة، ولكن السحرة ردعوه بالمدى و... بعد أن شكّكوا في هويّته ظنّا منهم أنّه جنّي تنكّر في شخصيّة ابنهم؛ لأنّهم فقدوا الأمل من شفائه .

اعتاد رجال القبيلة أن يحاكوا زعيمهم في كل ما يفعل، حتى إنّه عندما اعتزل النساء وسبّ ملّتهم، قام الرجال باعتزال نسائهم والابتعاد عن قريناتهم، وقد عرفت القبائل فرحا عارما بزفاف الزعيم؛ لأنّ هذا الزفاف ينبئ « بعودة رجال القبائل إلى البيوت، إلى البناء، إلى الحياة »[3].

وقد تمتّع هذا الزعيم بخصال لم تشهدها القبيلة في غيره من قبل، فقد ورد في السيرة: « أنّ الزعيم تمتّع بالخصال التي تليق بالزعيم في سنّ مبكّرة، كان في شبابه وقورا، ومكابرا»، شهدوا له بالشجاعة، ورأوا في عيونه التصميم، وقد أسندت إليه وظيفة الإنقاذ؛

---

1 ــ رواية السحرة ، ص: 775 .

2 ــ رواية السحرة ، ص: 776 .

3 ــ رواية السحرة ، ص: 775 .

لأنّه الوحيد الذي لم يتخلّ عن الصحراء، فأنقذها وحارب الغزاة بعد أن تخلّى عنها أبناؤها، فهو يجسّد انتصار الخير على الشرّ، فمحاربة الغزاة وحده تُنمّ عن قدرة خارقة تتجاوز قدرة الكائن العادي التي تُلغي كل الأنظمة الكونيّة، بالإضافة إلى وظيفة أخرى هي تدبير شؤون القبيلة، ، فكان يبعث لها بالوصايا عبر الرسل، عندما استوطن الشعاب العليا، هربا من الناس الذين لم يجد فيهم إلا الحمق، وطلبا للتأمّل الذي يقتضي الإنفراد والعزلة .

➢ **السحرة** : لعل في عنوان النص "السحرة" ما يحيل إلى أهمية السحر بالنسبة للبدو الرحّل، ولاسيما القبائل البدائيّة، فقد كان له دور فعّال في تأسيس الثقافة، وجاء كمحاولة لاستنطاق الطبيعة وجمالها، وكذلك لتفسير بعض الظواهر التي حيّرت الإنسان، فالسحر هو: « علم بكيفيّة استعدادات تقتدر النفوس البشريّة على التأثير في عالم العناصر إمّا بغير معين، أو بمعين من الأمور السماويّة، الأوّل هو السحر، والآخر هو الطلسمات »[1] وعرفت الرواية الصنفين، صنف له «خاصية التأثير بالقوّة النفسانيّة دون اللجوء إلى معين، وصنف آخر، يلتجئ إلى الاستعانة بعظام القرابين، ومسالك الطير، ومختلف الظواهر الكونيّة؛ لقراءة النبؤات، فالسحر اتحاد روح بروح، والطلسم اتحاد روح بجسم .»[2]

والساحر في المجتمع الترقي تبوّأ مكانة مرموقة، اكتست طابع القدسيّة، « فقد عمل دور الوسيط بين العالم الدنيوي وما يسمّونه علم الأرواح .»[3]؛ لأنّ له القدرة على اختراق ذلك العالم، وفكّ رموزه وطلاسيمه، وقوّته التي تخوّل له التحكّم في تلك الأرواح، من أجل طلب المنفعة، ودرء الشرّ من القبيلة .

فالساحر« شخص مرتبط بوسط اجتماعي معيّن، يصارع فيه القويّ بشكل يفضي به إلى كسب الرفعة والتفوّق وتحقيق موقعه من الحياة الاجتماعيّة برموزها المختلفة.»[4] فهو بنية وعنصر مهم في هيكلة القبيلة الترقيّة، فوجوده يعزّي القبيلة؛ لأنّه يمنحها الاطمئنان، وهنا تكمن فعاليّة السحر والساحر؛ لأنّه يعوّض حدّة العجز لدى القبيلة، فإحساسها «

---

1 ــ ابن خلدون، "**المقدّمة**"، 108/3 .

2 ــ المصدر نفسه، 115/3 .

3 ــ عبد الله رضوان، "**البنى السرديّة، نظريّة الرواية**"، دار اليازوري العلمية للنشر، عمان ــ الأردن، ط1، 2003، 50/2 .

4 ــ أحمد طالب، "**الفاعل في المنظور السمياني،دراسة في القصة القصيرة الجزائريّة**"، دار الغرب للنشر والتوزيع، وهران،2002، ص:11 ــ 12.

بعدم الكمال أو الشعور باللاتحقّق جعله (الساحر) يبذل جهدا مضاعفا لتحقيق نوع من التوازن»[1] في وسطه الاجتماعي، فقوّة الساحر لا تتأتّى إلا بإيمان القبيلة وثقتها بقدراته، وهي نقطة ارتكازيّة يعتمدها السحر الذي « يتمثّل بثلاثة أوجه متكاملة، فهناك أوّلا إيمان الساحر بفعاليّة التقنيات التي يعتمدها، ثمّ هناك إيمان المريض الذي يعالجه الساحر، كما أنّ هناك أخيرا ثقة الرأي العامّ ومتطلّباته التي تشكّل في كلّ لحظة من لحظات العمليّة حقلا من حقول الجاذبيّة تتجدّد في صلبه وتنعقد أواصر العلاقات بين الساحر ومن يقع عليهم سحره.»[2] هذه النقاط الثلاثة هي سرّ نجاح العمليّات السحريّة، كما أنّها تثبت مكانة الساحر وتوطّد العلاقات بين الطرفين .

وكلّما اعترضت القبيلة مشكلة أو استشكل عليها أمر لجأت إلى السحرة لتخليصها من البلاء الذي ألمّ بها؛ لأنّ لهم القدرة على التواصل مع العالم المجهول، من هنا تتخذ هذه الشخصيات رمز المعرفة؛ لأنّ أهل الصحراء ينقسمون إلى قسمين: قسم لا يعلم، وقسم يعلم، وهم الذين دخلوا ملكوت السحرة الذين لا تخفى عنهم خافية .

وقد حملت الرواية " السحرة" في طيّاتها وصفا ينهض بتحديد ملامح السحرة، الخارجيّة والداخليّة، فهي شخصيّات تنبثق من آفاق ضبابيّة، تؤثّر العزلة على العيش بين أبناء جلدتها، فيتّخذون الخلاء موطنا، ويجنحون إلى الإشارة كلغة يتواصلون بها، يكثر في عيونهم التسليم، شيمتهم التريّث،هم وحدهم من أدركوا سرّ الدائرة، فتشبّهوا بها وانفكأوا على أنفسهم فحووا أسرارهم التي لا يعلمها غيرهم، يغلب على هيئتهم الغموض، والوقار والهدوء .

وقامت الرواية بتقديم هذه الشخصيّات، بصورة تلقائيّة من خلال الفعل الذي أسند إليها، فقد أُسندت إليها مجموعة من الوظائف هي: السحرة؛ إذ يعود لهم الأمر في كلّ شيء، فالقبيلة تحتكم إليهم في المواقف التي تهدّدها بالزوال؛ لأنّهم اعتادوا على قراءة الغيب في مسالك الطير، وعظام الذبائح والقرابين، وعلى إثر تلك النبؤات يقودون القبائل التي تنصاع لأوامرهم ونواهيهم، دون أدنى تفكير، كما أُسندت لهم وظيفة التطبيب، وفكّ طلاسم السحر الضار، وإبعاد الأرواح الشريرة، فالساحر كان له يدٌ في إنقاذ" **بورو**" من

---

1 ــ واليس بيدج، "**السحرة في مصر القديمة**"، ترجمة: عبد الهادي عبد الرحمن، دار سينا للنشر،القاهرة، ط1، 1998، ص: 11 .

2 ــ كلود لفي ستراوس، "**الإناسة البنيائية**"، ترجمة، قبسي، المركز الثقافي، الدار البيضاء ،ط1، 1995، ص: 184 .

الجنّ عندما خالف الناموس بذكر اسم الساحرة الشريرة **تيرزازت** رغبة منه في دخول الحرم للقاء أمّه المتوفّاة، والساحر هو من استعاد "**دودو** "عندما اختطفته الجنّ واستبدلته عندما قام أخوه بتخليصه من التمائم التي كانت تحميه، وإليهم أوكلت وظيفة حماية الصحراء وكنوزها، وهم من يقومون بطقوس دفن الموتى، وطمر الكنوز مع الرفات؛ لإلهاء الطامعين، فاكتشفوا سرّ الذهب لإلهاء الباحثين عن الكنز الحقيقي، بالإضافة إلى قدرتهم على مجابهة القوى الخفيّة، وحماية ودرء الأذى عن القبيلة التي يسلطها عليها قبائل الخفاء، كل هذه الوظائف، سمحت للسحرة بتبوّؤ مكانة مرموقة في القبيلة، فقرّبهم الزعيم منه، وشاورهم في كلّ أمر يهمّ ويتعلّق بمصلحة القبيلة

- **الرسل** : شخصيّات مقدّسة تنحصر وظائفها في التبليغ والتوصيل، يشكّلون حلقة الوصل بين العالم الدنيوي والعالم القدسي؛ أي بين القبيلة والزعيم، نصّبهم الزعيم لنقل تعاليمه ووصاياه إلى العالم السفلي، وكان الرسل من الملتين، ملة الإنس وملّة الجنّ، هذه الفئة شكّلت سطوة مهيمنة على القبيلة التي استقبلتهم بفرح منقطع النظير، فكانت القبيلة تقيم الولائم فرحا وترحيبا بالرسل، ومن أبرز السمات التي اشتهروا بها: الثبات والهدوء، وجوههم يملأها الغموض و التسليم، بالإضافة إلى قدرتهم على الاختفاء؛ لأنّ أكثر الرسل كانوا من ملّة الجنّ، فالزعيم تخلّى عن السلالة الفانية، وكانت هذه الأخيرة الصفة الوحيدة التي ميّزت بها القبائل بين الملّتين، فالرسل ينقسمون إلى قسمين: رسل وعسس .
- **العسس**: كلّفهم الزعيم بحراسة الحرم من الجهات الأربع، فكانوا يسدّون المنافذ إليه، ويتولّون الإشراف على القبائل يوم الميعاد، هذه الفئة كان لها دور كبير في حماية الحرم المقدّس، فعندما انقطع الرسل عن إحضار الوصايا، ذاعت شائعة تروّج لموت الزعيم، فانتهكوا الحرم، وخالفوا العهد الذي أقاموه بينهم وبين الزعيم، فأوقف العسس زحفهم، وردّوهم على أعقابهم، وحذّروهم من انتهاك الشرائع، وقد ظهر أحد هؤلاء العسس "لجبّارين"، وقام بجلده؛ لأنّه دخل الحرم دون علم منه، وإنّما غيبوبة الوجد والغناء التي حلّت به قادته إلى المنطقة، فنهره وتوعّده بالسوط إذا تجاسر وانتهك الناموس مرّة أخرى؛ لأنّ هذه المنطقة محرمة على الجنّ والإنس على حدّ سواء .

أمّا الفئة الثانية، فقد قامت بنقل الوصايا إلى الرعايا، ورفع المشاكل والشكاوى التي تصادف القبيلة إلى الزعيم؛ ليتلقّوا الجواب والحلول عن طريق الوسطاء أيضا .

ولكن حدثت عوامل ضدّية عرقلت سيرورة العمل الذي تقوم به هذه الرسل، ومنعته من الوصول إلى نتيجته الإيجابية، فالقبيلة لم تهنأ بوضعيّتها القارة؛ لأنّ حدثا مهمّا طرأ فغيّر هذه الوضعيّة فالرسل قد مسّهم الزيف، فكان **وانتهيط** وأتباعه ينتحلون شخصيّات الرسل ويغيّرون الوصايا، ويقلبون الشرائع، فضاق الصحراويون بحيل **وانتهيط** فنحروا القرابين، وتمسحوا بالجلاميد المحيطة بالحرم، طلبا للصفح والغفران؛ لأنّهم اتّبعوا الملّة الزائفة، فتوسّلوا الزعيم أن يرسل لهم علامة يميّزون بها بين رسله ورسل **وانتهيط** ، فكان أن أرسل لهم « رسولا روت القبائل عن بهائه، ووقاره الأساطير، كان مارد القامة، نحيل البنية، وديع البصر، يرتدي اللباس الأزرق، ويتعلّق بالأفق البعيد، تكلّم بالوصايا، فقال : إنّ الزعيم يقول: إنّ حنينه إليهم شديد، وليته يستطيع أن ينعم برؤيتهم عن قرب، ولكن هيهات أن ينزل من صعد جبال تارات...صمت طويلا، ثمّ تكلم مرّة أخرى فقال: إنّ الزعيم ملّ الزور أكثر من مللهم بالزور، وضاق بالزيف أكثر من ضيقهم بالزيف، ولكن لا سبيل إلى قطع الزور من الأرض؛ لأنّه لا توجد علامة تمنع من عدوّه وعدوّ الخلق، ثم سكت... بعد أن غاب في الأفق وكلّمهم من هناك« الزعيم يخبركم منذ اليوم أن تجدوا الطريق إلى الناموس بأنفسكم .»[1] الزعيم خيّر القبائل ، ودلّهم على المحبّة والاختيار كمبدأين يميّزون بهما بين الرسل المزيّفين والرسل الحقيقيين، بعد أن استطاع **وانتهيط** تزييف الوسم في عيون الرسل، وقبله في الرقع، هذا الرسول أيضا لم يسلم من الشك، فقد رأى فيه البعض شبها **بوانتهيط**، فكذبوه، ونعتوا كلامه بالزيف؛ لأنّ المحبة التي أخبرهم عنها لا يمكن أن تحلّ محلّ الختم والرسل .

ومن نماذج الرسل أيضا، ذلك الرسول المجهول، الذي حلّ على القبيلة مع حلول الغسق، إذ جاء « ملفوفا في الثياب الزرقاء، يعلّق يديه النحاسيتين على عصا صقيلة من السدر، كانت تستقرذ على وقبته لتوازي المنكبين العريضين، في حين لم يلحظ أحد نعليه،

---

1 ــ رواية السحرة ، ص: 797 .

و لم يجزم أهل الفضول عما إذا كان يرتدي تمبا أم جاء حافي القدمين... في الليلة الأولى تحدّث طويلا عن **وانتهيط** وقال : «إنّ سبب بلاء أهل الصحراء أنّهم يجهلون مسلك عدوّهم القديم الذي اعتاد أن يهرع إلى كلّ بيت ارتفع فيه ضحك» .[1]

هذا الرسول هداهم إلى سرّ البكاء، وخلّصهم من الأسقام التي أردت بالكثير من أبنائهم، والتي كان الضحك سببا فيها، فقام بمذبحة كبرى ارتفع النحيب على إثرها، فخلّصتهم من الأمراض التي مسّتهم، ثمّ ترك القبيلة مخلّفا وصايا صارت شريعة في الصحراء، وقد أثنى عليه الشيوخ والسحرة، عندما « اكتشفوا أنّ مرضاهم تعافوا، والعلل التي استوطنت بيوتهم، وخرّبت أبدانهم قد اختفت .»[2] على الرغم من المبدأ الغريب الذي انتهجه الرسل في التخلّص من العلل، إلا أنّ القبيلة انصاعت لهم واستمعت لأقوالهم وتقيّدت بوصاياهم .

ومنهم ذلك الرسول الذي قلب التعويذة لصاحب القميص، الذي عاث فسادا في الصحراء، فأرهب أهلها فكسر شوكته، وخلّص القبائل منه؛ لأنّه أدرك سرّ قوّته .

وعلى الرغم من كلّ ما حدث، لم يتوقّف أهل الصحراء عن استقبال الرسل، مع عجزهم عن معرفة حقيقتهم« فتستقبلهم القبائل بولائم الإكبار، وتغنّي على شرفهم أنبل الأشعار، ويأتي لمجالسهم الأكابر والسحرة .»[3] ليستمعوا إليهم وإلى وصاياهم .

- **رسل القرعة:** بدونهم لا تقام مراسم القرعة، يقبلون كلّ حول في موسم الربيع لإقامة الطقوس والإشراف على الاحتفالات، هم من يختارون مكان التجمّع والأعواد التي تقام بها المراسم، من أبرز سماتهم أنّهم يحملون العزيمة والتصميم، عيونهم يملؤها التسليم والغموض، لا يلهيهم شيء عن عزمهم وهدفهم ، على الرغم من الترحيب الذي بادرتهم به القبائل إلا أنّهم مضوا إلى سبيلهم، وشرعوا بالتحضير لبدء الطقوس .

- **الرعاة:** هم شخصيات مقدّسة، على الرغم من تدني مرتبتهم الاجتماعية، والجرأة هي من أكسبتهم صفة القدسيّة؛ لأنهم لم يتخلّوا عن الصحراء عندما آثرت القبائل

---

1 ــ رواية السحرة ، ص: 408 .

2 ــ رواية السحرة الرواية، ص: 410 .

3 ــ رواية السحرة ، ص: 410 .

الفرار وترك الصحراء لمصيرها، فكانت الفئة الوحيدة التي سمح لها الزعيم بدخول الحرم في أيّ موسم من السنة .

➢ **المعتزلة** : هم الملّة المعادية **لوانتهيط**؛ لأنّهم اكتشفوا حيله وخدعه، استوطنوا الكهوف تاركين وراءهم كلّ شيء، لم تأخذ القبائل بنصحهم عندما نبهوهم وحذّروهم من مكائد وانتهيط، فسلّط وانتهيط أعوانه عليهم وألب ذويهم وأهلهم ضدهم، عندما أدرك أنّهم يشكلون خطرا على شرائعه، فرجموهم وأخرجوهم من الديار فابتعدوا عن الحياة القبليّة، وآثروا العزلة والانفراد، وأقاموا في المغاور والكهوف، واختفوا عن الخلق لأنّهم أدركوا حكمة الناموس « إذا أردت أن تحيا، فاختف، ثمّ اختف، ثمّ اختف...». [1]

➢ **الشيوخ والحكماء**: لقد حرص الشيوخ على تعليم أبنائهم الشهامة والعزيمة، كان الصبية يتحلّقون حولهم ليستمعوا لمآثر السلف وأساطيرهم، ويرجع لهم الفضل الكبير في تثبيت هذه القيم في نفوس أبناء القبيلة؛ لذا كان الناموس يحرص ويوصي بهم كثيرا، فاندثار هذه الفئة من القبيلة يشكّل خطرا على أهلها؛ لأنّه « إذا ضاع الشيوخ ضاع الأبناء .» [2].

➢ **حكيم الحيوانات** : هو من يقوم بالكشف عن القطعان، يلتجئ إليه أصحاب المواشي إذا أصاب قطعانهم بلاء، ولكن مقدرته تبقى في حدود البدن، فإذا تعدّت المشكلة البدن فإنّ المهمة تصبح من نصيب الساحر؛ لقدرته على اكتشاف أسرار المجهول، وقد لجأ إليه "**جبارين**" ليكشف عن قطيعه وعن الشاة التي تفرّدت عن القطيع؛ لأنّ الحكيم« يرى هاجعا ما لا يراه الغشيم واقفا»، [3] هذا الحكيم كان يتمتّع ببصيرة قويّة رغم العمى الذي أصاب عينه، رأى فيه" **جبارين**" من التواضع ما أدهشه، انتهج التسليم و لم يعد ينتظر من الدنيا غير النبوءة، فعندما تحسس الشاة نصح الزعيم بأن يلتجئ إلى السحرة لمعرفة داء الشاة؛ لأنّه عجز عن معرفة دائها .

➢ **الواويون** : اشتهرت هذه الطائفة ببحثها عن الفردوس المفقود، و« مواصلة البحث عن مصير مجهول في فضاء صحراوي متعدّد الأبعاد، فأضفى عليها نوعا من العزلة

---

1 ــ رواية السحرة ، ص: 532 .

2 ــ رواية السحرة ، ص: 84 .

3 ــ رواية السحرة ، ص: 544 .

والانفراد، ومقدار يدفعها إلى ضرب من المشاركات العابرة، وهي ترتحل من دون هواده كأنّها لا تدرك معنى الاستقرار»[1] فهم لا يتوقّفون عن البحث إلا عندما تتوقّف بهم الحياة؛ لأنّ الحياة عندهم بحث، ويقال إنّ الكثير منهم عثروا على الواحة المفقودة « ولكنّهم خرجوا منها طوعا ليبحثوا عنها من جديد؛ لأنّ الحياة عندهم بحث والطلب هو سرّهم »[2] ويرجع لهم الفضل في وضع حجر الزاوية في بيان الأغنية الصحراويّة عندما « بثوا في اللحون النزعة الوجدية التي صارت سمة تميّز ألحان الصحراء »[3] هذه الفئة كانت رمزا للبشارة كلما حلّت على القبيلة أدركتها المسرّات والبشائر، فكانت تستقبلهم القبائل بنوع من الحفاوة، وتنحر لهم القرابين ترحيبا لهم، ولكنّهم لم يأبهوا بالموائد والولائم لأنّ حياة الانقطاع والتسليم ألهتهم وأنستهم فيها،فكان الأكابر يتحلّقون حولهم ليحاوروهم عن البلاء الذي حلّ بالصحراء؛ لأنّهم اشتهروا بقراءة الغيب وكشف النبؤات والتكهّن دون العودة إلى عظام الذبائح، وكانت نبؤاتهم وحيا قلّما يخطئ التنبّؤ، وقد عرض الحمادة مهاجرا واويا ذاع صيته بين القبائل لما امتلكه من مقدرة على قراءة الغيب والنبؤات، دون أن يتخذ من الأشياء معينا في ذلك، كان المهاجر « ضامر البنية مثل عود قصب، ويكنّه امتلك عينا كانت ترى صاحبها وهو بين الماء والطين، ثم وهو نطفة، ثم وهو مضغة، ثمّ وهو جنين...»[4] ويروى أنّه كان يملك بصيرة حادّة ، فكان ينظر أكثر من الزمان، كان يؤثر الصمت إزاء كلّ ما يرى، ولا يكلّم أحدا عما يجول بخاطره، وهذا المهاجر اختفى فجأة، لم يعرف أحد له طريقا ولكن الروايات أخبرت أنّه قبل رحيله أخبر القبائل أنّه سيعود بعد زمن طويل في بدن حيّة .

فالواويون هم العنصر الفعال في إشاعة الجانب الروحي في الصحراء، هم الوسيط بين العالمين عالم الغيب والعالم الدنيوي، فجمعوا بين الواقع واللاواقع؛ لأنّهم ارتادوا الأفق

---

1 ــ عبد الله إبراهيم، "**الرواية العربية، ممكنات السرد**"، أعمال الندوة الرئيسيّة للمهرجان الثقافي الحادي عشر، 11، 13 ديسمبر 2004، الكويت، العدد:359، 23/2..

2 ــ رواية السحرة ، ص: 475 .

3 ــ ينظر: رواية السحرة ، ص: 422

4 ــ رواية السحرة ، ص: 364 .

العليا، ودخلوا الفردوس المفقود حيث التناهي مع العوالم الغيبيّة والابتعاد عن العوالم الحسية؛ لأنّ ممارساتهم تنبئ عن عالم غريب وعجيب، ولعل وجودهم في الصحراء وفي الوسط الاجتماعي للقبيلة هو ما يجعل منه فضاء مقدّسا .

ـــ **في الحيوان**:تكشف روايات إبراهيم الكوني عن أهمية الحيوان بالنسبة للإنسان والصحراء، وهي رؤية تبناها في مجمل رواياته، وحيوانات الكوني أيضا مسّها طابع القدسية،فأصبحت رمزا يحمل قوى عجيبة تخدم الإنسان، ونجد من أبرز تلك الحيوانات:

➢ الودان : روح الجبل،وشعار قبائل الطوارق وطوطمها، عبدوه وقدّسوه لأنّه استوطن قمم الجبال، والطوطمية هي « عبادة سحريّة متطوّرة...يحرّكها الاعتقاد بأنّ الحيوانات والنباتات وبعض الأشكال الماديّة وظواهر الطبيعة هي الجدّ الأوّل والحامي لجماعات بشريّة معيّنة تربطها أواصر القربى. »[1] والتوارق تركن إلى هذا الاعتقاد، **فالودّان** هو جدّهم الأكبر، وهو تيس « جبلي تقول لنا الكتب إنّه انقرض في أوربا منذ بدايات القرن السابع عشر، ولكنّه ظلّ موجودا في الصحراء الكبرى، ثمّة غموض يحيط بهذا الحيوان »[2] ومن هنا شكّل هذا الحيوان رمزا دلاليا قويّا وبؤرة متّسعة؛ لأنّه يحمل في جوفه سرّا من أسرار الوجود، فيما يروى عن هذا الحيوان أنّه كان بلا قرون، وإثر مقابضة جرت بينه وبين الجمال وهبته فيها قرونها في حين أخذت الخياشم منه، فأصبحت القرون سلاحا يحميه من الغزو الذي شنّه عليه الإنسان، فكاد يبيده عن وجه الأرض .

إنّ **الودّان** مشوب برائحة القداسة وعطر السحر؛ لأنّ الأسلاف تنكّروا في بدنه، وكثيرا

ما كان الزعيم يستعير جسمه لينقذ أبناء جلدته من المخاطر التي واجهتهم، فهو رمز للحماية، ويحوي طاقة رمزيّة ذات أبعاد أسطوريّة، هذه الطاقة ثبتتها علاقة الترقي **بالودّان**، فهذا الأخير هو من أنقذ "**جبارين**" عندما تهاوى من الجبل كما تتهاوى الحجارة، فندت

---

1 ـــ خزعل الماجدي، "**أديان ومعتقدات ما قبل التاريخ**"، دار الشروق، عمان ـــ الأردن، ط1، 1997، ص: 64 .

2 ـــ فخري صالح، "**في الرواية العربية الجديدة**"، منشورات الاختلاف، الجزائر، ط1، 1430هـ ـــ 1997هـ، ص: 148 .

عنه صيحة جنوبيّة باسم الجدّ والإله الأوّل ، «صرخ بأعلى صوته: آ. آ. آ. آ. مغا. آ. آ. آ. آ. ر ، ردّدت الجبال النداء بصوت جليل (آمغار، آمغار) .

تهيّأ للانطلاق في نداء جديد، ولكن فيضا جديدا تنزل، فرأى فيه قامة نبيلة، غامضة نال منها الركض، وتقوست بسبب قساوة الطلب الخالد،...، انحنت عليه القامة الغامضة فتشبّث بها، أمسك القرن الجليل بيده، وتشبث بالعجزة بيد أخرى، تقاقر الشبح، تنقل على الصخور الصلد بمهارة لم يعرفها إلا من عرف الجبل .»[1] هذا المقطع يوحي بقدرة الودان على الحلول في أي مكان وأيّ زمان، فهو مستعدّ دائما لتلبية النداء .

➢ **الناقة:** هي أيضا تمثّل شعارا طوطميّا، وهي « خاصية كونية من خصائص التفكير البشري »[2] فالجمال هي أحبّ الحيوانات إليهم، فتعلّقهم بها يأخذ شكل علاقة خاصة استثنائية تقترب بهم من مرتبة الأمثولة التي تجعل الشخصيّة في عدد من قصصه تضحي بالإنسان مؤثرة الحيوان عليهم إذا ما اضطرت إلى الاختيار بين الاثنين »[3] على الرغم من السيل العارم الذي أدرك "بورو" في الوادي، لم يتخلّ فيه عن الحوار وإنّما « اندفع يخوض الماء ويعارك اللسان اللئيم، يجرّ الحوار بيد ويدفع التيار باليد الأخرى، حتى احتضن ساق الطلحة »[4] هذا المقطع يبرز أهمية الجمال بالنسبة للصحراوي، فهو يؤثر الموت في سبيل إنقاذها، فهذه الحيوانات تشكل معنى من المعاني التي تتحقّق بها السعادة للطوارق، فالجمل قرين الصحراوي ومؤنسه في أرض تخلو من البشر، حياتهم لا تستقيم إلا بها؛ لأنّ الإبل هي الحياة نفسها، « ماذا نساوي بدون إبلنا، الإبل هي حياتنا بها نتعيّش وبها نركب، وبها نستعين،... »[5] هذه العلاقة تعدّت حدود الوصف حتى صار الصحراوي يقارن نفسه بها « نحن مثل إبلنا، نفطّر مثلها ولا نعرف أكثر مما تعرف » وكثيرا ما كان يطلب الصحراوي

---

1 ــ رواية السحرة ، ص: 757 .

2 ــ كنود لفي ستراوس، "**دراسة فكريّة**"، ترجمة: ثائر ديب، منشورات وزارة الثقافة، ج. ع. ش، دمشق، دط، 2002، ص: 51 .

3 ــ عبد الله إبراهيم. صالح هويدي. "**تحليل النصوص الأدبية قراءات نقديّة في السرد**"، دار الكتاب الجديد المتحدة،ط1، 1998، ص: 13 .

4 ــ رواية السحرة ، ص: 746 .

5 ــ رواية السحرة ، ص: 27.

نصحها ويحتكم إلى فراستها، وهو ما حصل مع جبارين، فالثقة التي أملتها عليه العلاقة التي تربطه بناقته جعلته يتّبعها دون أدنى تفكير لمواطن الخصب والنماء، وسقوط الأمطار، فبعد محاولات من رسل وانتهيط في تضليل جبارين عن الطريق الصحيح، هي هدته إليه، فأنقذته من الشرك الذي نصبه أتباع الساحر المشئوم؛ لأنّه يعلم أنّ ناقته لم يسبق وأن أخطأت التقدير، « ذهب جبارين إلى ناقته وحدّثها طويلا عن حيل وانتهيط ومكائد الجنّ، ثم أخبرها أنّه سيحتكم إلى فراستها، فهي أكثر علما من كل القبائل وكلّ سلالات الجنّ، أين سقط المطر »؛[1] وهذا بفضل الخياشيم التي قايضتها بقرون الودان، وكانت هذه الناقة سببا في إنقاذ "جبارين" من السيل العارم الذي أدرك الوادي فجأة فجرف كل ما صادفه في طريقه .

والناقة تحمل رمز السلطة، وهي رمز للثراء أيضا، فمن امتلك النوق في الصحراء نال العزّ والثراء، فقد صادف" بورو"، والتقى عجوزا حدّثه عن سرّ الإبل وخصالها، فقال: «إنّ الإبل كالخلق الصحراوي أيضا قبائل، ولكن الطبع في سلالة الإبل يعطس الطبع في قبائل الإنس، أنثى الإبل ألين طبعا من أنثانا، وذكورها أشرس من ذكورنا، ومن أراد أن يكسب إبلا فليكسب نوقا لا جمالا؛ لأنّ من لم يهتمّ بتربية ناقة لم ينل في الصحراء سلطانا »،[2] فمن لا يملك ناقة لا يملك شيئا في الصحراء .

➢ **المهاري** : حيوانات تتميّز بسرعة كبيرة، ورشاقة، وخفّة في الحركة، يمتطيها الفرسان في الحفلات، ويتباهون بها في المناسبات، تتميّز بذكاء حادّ وسرعة في البديهة، قادرة على فهم صاحبها دون أدنى حركة منه، كما أن المهري هو الذي أنقذ " أكّا" الساحر العظيم من خطر محتوم، عندما أدرك هذا الأخير الخطأ الذي وقع فيه بزواجه من الجنية الجميلة "تادمورت"، فكان وسيلته في الفرار وطوق نجاة نسله، التي قامت الجنية بتبديل أفكارهم وتحريضهم ضد أبناء جلدتهم« فالمهاري النبيلة وحدها تقرأ نوايا الفرسان، فتلتهم الأرض تعبر البيداء، دون أن يحتاج للسع...بنيران السياط، المهاري النبيلة الأصيلة خلقت للنوايا

1 ــ رواية السحرة ، ص: 110 .

2 ــ رواية السحرة . ص: 737 .

وليس للسياط»،[1] على الرغم مما أصيب به المهري من جراح وتعب لم يتوقف عن الركض ، فكلما تذكر صاحبه سابق الرياح ،شدّ من بأسه حتى لا تدركه الغولة، فقد جاهد حتى لا يخون العهد و لم يستسلم حتى أوصله إلى برّ الأمان، هناك قضى نحبه عندما عجز صاحبه عن مداواته؛ لأن الداء استفحل وانتشر في بدنه فتركه يحتضر، وهرب للإقامة في أعالي آلون .

➢ **الطيور**: في أثرها قرأ السحرة نبؤاتهم، فقدرتها على التحليق واجتياح الفضاء السمح، ودنوّها من السماء جعلها أيضا وسيطا بين العالم الدنيوي والعالم القدسي، فقد كان السحرة يتبعون الطير لمدّة طويلة قد تصل إلى شهور عديدة؛ في محاولة منهم لإدراك السرّ وكشف مواطن سقوط الأمطار، فالطير في مساراتها تخلّف إشارات وترسم رموزا، فيقوم السحرة باحتضانها بعناية فائقة، ليعودوا بها إلى القبائل التي كانت تنتظرهم بشغف كبير، وعقب كل عودة تقام طقوس احتفاء بالعودة الميمونة؛ لأن القبيلة تدرك أن السحرة يحملون السر والبشرى التي لطالما انتظروها، ومن أجل فكّ طلاسم تلك النبؤات تنحر الذبائح؛ لتستخدم عظامها في قراءة الرموز التي رسمتها مسالك الطيور، وكانت هذه النبؤات تصدق دائما ، فمن ضمن الأنباء التي حوتها تلك الإشارات: أنّ الجذب سيغزو الصحراء وقد تحققت هذه النبؤة"«إذ أن المطر لم يسقط في مملكة الحمادة منذ ذلك اليوم».[2]

ومن أصداء الطير ولغتها عرف الساحر ما ألم بقطيع الزعيم، فقدرته على فهم هذه اللغة وفك طلاسمها قادت الساحر إلى الموقع، وقد دهش الزعيم لتلك الحادثة، فالساحر أدركه دون أي دعوة منه، الموقف أثار استغراب الزعيم الذي ما لبث أن استجواب الساحر: كيف عرفت بهذا المصاب، فأجابه الساحر: الطير حجة العرافين عندما يختلف الحكماء في تأويل النبؤة ."[3]

فالطير كان ، الحد الفاصل في أي جدل يقع بين السحرة .

➢ **مولا مولا**: طائر البشارة وحامل المسرات، هو طائر أسود اللون، تتوج رأسه بقعة ناصعة البياض، وهذا ما أعطاها سرّ تألقها، وتعلّق الصحراويين بها، تروي الأساطير الكثير

---

1 ــ رواية السحرة ، ص: 135 .

2 ــ رواية السحرة ، ص:80 .

3 ــ رواية السحرة ، ص: 550 .

عن هذا الطائر وما يحويه من الغموض، فقد كان الملاذ الأخير والوطن الوحيد الذي احتمت في جوفه الصحراء؛ لأنه لم يسبق لأحد أن عثر له عن عشّ ، أو وجده ميتا، ولم تطله أيادي الصيد ولا وسائله، لقدرته على التخفي وهذا ما يجعل منه طائرا قدسيا، لم يحل على نجع إلا وأدركته الأفراح وطالت السعادة جميع أفراده، فقد اختارته الصحراء رسولا لها يحمل البشائر، فهو شعلة من الأمل تهدي المهاجرين والقوافل التي ضلّت سبيلها، كما أنه كان يحمل التحذير للقبائل إذا حلّ بالصحراء غزو أو بلاء .

وفي نداء هذا الطائر تلقت الأم الوصية فقادتها إلى مكان وليدها الضائع، بعد أن عجزت القبيلة عن إيجاده على مدار ثلاثة أيام من البحث المتواصل عندما أقبلت تحمل البشارة: «استلقت في زاوية الخباء، وراقبت مسلك الرسول، رفرف في المدخل بإلحاح، ظلّ معلقا في الفضاء...ولكن رأسه لم يكن مشدودا إلى أسفل، إلى التراب، وإنما إلى ركيزة البيت،...لكن الرسول لم يمهلها، فأطلق النداء، نداء ملحون،شجي، يفيض بالأحزان ككل نداء في الصحراء، في الطرفة الأولى غابت في ظلمة أشدّ سوادا من ظلمة الكهوف، ...أرادت أن تصرخ، أن تطلب النجدة، ولكن اللسان مات في حلقها، فقدت الاحساس بالانتماء إلى البدن، يئست، وما أن يئست حتى انشق الأفق عن القبس،القبس أضاء النصب الوحيد، فوق النصب انتصب الضب، في الأسفل تكرّم أدبين في دائرة حديثة العهد » .[1]

في تلك اللحظة أدركت الأم ما حلّ بوليدها، فندّت عنها صيحة أفزعت القبيلة، وقامت باستدعاء الساحر الذي أعدّ العدّة؛ لبقوم بطقوس الاسترجاع، وبعد أن قدّم قربانا نحره على القبر، أخرج بدنا احتوته الظلمات، وتهيّأت العلا لإدخاله إلى حرمها .

إنّ الوليد بعد تلك الحادثة فقد اسمه وذاكرته ولم يعد يذكر من الأمر شيئا، حتى أنّه نسي أن أخاه الذي حاول قاله وقام بدفنه حيّا، ولم تقبل أمه على تسميته حتى جاءت مولا مولا بالبشارة والاسم، « فمولا مولا هي من أقبلت له بالاسم، كما أقبلت له من قبل بنبؤة الميلاد » ،[2] كل هذا جعل منها طائرا مقدّسا يتفاءل الصحراويون به، لذا اختارتها الصحراء

---

1 ــ رواية السحرة ، ص: 513 ــ 514 .

2 ــ رواية السحرة ، ص: 519 .

أن تكون رسولا أبديا يحمل النبؤات. وقد كان هذا الطائر سببا في تذكر "جبارين "أغنية "بورو" عندما اعتزل الناس واختلى في الكهوف بعد أن فقد رفيقه،فالأغنية التي قدّمتها في فم الكهف،بصوت شجي لا تضاهيه أصوات الحسان في شيء لأنها« لا تقلب الناموس، فتنطلق من السكون كما تفعل الصبايا، فبدا كأن النغم يتدفق من أعلى ويسقط إلى أسفل كنداء من السماء، ...لأنه لحن لم يحاك ألحان أهل العشق،ولم يشتبه بأغاني الأشجان والفجائع، ولكنه سار في سبيل آخر، فصارنشيدا خفيا: " صو،صصو،صووووو...." ». فغناء مولا، مولا ذكّره بأغنية القران التي كان يردّدها"بورو"، ومن ندائها استوحى الالهام؛ لأن صوتها العذب مستوحى من السماء،وهنا تكمن رمزية هذا الطائر، فزيادة عن كونه جسرا يمد المستوى الدنيوي بالمستوى القدسي، هو رمز لتلك الروح التي لم ينكل بها الزمان، ويفقدها هويتها، وإنما ظلّت محتفظة بذلك الفيض الذي أخذته من العالم الإلهي المشبع بالقدسيّة .

➢ **الخنفس المقدّس:** الحية هي أوّل من منح الخنفس لقب القدسيّة، فهي تمجّده وتسبح بحمده، ليس لأنه منحها أقوى عينين على وجه الأرض، ولكن لأنه خلصها من عكازين كانا سببا في شقائها، فالحية كانت انسانا ماردا برجلين ويدين، وعقب الخطيئة التي ارتكبتها فقدت بصرها، فاتجهت إلى الخنفس وقايضته بالرجلين واليدين مقابل العينين، فقالت الحية: « أيتها الخنفساء المقدّسة تعالي نعقد صفقة، أعطيك أرجلي ويدي، فيكون لديك منهم ستة وذراعان للاستشعار، وتعطيني أنت عينيك مقابلهما » .[1]

فاستطاعت إقناعه محتجة بكثرة أعدائها الذين يتحينون الفرص للانتقام منها، ولاسيما أنها فقدت بصرها الذي ينقذها،فوافق بعد تردد ومماطلة طويلة، فقال لها:« إنه يخشى أن يقع فريسة سهلة بين فكيها إذا تخلى لها عن عينيه،ولكنها أجابته بيقين الحية: "كيف أستطيع أن أبتلعك وأنا مقعدة كسيحة بلا رجلين؟ كيف يسقط من امتلك ستة أرجل بين فكي حبل مسكين ممد على التراب " » ،[2] فتمت المقايضة وتم الاستبدال، ومنذ ذلك الحين تتسلى الحية بالخنفس المقدس وتخيفه بفحيحها لتتمتع" « بمشاهدته وهو يركض في كل

---

1 ــ إبراهيم الكوني، المجوس، منشورات اللجنة الشعبية العامة الثقافي في والإعلام،، ليبيا، ط5، 2007ص: 470 .

2 ــ رواية السحرة، ص:193.

الاتجاهات خوفا وفزعا، ولكنها لم تفكر يوما أن تبتلعه" »[1]، لأن الامتنان منعها من ابتلاعه، أَوَليس هو من خلصها من الدنس وقربها من الأرض،فنالت الغفران والحكمة .

➢ **القنفذ:** ليس في الصحراء كلها من عرف سر الحية وأدرك شأنها الخفي مثل القنفذ، فهو مقدس لأنه استعار من الأرض سرها،فحاكى بذلك الحية، وشكل خطرا عليها، ولا يعود ذلك لموهبته القتالية وأشواكه الحادة، ولكن سبب تفوقه في أنه اكتشف اللغز،وعرف كيف يستدير ويصنع من جسمه حلقة مبهمة تعجز الأبصار عن اختراقها واكتشاف أسرارها وكنهها، ولو لم يستعر رسم الدائرة من السماء والأرض لكان مخلوقا بائسا كبقية الكائنات التي أفشت وكشفت أسرارها، فتخلت عنها الأرض ونالت اللامبالاة من السماء، فالسر يكمن في التشبه بالسماء والأرض، فالالتفاف هو من منح القنفذ سر التفوق؛ لأن «الدائرة هي التميمة، هي السلاح الذي يفتك بالعدوّ، ويكفل الخلاص لأهل السر».[2]

➢ **الضب:** رمز الخلود والمعرفة ، فهو كتر تسابق نحوه الزعماء والعقلاء، من أجل أن ينالوه ويشربوا دمه،لان دمه يعين السحرة على الاستزادة من المعرفة وطلب السحر العظيم، هو من اكتشف سر الظلمة، فاستعار منه الخلق هذه الحيلة، فاهتدوا إلى الكهوف وركنوا إليها، وفيها عرفوا سر الظلمة وغموضها، فبعد أن طارده الخلق في كل مكان هدته السماء إلى السبيل بعد أن رأت في عيونه دموع التسليم، فقد جرّب كل الحيل للاختفاء من شر الخلق وسوئهم، « إعتلى حجرا، ورفع رأسه إلى السماء، توسّل الحيلة وطلب النجاة، سقطت من عينه دمعة تسليم، وما أن أبصرت السماء دمع التسليم حتى كافأته بالإلهام، نزلت الدمعة وامتصها التراب، نزل وراءها لم يجدها، حفر بحثا عنها، حفر دون أن يعلم أنه يؤدي مشيئة الإلهام، حفرطويلا، أقام لنفسه جحرا دون أن يعلم أنه شيّد لنفسه وطن النجاة»[3]، فإلهام السماء جعل الضب يلبس التراب ويترل الأسافل، فيضيعه الخلق،وضيعوا الطريق إليه،وكان يكتفي بالخروج في مواسم الدفء ليبجل السماء ويشكرها على نعمها،

---

1 ــ رواية السحرة ، ص: 194 .

2 ــ رواية السحرة ، ص:202 .

3 ــ الرواية، ص: 182ــ 483 .

والسماء تأخذ هنا رمز الإله أو الله،« لقرينة العلوّ والسموّ،ففيها تجسّد الرجاء والأمل في استجابة الله للكائن الشقي»[1]، وبذلك دخل الضب دائرة التسليم والحكمة،«فكان أول من سن شريعة الجحور"»[2]، ولكن غروره أخرجه من الدائرة، وفقد تأييد السماء وحمايتها، بعد أن نطق بالتعويذة المدنّسة التي كانت سببا في طرده من الحرم المقدس،« إذا أسلمت رأسي للحجر، فلن يخرجني حتى المولى»[3]، القسم أصابه باللعنة، فلم يطل الأمد حتى وقع مرّة في الشرك، فأبطل السحر،وعرفت يد الانسان السبيل إليه،وانتهكت حرمه المبجل، ومنذ ذلك الحين استعادت المطاردة أصلها وسلبها، لأن بقاء السحرة ووجودهم مقرون بوجود الضب .

➢ **السنور:** من الحيوانات التي اكتست طابع القدسية؛ لأن السحرة استخدموه في عملياتهم السحرية، فكان يستخدم ترياقا لشفاء بعض الأمراض، واستخدمه "جبارين" أيضا بعد أن فتكت به الحمى، وعجز عن إيجاد الدواء في دم الحرباء، فهيأ العدّة ونصب الفخاخ، فكان طلبه مكللا بالنجاح؛ إذ استطاع أن يصطاد سنورا، ولكنه كان يحمل علامة بيضاء والناموس أوصى بالسواد التام في الكائن كي ينجح مفعول السحر، ولكنه لم يأبه" فنحر السنور في وادي الجن، أشعل نارا، وضع الرأس على الجمر،تخمر ببخار الشياط، وأكل لحم الرأس ومخّه وعينيه وأذنيه،أكل كل قطعة تعلّقت بالرأس كما قضى الناموس ."[4]

➢ **الحرباء:** هي أيضا تستعمل في السحر،و"جبارين" اصطادها قبل أن يصطاد السنور،كانت الحرباء" يغلب في حرمها اللون الأصفر، ولكن العرقوب مشطور بشريط أصفر ملتو كبدن الحية"[5] وبعد أن قام بطقوس النحر مع ميعاد الغسق، تجرع الدم في الصباح الذي ظل يتدفق طوال الليل، في حين ألقى بالرأس الى النار، وتحمم ببخاره الكريه .

---

1 ــ عمر بن قينة، "**أشكال التعبير في القصة الليبية القصيرة**،" المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، ص: 424، 93، 95 .

2 ــ روايةالسحرة ص: 483 .

3 ــ رواية السحرة ، ص: 485 .

4 ــ رواية السحرة ، ص: 613 .

5 ــ رواية السحرة ، ص: 613 .

➢ **البط البري:** هو رمز الحكمة، منه يتلقى السحرة الأسرار التي تهديهم إلى السبل التي استعصت عليهم، استعار الحكمة من الأسافل المجهولة التي استوطنها،لأنه هو ايضا أدرك سر الظلمة وما تحويه من كنوز، وهو من هدى الساحر العظيم" أكا"، بعد محاورات طويلة إلى السر الذي أبطل تميمة الخلق، "فأكا" أراد أن يسجن المعشوقة الجديدة في الكهف، كما سجن معشوقته القديمة قبلها، فبعد أن قام بطقوس الميلاد أو مراسم الخلق، جاء ساحر داهية وأفسد كل شيء، حين تبعه وسرق لحافه، فانقلب السحر ضده، وفسد كل ما حضر له.

➢ **آبيل بيل:** كثيرا ما يتردد هذا الاسم على شفاه العجائز،فهذا الطائر هو طائر البشارة، وحامل نبؤة الميلاد، هو من يقوم بتوزيع الأطفال على الأخبية حاملا إياهم على أجنحته، وقصة هذا الطائر توضح أن المجتمع الشرقي كان يجنح إلى الاساطير؛ التي شكلت جانبا حيا من تراثه الثقافي، فعجز الانسان عن إيجاد تفسير علمي لما يراه جعله ينسج قصصا خيالية تكيّفه مع واقعه وتقربه من الظواهر التي عجز عن تفسيرها"« فالأسطورة تحاول تحقيق المستحيل الذي يقصر العقل أن يصل إليه، أو يصدقه أو يسلم به"[1]، فهاجس الوجود والبحث عن الأصل دفع الانسان للتساؤل عن منبته وسبب وجود، فالتساؤل من أين جئنا،والذي"« ولد مع ميلاد أهل الصحراء، وصارلهم هاجسا يلاحقهم من صرخة الميلاد إلى ساعة الممات"»[2] اجتاح نفسية "جبارين" بوبو، وجعله هو الآخر يتساءل عن الأصل، والكيفية التي ولجوا بها هذا العالم، وعن الأغراب الذين يأتون بالأجنحة،" فمن هم الأغراب؟ وإلى أي ملة ينتمون؟ ومن أين يأتون؟وإلى أين يذهبون؟ ولماذا لا يتوقفون عن السفر، وما منفعة أن يحملوا على أكتافهم الصغار ليوزعوها على البيوت؟»[3] فكان هدف الأسطورة إعانة الانسان « على موضعة حياته داخل محيط كوني أوسع ، وتكشف لهم انتظاما كامنا فيه، وتعطيهم شعورا مضادا ومعاكسا للشواهد الباعثة على الاكتئاب

---

1 ــ عبد الملك مرتاض: "**الميثولوجيا عند العرب، دراسة لمجموعة من الأساطير والمعتقدات العربية القديمة**"، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، د ط، 1998، ص: 05 .

2 ــ رواية السحرة ، ص: 463 ــ 464 .

3 ــ رواية السحرة ، ص: 464 .

والعبث، وأن الحيلة لها قيمة ومعنى»[1] والمقطع السابق ينم عن إدراك الترقي لوجود عالم آخر مواز لعالمه ــ فمن أين يأتون ــ عبارة تكشف عن إحساس الانسان بذلك العالم اللامرئي، ورغبته الدائمة في إدراك أسراره وعوالمه الخفية، ومن هنا كان سعيه الدائم في تحسين لحظات وابتكار طقوس وشعائر تقربه من ذلك العالم،حتى تزيل حيرته وتبعث في نفسيته نوعا من الأمان، لأن« الكائنات البشرية الفانية لا يمكنها تحقيق إمكاناتها إلا بالمشاركة في تلك الحياة الإلهية»[2] .

وأسطورة الخلق أو الأصل التي ابتكرها المجتمع الترقي والتي تروي «تاريخا مقدّسا»[3] انحصرت وظيفتها في إعطاء تفسير خيالي لأصل الميلاد والخلق، فهي تخبرنا كيف صار الكائن موجودا، وقد كان آبيل ــ بيل الشخصية الرئيسة التي تقوم بهذا العمل، وهذه الأسطورة حملته سمات أسطورية ذات أبعاد رمزية تشير إلى صفات إله الخصب .

وقد تطلّبت عملية الخلق وجود طقوس يتقيد بها الرسول الذي كلف بمهمة التوصيل والتبليغ ، فقد كان الرسول يتقيد ويسري على هدى القدماء،« يطوف، يعبر، يدخل به البيوت،لا يدخل أي بيت ولا يعطي مولودا لأي امرأة، ولكنه يتمهّل، ويقوم وينتقي، يحوم حول الأخبية ليلا، كأنه مبعوث من أهل الخفاء، يتلصص في ضوء القمر، ويحترس كثيرا حتى لا يخطئ الغار فيضع الكتر في كف الجنية، يمضي في التشبه بالأسلاف الحكماء، ينتقي ، ينتقي،ربة البيت التي سيسلمها كترا»[4] فالرسول يتشبه بالأسلاف ويتريّث قبل منح العطيّة، فيختار آخر الليل ليكشف عن كتره الخفي . فهذه الأسطورة تعكس عن اعتقاد الطوارق وإيمانهم بها .

ب ــ الزمن: يعد الزمن من أهم العناصر المكونة للبناء السردي، وقد تناولته مختلف المناهج بالدراسة، الفلسفية منها والأدبية، فهو تقنية من أدق التقنيات التي تؤثر مباشرة في البنية العامة للرواية؛ «إذ يعد شريانا نابضا من شرايين القصة، فهو الذي يعطي السرد صفته

---

1 ــ كارين أومسترونغ، **"تاريخ الأسطورة"**، ترجمة: وجيه قانصو، الدار العربية لنعنوم ناشرون، ط1، 2008، بيروت. ص: 8 .

2 - رواية السحرة ، ص: 10 .

3 ــ ميرسيا إلياد، **أوجه الأسطورة**، ص: 11.

4 ــ رواية السحرة ، ص: 464 .

القصصية بفضل العلاقة الجوهرية بينهما، والمبنية أساسا على نظام دقيق يومئ بالتتابع الزمني للوحدات الحكائية »[1] ويذهب عبد الملك مرتاض إلى صعوبة تعريف الزمن، فيقول: « الزمن من الأشياء التي يستحيل تعريفها، بل من العبث محاولة ذلك»[2] بصفته ظاهرة كونية متصلة بالميتافيزيقيا، بالإضافة إلى «كونه فاعلية أساسية مطلقة لا يخرج عن سلطانها موجود »[3].

وقد كثرت النظريات والآراء التي أولت هذا العنصر اهتمامها، وعليه قسم النقاد الزمن إلى:

1 ــ زمن القصة: زمن المادة الحكائية في شكلها ما قبل الخطابي، إنه زمن أحداث القصة في علاقتها بالشخصيات والفواعل(الزمن الصرفي) .

2 ــ زمن الخطاب(السرد): وهو الزمن الذي تعطى فيه القصة زمنيتها الخاصة من خلال الخطاب في إطار العلاقة بين الراوي والمروي له " الزمن النحوي".

3 ــ زمن النص: وهو الزمن الذي يتجسّد أولا من خلال الكتابة التي يقوم بها الكاتب في لحظة زمنية مختلفة عن زمن القصة أو الخطاب، والتي من خلالها يتجسد الزمن[4].

وليس من الضروري ــ من وجهة نظر البنائية ــ أن تتطابق الأحداث في رواية ما، أو في قصة مع الترتيب الطبيعي لأحداثها كما يفترض أنها جرت بالفعل، إذ أن « زمن القصة يخضع بالضرورة للتتابع المنطقي للأحداث بينما لا يتقيّد زمن السرد بهذا التتابع المنطقي »[5].

وقد عمد إبراهيم الكوني إلى توظيف إمكانات السرد الأدبي بمختلف التقسيمات التي عرفها الزمن كالاسترجاع، القطع والتداخل، ولم يعتمد في سرده على التتابع

---

1 ــ أحمد طالب، مفهوم الزمان ودلالته في الفلسفة والأدب بين النظرية والتطبيق، دار الغرب للنشر والتوزيع،وهران، د ط، 2004، ص: 28

2 ــ عبد الملك مرتاض، الميثولوجيا عند العرب، ص: 76 .

3 ــ سليمان عشراتي، الخطاب القرآني، مقاربة توصيفية لجمالية السرد الإعجازي، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، ط3، 1998، ص: 95 .

4 ــ سعيد يقطين،انفتاح النص،النص والسياق،المركز الثقافي العربي،الدار البيضاء،ط2 ،2001.ص49.

5 ــ حميد لحميداني، بنية النص السردي، من منظور النقد الأدبي ،المركز الثقافي العربي للنشر،الدار البيضاء، ط3،2000.ص: 73 .

الكرونولوجي، وإنما عرفت مادته الحكائية تداخلا بين الأزمنة الثلاث(الماضي ، الحاضر، المستقبل)، ولكن حسبنا هنا تبيان أهمية الزمن عند المجتمع الترقي في رواية" السحرة" وما لاقاه من تقدير وإجلال عندهم، وقد تجسّد هذا الزمن أساسا في:

- **موسم الربيع:** مرّة كل حول من فصل الربيع يسمح الزعيم بدخول "آزجر" الحرم المقدس وقلب الصحراء، ويشهد هذا الموسم إقبال أعداد هائلة من القبائل استعدادا لإقامة طقوس وشعائر يوم القرعة، ويمنع انتهاك الحرم قبل هذه الموسم، لذا يأخذ هذا الوقت من السنة شكل العيد، الذي تتم فيه تدمير اللحظة الدنيوية، فالترقي يشهد فيه نوعا من التحول، ويحس بفيض من الاستقرار والتوازن الروحي، فهذا العيد هو لحظة تطهيرية تعيد وتمنح« الإنسان الأمل باستعادة غبطة البدايات »[1].

هذا الزمن أقرّه الزعيم، فهو تجل قدسي، وهو نموذج مثالي يحتدى به،وتجنبه يرمي إلى لإدخال الإنسان طقسيا في الحقيقة القدسيّة، التي ينشد فيها الانسان العيش في حضرة الآلهه« حتى وإن كانت هذه الحضرة محجوبة بستار من الخفاء بمعنى أنها غير مرئية»[2] .

هذه الموسم يحد من اللحظة العشوائية التي عاشها الإنسان من قبل، لأنه «يعيد تشكيل وبناء ما تدمّر»[3]؛ لأن« استعادة الزمن البدئي هي وحدها القادرة على ضمان التجديد الكلي للكون والحياة والجماعة»[4].

والانغماس في الزمن المقدس دوريا يسمح بتنظيم الوجود، بإضفاء الانسجام عليه،لذا يقوم المجتمع الترقي بتجنبه، وذلك بإقامة الطقوس والشعائر؛ لأنها تكفل لهم اللحظة التطهيرية، والعيش في الزمن البدئي.

---

1 ــ ميرسيا إلياد، مظاهر الأسطورة، ترجمة: بهاء خياطة، دار كنعان للدراسات والنشر، دمشق، ط1 ، 1991، ص: 8.

2 ــ ميرسيا إلياد، المقدس والدنيوي، ص: 87 .

3 ــ ميرسيا إلياد، المرجع السابق، ص: 40 .

4 ــ التمييز الذي يشير إليه ليس شبيها بما يحصل في حياتنا اليومية، كأن يتحطم مثلا وعاء من فخار لدى سقوطه من إلى الأرض، إنما هو إحالة إلى العدم بشكل متواصل، تقضيها طبيعة كل موجود يجد ذاته منخرطا في الزمان، ينظر: ميرسيا إلياد، صور ورموز، ص:

الربيع زمن متجدّد لا يفعل فعله في الطبيعة وحسب وذلك بتحرير طاقاتها الكامنة، وإنما له مفعوله ووقعه على الذات الصحراوية، هذا الزمن الطبيعي أحالنا بالضرورة على زمن نفسي، زمن مليء بالفرح والتفاؤل.

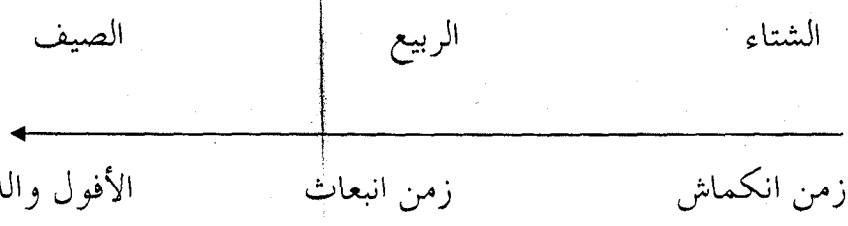

الشكل ــ 1 ــ[1]

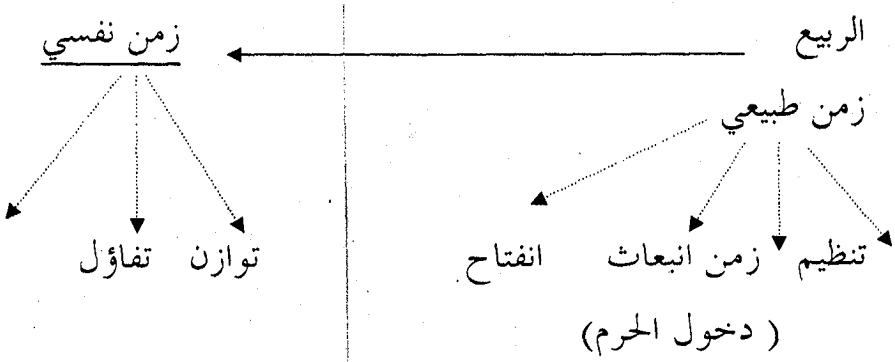

من هنا يصبح الربيع بؤرة دلالية تستقطب كل القيم الإيجابية والتي تشير إلى الانبعاث والأمل والتفاؤل، فهذا الزمن الطبيعي والذي أشبع بطابع القدسية، ليس لأنه موسم دخول الحرم وحسب، بل لأنه زمن التحرر والانطلاق، هذا الزمن أفضى إلى زمن نفسي تتوصل فيه الذات إلى اللحظة التطهيرية مما يسمح لها بتجديد وإعادة التوازن للأنا، هذه الحالة تفضي بالضرورة إلى إعادة هيكلة الوجود وتنظيمه، وذلك بتدميره رمزيا والتخلص من العشوائية التي تشوبه .

ومن هنا يصبح الربيع بؤرة دلالية تستقطب كل القيم الإيجابية والتي تشير إلى الانبعاث والأمل والتفاؤل .

- **الليل:** لقد جعل الطوارق من الليل سكنا لهم، يحفظون فيه وصايا أجدادهم، ويتدبّرون في ناموسهم،فقراءة الناموس والرقع يستدعي من القارئ أن يسترجع راهنية الزمان المقدس، ويستحضر الأحداث الأولية، لذا كان لزاما على القبائل إيجاد

1 ــ ينظر: الحسن فيلالي، جماليات الزمن في رواية"نوار اللوز" ، مجلة اللغة والأدب، العدد: 14، 1420هـ ــ 1999، ص: 163 .

وقت لإقامة هذه الشعائر،وترتيل هذه الابتهالات، وقد كان الليل أنسب وقت لتلاوة.آنهي الضائع، والتدبر في رموزه وإشاراته، والليل في الرواية يتمظهر كقيمة دلالية لها إيحاءات رمزية تجعل منه رمزا« للكتمان والمسارة والمودّة، الليل متآمر، لكن النهار خائن »[1].

لذا جعل منه الروائي بؤرة لاستقطاب دلالي يوحي بالصور التي تدل على التآلف؛ إذ يصبح هو أصل الأشياء، ففي« الليل تتحوّل الأشياء الموضوعية والحيوانات الخرساء إلى ذوات، تسترد طاقتها الظلية وتزحف فيها قوى الخفاء، فتتحوّل إلى كائنات عاقلة ذكية تريد وتسأل»[2] ضمن هذا الزخم الدلالي لليل ، والذي أشبع بروح القداسة يصبح الليل« رمز سري يتداخل بأرواح الأسلاف وسلطات الظلام»[3] فيتحول إلى مجال تتحقق فيه لحظات الكشف والرؤيا .

- **الغسق**:هذا الزمن أيضا يتحرك في الدائرة نفسها التي يتحرك فيها الليل، فنجده علامة مشهدية، تشير إلى بداية ظلمة أول الليل، أي بداية نطاق التحول، الذي تدخل الأشياء من خلاله، دائرة الأمل ثم تستعيد كنهها ووجودها الأصلي .

وقد كان السحرة يفضلون هذا الوقت للتنقل والتجوال في رحاب الصحراء، ففيه يتولد الحس بالطمأنينة والأمان، لأن الأشياء تظهر على طبيعتها من غير تكلّف أو تصنع، فتغدو هذه اللحظة رمزا إيحائيا يغيب كل الصور السلبية، وكثيرا ما استضاف" بورو" و"جبارين"، السحرة في مثل هذا الوقت؛ لأنها اللحظة التي يتلمس فيها السحرة بوابة الغيب، وينهلون من فيضها الحلول في فك الطلاسم والرموز، فقد حدث وأن أقبل على "جبارين "ساحر ليقرأ العلامة في المعزة التي اعتزلت القطيع« أقبل في عتمة المغيب، كما يلزم بكل ساحر، لم يلق بتميمة، ولم يومئ بإشارة»[4] فالسحرة وحدهم أدركوا سر العتمة، فتشبهوا بها وآثروها على الضياء والنور، وهو الوقت نفسه الذي تؤثره الجن للخروج من

---

1 ــ مالك شبل، معجم الرموز الإسلامية، شعائر، تصوّف، حضارة، دار الجيل، بيروت، ط1، 2000، ص: 284 .

2 ــ سعيد الغانمي، منحمة الحدود القصوى،النخيال الصحراوي في أدب إبراهيم الكوني،المركز الثقافي العربي ،الدار البيضاء،ط1،2000، ص: 129 .

3 ــ نفسه، ص: 132 .

4 ــ رواية السحرة ، ص: 550.

مخابئها وكهوفها لاستطلاع الصحراء ومعرفة أخبارها، وهو أنسب وقت للظفر بالفرائس، وإقامة طقوس القران وغيرها من الشعائر التي لقيت احتراما وتبجيلا عند قبائل الطوارق .

ومعظم المجالس التي كانت تعقد سواء لتدبير شئون القبيلة، أو لعقد المؤامرات كانت تقام في الليل، وقد اتخذته الرسل كمؤنس يوصلون فيه إلى الناس وصايا الزعيم وقراراته، كما أن فيه يحلو السمر، وفيه يتلذذ العشاق بالاستماع إلى الألحان أو ترتيلها في نغم شجي ، يفقد النفس شرطها ووجودها البشري،فتتملص من الزمان والمكان الفانيين، وهو أنسب وقت للسفر، فيه يلقي بالسر سر الخلود،لأن طقوس إلقاء الأجنة لا تتم إلا في آخره، بالإضافة إلى كونه يحمل طاقة كامنة استوحاها من إله وجد الطوارق، ألا وهو القمر .

- **يوم البرد:** إن الأيام في الصحراء متشابهة،لا شيء يميّزها إلا الأيام التي تسقط فيها الأمطار، وقد لقي هذا اليوم تعظيما وإجلالا كبيرين،لأن ندرة حدوثه، جعلت منه علامة يؤرخ بها السكان لأيامهم المستقبلية،فالأمطار كانت تحتجب عن الصحراء، وتستمسك بالسحب التي ضيعت الطريق إليها، فإذا حدث وأن اهتدت إلى الطريق فإنها تروي الأرض الشقية بوابل من الزخات، فإذا رأت«أن المعشوقة لم ترتو، والتراب يطلب المزيد، لفظ حجارة في بياض الثلج،وصلابة الصلد، وانهال بها على رأس الخلاء، فيحفز بالجود آثارا يتخذها أهل الصحراء تاريخا يخلدون به مسلك السماء،فيقولون في رواياتهم" عام البرد الأول، أو عام البرد الثاني، .... »[1]،هذا اليوم هو مدعاة للفرح والمسرات، هو يوم الجود الذي تغدق فيه السماء برحمتها على الأرض، التي نالها التعب والشقاء، فتشقق وجهها واعتراها الذبول والانكسار. وقد شاء القدر أن يحظى كل من" بورو" و"جبارين" و"بوشا"، بل كل سكان، "آلون" و"تارات" و"آزجر" أن يشهدوا هذا اليوم الخالد، الذي سيتخذونه علامة يقعدون عليها ويقومون أيامهم ولياليهم .
- **زمن الأسلاف:** روت الكثير من الأساطير حكمة هذا الزمن والسعادة التي سادته،إنه زمن السخاء،الذي عرفت فيه الصحراء الاعتدال والتوسط في كل شيئ،

1 ــ رواية السحرة ، ص: 747 .

وقد حاول "بورو" استعادته ولا سيما إذا استأثر بأحد المسافرين وأخذ يحدثه عنه، وكثيرا ما كان يتمنى لو أنه أدرك هذا الزمن؛ لأنه يمثل غبطة البدايات التي تنعدم فيها كل مظاهر الحرمان والبؤس، كما أنها تنم عن حنين للمجال القدسي الذي اكتنفه الصفاء والنقاء .

- **إيلوكومن:** هي علامة سيميولوجية قرأ فيها السحرة الكثير من النبؤات، « فأيلوكومن[1] لأهل السحر عيد»[2] فيه يتدبر السحرة ما يخبؤه لهم الخفاء. هذه اللحظة تسبقها مؤثرات، تحمل أنباء الجدب والسيل، تستهدف وتقف عند كل موجودات الصحراء، فتنتهك حرم السكون والصمت،لتبلغ الرسالة،"« إذا تجهم الأفق، وتلون الفراغ[3]بإيزيارن، وحقنت السماؤ وجهها بالدم، فإن الخفاء يتململ، والنبؤة لن تتأخر، فهل تفرغ طبول"إيجن"[4]لأ، القراة اقتربوا؟ أم تنحر القرابين لأن تيمسي[5] هي التي تشتعل في الأفق وتهدد القبائل بالفناء؟ أم أن العين أصابها الزمان ونالت منها الشيخوخة، فأغفلت الدنيا الشاحب الهزيل، الذي اخترق العلامة خيفة، وتمدد بين لسان النار وسيل الدم ليبشر بآنجي[6]»[7] ، إن هذه اللحظة تثير في نفس الصحراوي والساحر نوعا من الخشية والرهبة؛ لأنها محاطة بالترقب،فهي لحظة قاهرة، تتكرر دوريا، والطبيعة هي من توجهها .

- **الفجر:** وقت مقدّس، هو أفضل وقت لتشييع الضيوف وإقامة طقوس الرحيل، هذا الوقت لا يدنس ولا ينتهك بأية حركة أو وشوشة،الكل فيه يستعير حكمة الحية، التي أدركت حكمة الصمت وسرّه، فشطرت لسانها إلى نصفين حتى لا تبوح بالسر، وتقمع النفس الأمارة بالسوء،كل الكائنات الجامد منها والمتحرك أدركت سر الأوان المقدس، فهو

---

1 ــ أيكولومن: النبؤات، العلامات، الخفايا، ينظر السحرة، ص: 733 .

2 ــ رواية السحرة ، الصفحة نفسها.

3 ــ إيزيارن: الغيم الهزيل.

4 ــ إيجن: الغزو.

5 ــ تينسي: الجذب .

6 ــ آنجي: السيل.

7 ــ رواية السحرة ،ص: 733ــ 734 .

وقت الصلاة ، يكثر فيه الإصغاء والوجوم، «أسوفض يبدأ بوجوم الكهان، ... يتدثر بوشاح منسوج من ظلال الترع الخير من تلابيب الليل المقهور؛ لأن الفجر له دائما ميعاد مفضل، في هذا الأوان تنقطع الكائنات عن الكائنات... في الأوان المقدس تستسلم الكائنات في المحراب، وتسلم أمرها للحرم،...،تكتفي بالاستماع، بالتنصت للوشوشة الجليلة التي خلفها الإله قبل أن يهجر الوطن ويتركه لنجاسة الخلق»[1]، وقد اكتسى هذا الوقت طابع القدسية وتشبع بها،لأنه استمسك بتلابيب الليل المقهور، وآخر من شيع إله الطوارق ومعبودهم الأبدي، لتبدأ المأساة ببزوغ الضوء، ذلك الوميض الذي يطوّق الأشياء ويحيطها بالزيف، فيترع عنها ظلالها، وسماحتها التي أعادتها عتمة الليل، هذا الوقت هو وقت الميلاد المبجل،الذي تمتنع فيه الكائنات عن الخطاب« تكتفي بالإيماء،بالإشارة؛ لأنها تعرف أن ما خرج من الفم مثل ما طلع إلى النور، حافت به اللعنة، وطوقه السخط، وفقد سره في الأوان المقدس،فقد في النهار ظلاله. »[2] وبذلك يأخذ الفجر صفة البوابة والعتبة الفاصلة بين الحقيقة والزيف، بين المقدس والمدنس، بين المادي وغير المادي .

ــ **يوم القرعة أو يوم القربان:** زمن دائري يبدأ في كل ربيع، تقام فيه احتفالات التعبد، والقرابين التي تقدم في مثل هذا اليوم ما هي إلا علامة من علامات الخضوع والتبعيّة للزعيم، وهذه الشعائر تحقق نوعا من القطيعة في المستويات،إنه طقس يلغي الأزمنة السابقة،إذ يحقق» « انتقالا من الديمومة الدنيوية إلى الزمان المقدس الذي يتم بفعل ممارسة طقسية»[3]، فالمتعبد أو المؤمن يقوم بالتضحية بكل ما يملك في سبيل نيل الزمن المقدس، هذا اليوم هو يوم المصائر، الكل يستعد له،ويتحين شعائره، من أجل إعادة الماضي الميطيقي، وتهدف القبيلة من

وراء هذا الطقس إلى « التطهير الجمعي من الخطايا»[4] فيكون بمثابة تدمير رمزي يرجى منه بناء عالم جديد مليء بالصفاء والنقاء كما كان في لحظة البدايات .

---

1 ــ رواية السحرة ، ص: 372 .

2 ــ رواية السحرة ، ص: 373 .

3 ــ ميرسيا إلياد، "**صور ورموز**"،ترجمة :حاسيب كاسوحة،منشورات وزارة الثقافة ،دمشق ،دط، 1998، ص: 112 .

4 ــ ميرسيا إلياد، نفسه، ص: 123 .

ومن طقوس هذا اليوم يقوم كل فرد بإحضار أعواد يكون قد حضرها لمثل هذا اليوم، وهو الشيء نفسه الذي فعله "بورو"، إذ قطع أعوادا من قرينته وشذبها وحملها السر؛ حتى لا يقع عليه اختيار الرسل. يقبل الرسل ويدخلون الحرم وكلهم استعداد لاتمام الشعائر، وبعد مشاورات يجروها فيما بينهم تتعلق بشروط وقواعد الطقس، يتفرقون ليسلك كل ثلاثة منهم الشعاب صعودا، وكلما اعترضهم عراء سمح، نادوا باسم القبيلة التي عليها أن تحل بذلك الموقع، فكانت قبيلة تسيلي في من حلت في الموقع الأول، ثم قبيلة تيدرارت، وهكذا حتى استقرت كل القبائل في أماكن اختارها الرسل، بعد هذا التوزيع بدأوا في الطقوس، وقد كانت تنص قواعد القرعة على أن السحب يجرى ثلاث مرات لا غير، والعود الأخير هو من يكون عليه التضحية بكل ما يملك .

القبائل هي من كانت تحضر وسائل القرعة (العيدان)، لكن "بورو" سبق الجميع، ووضع أمام الرسل حرابا مليئا بالأعواد، فتكأكأ عليه الرسل، وخطوا جميع الأعواد ووسموها بالمدى، « انتهى الأعوان من وسم العيدان بأنصال المدى، رسموا اسم كل من امتلك في آلون بعيرا، وعصبوا عيني أحدهم بحزام جلدي عريض، معتم اللون، ثم يموا رأسه صوب الشعاب، تناطحوا من جديد، نزل الرسل عليهم برؤوسهم،برطموا بتعاويد مجهولة بلغة مجهولة له... انتهوا »[1]. وكان الرجل المعصوب هو من يقوم باختيار الأعواد، سحب العود الأول فتناقلته الأيادي حتى أوصلته إلى الرسول ذو القامة الطويلة،فصاح بالنبؤة « حصنتك السماء إذ لم تجعلك في المرتبة الأخيرة»[2]، ثم أعادوا السحب للمرة الثانية، وبنفس مراحل السحب الأول، ولكن الرسول البدين تدخل وقلب الأمر،وطلب من الأعوان استبدال الجراب،لأنه تفطن لخدعة"بورو"، فرسموا الأسماء على العيدان الجديدة، وأعادوا القرعة، « دسّ يده في الجراب، دب بأصابعه في الجوف، وأخرج العود أخيرا، العود الأخير... »[3] شيع الرسل العود، والابتسامة لا تفارق محياهم،دبّ السكون وتعلقت الأبصار بالعود الأخير،«انتظر الخلق النبأ، لم يتحرك أحد، لم يتنفس أحد، لم يومئ أحد...

1 رواية السحرة ، ص: 816.

2 ــ رواية السحرة ، ص: 817.

3 ــ رواية السحرة الرواية، ص: 818 .

الرسول الأطول قامة أيضا جمد، توقف عن التنفس، ثبت ذراعه المشيعة بأصابع يده الأخرى، فحلت في مقلتيه نداوة... ثم هوى، فتولى اللسان الأمر" بوبو"إد" دودو"... »[1] حل الصمت واعترت الدهشة الجميع، في حين أن "بورو" تمايل كالمجذوب وأطلق أنينا، بعث القشعريرة في كل من سمعه، وهكذا أتمت الطقوس وتم معرفة الأضحية، ولكن "بورو" لم يستسغ الأمر؛ لأن الرسل خالفوا الوصايا والقواعد التي تحكم هذه قرعة .

ولكن أحدا لم يبال بالأمر، واتجه الرسل إلى ناقة "بورو" ووسموها بتقاطع آخر، «فازدوجت العلامة، وحل على الناقة ختم الزعيم، نزل من الجرح دم وسال على الفخدة لزجا،متخثرا،غامضا، حتى بلغ الساق، وتساقطت قطرات على الأرض .

تقدم "جبارين" من الناقة، فغزت أنفسه رائحة الشياط، تفقد الجرح فشم رائحة خفية، رائحة الدم، أحس بالدوار، أحس بالغثيان، سقط على ركبته وبدأ يتقيأ بصوت عال... فلم يسمع الأعوان عندما وضعوا المدية على نحر الناقة»[2] ، وهكذا انتهت الطقوس بنحر الناقة وعقاب" بورو" الذي اقتحم جمع الرسل .

ج ــ الفضاء:

يعدّ الفضاء الروائي أحد الأركان المكوّنة للمسار الروائي، والفضاء شأنه شأن الزمن في الرواية«لا يكتفي بهندسته أو صورته الظاهرية فقط، بل هو يحمل الكثير من الدلالات، ويحصل على الكثير من العلاقات»[3] وقد اصطلح على هذا العنصر الكثير من التسميات، نحو الفضاء والمكان والحيّز، وقد عرّفه عبد الملك مرتاض بقوله: « غير صحيح ولا واقعي ولا شرعي؛ لأنه يدّعي الواقعية أو الأمانة الجغرافية دون أن نستطيع كينونتها، فإذا لا هو واقعي جغرافي، ولا هو خيالي، ولكنه مزيج منها جميعا »[4].

في حين ذهب الحميداني في سياق تعبيره إلى التمييز بين الفضاء والمكان، فقال: «إن الفضاء في الرواية أوسع وأشمل من المكان، إنه مجموع الأمكنة التي تقوم عليها الحركة الروائية

---

1 ــ رواية السحرة ، ص: 819 .

2 ــ رواية السحرة ، ص: 822 .

3 ــ وليد بوعديلة، رشيد بوجدرة وإنتاجية النص، ص: 83 .

4 ــ عبد الملك مرتاض، نظرية الرواية، ص: 206 .

المتمثلة في صيرورة الحكي. »[1] فالمكان بهذا المعنى يكون مكوّنا من مكوّنات الفضاء، وعليه فقد اتخذ مفهوم الفضاء أربعة أشكال هي:

ـــ الفضاء الجغرافي: وهو مقابل لمفهوم المكان، ويتولّد عن طريق الحكي ذاته، إنه الفضاء الذي يتحرك فيه الأبطال .

ـــ الفضاء النصي: وهو فضاء مكاني أيضا، غير أنه متعلّق فقط بالمكان الذي تشغله الكتابة الروائية .

ـــ الفضاء الدلالي: ويشير إلى الصورة التي تخلقها لغة الحكي، وما ينشأ عنها من بعد يرتبط بالدلالة المجازية بشكل عام .

ـــ الفضاء كمنظور: ويشير إلى الطريقة التي يستطيع الراوي الكاتب بواسطتها أن يهيمن على عالمه الحكائي بما فيه من أبطال يتحرّكون داخله »[2]

يعدّ المكان عند إبراهيم الكوني معادلا أدبيا للشخصية ، فهو حي وفاعل، لا مجال للحواجز بينهم وقد كان تركيز الروائي ينصبّ على الأماكن المفتوحة؛ لكونها تكتسب أبعادا دلالية غنية، ساعد الكاتب على توصيل رسالته، واهتمامه هذا بهذه الأماكن ارتبط برؤية وعلاقة هذه الشخصية بالمحيط الذي يعيش فيه، إذ اكتسب تقديسا؛ لأنه عالم يشيع بالحرية التي ينشدها الترقي في كل الأشياء المحيطة به، وهذه الأماكن تتمثل أساسا في:

آزجر: وطن الزعيم،وقلب الصحراء، محاط بالتقديس، لا ينتهك ولا يسمح لأحد بدخول حرمه إلا في موسم الربيع، وهذا المكان يأخذ «بعدا تحريريا جزائيا»[3] فقد اختاره الزعيم مركزا ينعم فيه على أهل الصحراء، ويسمح لهم بإقامة طقوس يوم القرعة، هذه الصفة التطهيرية؛ التي يحتشد لها كل من في الصحراء حتى ينالوا العفو والغفران، لأنهم تخلوا عن الصحراء، عن أمهم الكبرى في أصعب الظروف، فتركوها صيدا سهلا أمام الغزاة؛ الذين نهبوا ثرواتها ودنسوا ترابها .

---

1 ـــ حميد الحميداني، بنية النص السردي، ص: 63 .

2 ـــ نفسه، ص: 62 .

3 ـــ سليمان عشراتي، الخطاب القرآني، مقاربة توصيفية لجمالية السرد الإعجازي،ص168.

تحتلّ هذه المنطقة الوسط؛ أي المركز، وقد حذرت الوصايا من انتهاكها، "«احترسوا من نزول آزجر، لأن آزجر قلب الصحراء، والصحراء هي التي رأت أن يبقى المكان خاليا »[1] هذا الفضاء يشع بالنقاء والصفاء، فإذا دخله الصحراوي المثقل بالخطيئة دنسه. وقد اكتسى طابع القدسية من المركزية التي احتلها، فهو لا يعتبر مركزا للصحراء وحدها، وإنما يعد « مركزا للعالم كله، ... يتم انتماؤه بصورة طقسية، ويدركه المرء من تجلي القداسة.»[2] غير أن القبائل حاولت انتهاك الحرم عندما انقطع الرسل عنهم، فخالفوا بذلك الوصايا، ونقضوا العهد الذي تم بينهم وبين الزعيم؛ لأنهم أرادوا عيش تلك اللحظة المشبعة بالتقديس « لأن الإنسان لا يقوى على العيش إلاّفي مكان مقدس، يتمثل في المركز»[3] لأن النفوس في هذا الفضاء تعيش زمن الأنس، والإشراق القدسي .

وقد روت الأساطير أن هذا المكان كان يسهل من عملية التواصل بين السماء والأرض، فقد ذكرت السير أن الأسلاف الميطيقيون كانوا يتبدون بكل سهولة في هذا الموقع « أنت لا تعرف أيضا أن آزجر كان الوطن الوحيد الذي يتبدى فيه الأسلاف ليشاركونا الحياة، ويحملوا إلينا مع أبدانهم عطايا من أنفس الكنوز ومن الناموس...أنفاسا والأسلاف في آزجر كانوا يجيئوننا بأنفاس الواحة المفقودة في أبدانهم وفي ثيابهم »[4]، فكان الخلف يستقبلهم بولائم تثقل أبدانهم، فإذا ما غفوا استقطعوا من ثيابهم خرقا يحرقونها فيستمهعون بشذاها المسكر، كلما اشتد الحنين بهم إلى الفردوس المفقود، والخطيئة التي اقترفوها أبعدتهم عن الحرم الأول، فابتعدوا بذلك عن المستوى القدسي .

وقد حمله الروائي أبعادا بنائية وضيغا شعرية تكثف من قيمته الدلالية، فغدا مكانا ذو فعالية قوية؛ لأنه احتوى من المناظر ما أذهل الخلق ولا سيما"بورو"و"جبارين الذين انطلقا في استطلاع الأرض بمجرد وصولها « تباعدت الأسرار الجبلية، وانطلق الحد الشمالي بعيدا حتى كاد يختفي، خلّف وهادا يغذيها شجر كثيف، ومروجا يكسوها كلأ، تمددت

---

1 ــ رواية السحرة ، ص: 772 .

2 ــ ميرسيا إلياد، صور ورموز، ص: 49 .

3 ــ نفسه، ص: 76 .

4 ــ رواية السحرة ، ص: 570 ــ 571 .

المروج في صفوف متجاورة على مدى البصر، وتقاطعت بمسلك مدهش في الصحراء المتاخم للشعاب العليا، ... في جوف الدغل سطع وميض مفاجئ، اقتربا فشاهدا كيف يتطلع الغدير إلى السماء، مستعيرا ألوان السماء. حول البحيرة تكاثف الشجر لم يعرفاه إلا في الواحات، تين، نخيل، كرم، شجر صحراوي أيضا،شحر، طلح، حلفاء، وأشجار أخرى لم يعرفا لها هوية، واستغربا كيف أن الماء استطاع أن يجمع بين هذه الأجناس التي ظنوا قبلا أنها لا تجتمع على أرض واحدة »[1]؛ من خلال هذه الأبعاد البنائية يتميز المكان بالخصب والتنوع النباتي، مما جعله يضفي على النفوس نوعا من الدفء والحنين إلى استرجاع الفردوس الذي ضيعته الخطيئة والنسيان .

ــ **تارات**: من الأماكن المقدسة التي طالها التحريم، كانت المهد والوطن الأول الذي استقر فيه الزعيم عندما اعتزل القبائل « ففي شعافها السفلى اعتزل لسنوات طويلة، رآه الرعاة فيها وهو ينتقل بين المغاور، وسمعوه عندما كان يغني مواويل الحنين »[2].

كان السحرة يلجأون إلى حدودها كلما مسهم ضرر أو حلت بهم مصيبة، فيتمسحون بالجلاميد الصخرية المحيطة بها ويعتكفون عندها؛ حتى يناهم الفيض الإلهي، فتقبل عليهم الرسل محملة بالرسائل من الزعيم.

هذه الأرض عرفت باعتدالها وسخائها نظرا للسيول الجارية فيها، فقد اجتبتها السماء وحصنتها من غزو الرمال المارة، كما أنها سقتها من فيضها ورحمتها فكانت تعرف المطر من حين لآخر، وعقب موسم الأمطار التي كانت تجود بها السحب، كان الزعيم يحرم دخولها حتى لا يفسد نباتها إلا أن ناقة "خبذا" انتهكت الحرم ودنست السهل فعوقب مالكها، وسلط عليه أقصى عقاب في شريعة الطوارق"إيغايغان"؛ لأنه ارتكب جرما لا يضاهيه جرم في شريعة الصحراء أكبر من إدخال الإبل إلى المراعي في مواسم التحريم .

ــ **واو**: الفردوس المفقود والأرض الضائعة، التي أفنى الواويون حياتهم بحثا عنها، أرض الخلود، إنها تمثل ذلك « الماضي البعيد الذي يكشف عن الرغبة في في شيء مختلف يختلف

---

1 ــ رواية السحرة ، ص: 806 ــ 807 .

2 ــ رواية السحرة ، ص: 774 .

عما يوجد في اللحظة الحاضرة، إنه شيء يتعذر بلوغه »[1]، ففقدان هذه الأرض خلف فجوة عند الإنسان الترقي الذي يسعى إلى العيش في الزمن الأول الذي حوته هذه الأرض، فانتزعت منه القداسة بضياعها، فتشوه بذلك محتوى حياته الروحية واعتراها القلق والحيرة . وقد ذكرت الأساطير أنّ « واحات واو في الصحراء ثلاث: واو الكبيرة، واو الناموس، واو حريرة، واو الأخيرة واحة مفقودة لا يعثر عليها إلا التائهين الذين فقدوا الأمل في النجاة، تسقس العطشان والضائع، ولا تنقد إلا من أشرف على الموت، ويجمع أولائك المحظوظون الذين فتحت لهم أبوابها وتمتعوا فيها بالضيافة والعطايا والبهجة، أنهم لم يروا في الأحلام مدينة تفوقها جمالا أو ثراء، لم يدخلها إنس إلا وخرج منها محملا بكنز يغنيه عن الناس والحاجة إلى أن يموت، ولكنهم نبهوا أيضا إلى عدم جدور البحث عنها،فما يخرج الضيف منه أسوارها حتى تختفي »[2]هذه الأبعاد التي قدمتها أساطير الطوارق للمكان تكسبه صفة اللااستقرار، يتبدى ويختفي وأهم ما يميزه أنه مكان لا يظهر إلا للتائهين الذين أشرفوا على الهلاك، وبذلك يتخذ صفة المنقذ، ومن شروط دخول هذا المكان الوحدة والعزلة، فواو هي المكان الوحيد الذي يذهب إليه المخلوق وحيدا « فهي لا تعترف برفيق سواء كان أبا أو أمّا أو أخا أو قرينة» [3] وقد حاول والد "دودو" اصطحاب قرينه حتى تشاركه البحث عن وطن الرؤى السماوية، ولكن محاولاته باءت بالفشل، وذهبت أدراج الرياح، لأن قرينه استهواها حب الحياة القبلية،فرفضت حياة العزلة والتأمل التي تقود إلى واو .

هذا المكان يجمع بين الأبعاد الحسية والمعنوية التي تساهم في بناء معالمه السحرية، فالكثير لم يتسن لهم رؤية أو دخول أسواره، ولكن روايات من دخلوا المملكة الخفية سمحت لهم بإدراكه معنويا، وبهذا الإدراك ينتقل المكان من مستوى الإدراك الحسي إلى مستوى الإدراك الشعوري، ويتجاوز إدراكي المكان الحسي والمعنوي، يتشكل العالم الإدراكي للمكان، وبهذا التشكل يكتسب المكان بعدا جماليا»[4] هذا الإدراك سمح للترقي

---

1 ــ ميرسيا إلياد، صور ورموز، ص: 18 .

2 ــ رواية المجوس، ص: 85 .

3 ــ رواية السحرة، ص: 462 .

4 ــ أحمد مرشد، البنية والدلالة في روايات إبراهيم نصر الله ، المؤسسة العربية للدراسات و النشر،بيروت، ط1،2005، ص: 151

بمعانقة ذلك الفضاء الغامض الذي يشبه الظل ويحاكيه، لأنها «تهرب من الباحثين عنها، وتجري وراء اليائسين منها »[1] الرواية ، ص: 306 .

ـ **الصحراء**: هذا المكان هو من احتضن الحدث الروائي، وفي رحابه تموضعت بقية الأماكن التي جرت فيها الأحداث الروائية، ومن أبعاده أنه مكان عجائبي، متغير،كان الملاذ الأول للإنسان، عندما اقترف «أولى خطاياه بمخالفة أمر الله، فأقصي عن الفردوس السماوي؛ ليعيش قدره الأرضي، وهو يحمل في طبعه التوبة والانحراف،... باتت منفاه ومسكنه، ومسرح أفعاله،فيها محياه ومماته، وهي أيضا مجال تطهره »[2] ليس أمامك إلا الصحراء، إنها بلا حدود، لا أحد يعرف من أين تبدأ وأين تنتهي"[3]

وقد تميز هذا المكان بمجموعة من الخصائص أهمها الامتداد الواسع، والمناخ القاسي، ندرة أمغاره ونباتاته غير أن هذه الأشياء لم تقلل من قيمة هذا الفضاء بالنسبة لأبنائه، فقد ذهب البعض ومنهم الزعيم إلى أن واو ماهي إلا الصحراء نفسها، والغربة هي من حملته على هذه الرؤية؛ لأنه جرب الابتعاد عنها،فاعتراه الضياع،وألم به الخوف والحنين،لأن ابن الصحراء لا يستطيع أن يبتعد عن جوّها ولو للحظة، وتلك الرؤية جعلته يكتشف خبايا وأسرار الصحراء، مما جعلها قادرة على تبوؤ مكانة واو المفقودة،" «من لا يفقد الصحراء لن يحس أبدا بقيمتها... أنت لم تفتقدها، لم تحرم من رؤية القبس البكر وهو يتمرغ في أفق الفجر منا تتمرغ الحيران، ولم تحرم من رؤية الخلاء وهو يولد،تتنحى السماء عن بدن الصحراء بإعياء العشاق،...،تبهت عناقيد الأنواء... يتقدم القبس خطوة أخرى ويأتي إلى العراء أخيرا، يأتي بها من العدم ويطرحها في الفراغ الخالد الذي لم يحبأ بزمان ولا مكان، فهل في واو الضائعة نعيم ينافس هذا النعيم"»[4] هذه اللحظات وهذه الأشياء لن يدرك أحد معناها لإن لم يجرب مرارة الفراق، والوعيم ألم بهذه الحقيقة عندما ابتعد عن الصحراء، فنطق عن يقين أن الصحراء هي واو التي يبحث عنها الغافلون، بالإضافة إلى أن هذا

---

1 ـ سليمان عشراتي، الخطاب القرآني، مقاربة توصيفية جمالية السرد الإعجازي، ص: 149 .

2 ـ السابق، ص: 149 .

3 ـ المجوس، ص: 592 .

4 ـ رواية السحرة ، ص: 546 .

الوصف يحتوي على دلالات نفسية عميقة يبين فيها الراوي مدى الترابط والتآلف الذي يجمع بين الشخصية والمكان رغم قسارته، وضمن هذه الملحمة، ملحمة الحدود القصوى،تبزغ النقطة الفاصلة بين الوجود والعدم،بين الفناء والبقاء، فالعيش في رحاب الصحراء هو الوجود، أما الخروج عن فضائها فهو الفناء،وهذه النظرة احتضنها كل من عرف الصحراء وتوغل في عمقها، الرغم من أنها تحمل مدلولات سلبية تتأرجح بين الموت والقهر، فسعي الانسان وحنينه للفردوس المفقود جعله يهمل ما بين يديه« نعم! القبس المجهول أعطانا أنبل عطية، أعطانا يا مولاي واو فوق الأرض،فماذا فعلنا؟ لقد دنسنا العطية وأنكرناها، وانطلقنا كأبله البلهاء، نجري بحثا عن واو في مكان آخر ...، إذا لم تكن واو في الصحراء، فأنا....، وأجاهر بالقول أنها ليست في أي مكان »[1]. هذا المقطع يكشف أبعاد العلاقة المركبة بين الانسان والمكان *

ويجمع النقاد على أن الكوني قدم الصحراء كشخصية فجعلها «مدار المعاني الإنسانية والقضايا العامة»[2] وقام بأنسنيتها؛ إذ حملها انفعالات وأبعاد دلالية تجسدت أساسا في الشقاء، فأكبها روح الإنسان" الذي يتحرك ويحس ويفكر، ويتألم ويحزن ويتمزق»[3]، وهذا يدل على أن المكان ساهم في خلق المعنى فتحول إلى« أداة للتعبير عن موقف الأبطال من العالم »[4] فأضحت رمزا للإنسان الليبي الذي أحاط به الضياع والشقاء؛ إلا أنه لم يستسلم لوضعه الراهن، وهذا هو حال الصحراء التي ضيعت وليدها، فكان سر البلاء والشقاء الذي حل بها، وبعد أن استردته أنكر وجودها وتطاول عليها" «إن الابن لم يواجه شوقها بالنكران والبرود فحسب، ولكنه دبّ على ترابها ببدنه وحده، دبّ غريبا

---

1 ــ رواية السحرة ، ص: 545 .

* ــ فالصحراء تصبح فوق دلالتها المكانية والأسطورية إطارا تاريخيا زمانيا لاستكشاف الذات بالمعنى الخاص والعام الذي يجاوز البقعة المكانية بسكانها وتراث التوارق فيها، إلى قيمة دلالية أوسع من ذلك بكثير تمس الوجود برمته، كرومي لحسن، جماليات الصحراء في أعمال إبراهيم الكوني، حوليات جامعة بشار، ع1، 2005،ص: 16 .

2 ــ عبي عبي مصطفى، الأدب الحديث في ضوء المذاهب الأدبية والنقدية، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، ط1، 1985، ص: 130.

3 ــ نبية سيمة، في إشكالية الرواية الجزائرية الجديدة،أسئلة الحداثة في الرواية الجزائرية،، مداخلات منتقى الروايةالرابع،رابطة القلم، سطيف،دط،2006، ، ص: 208 .

4 ــ حميد لحميداني، بنية النص السردي، ص: 70 .

كئيبا حزينا، رأسه في السماء كأنه لم يعرف أمه،...كأنه لم يدرك أن هذا البدن الذي يتباهى به إنما أخذ وتكون من هذا الأديم الظامئ، من هذه الذرات العطشى»[1] فراقبته طويلا والألم يعتصر قلبها، إلى أن أدركت سره، وسبب تعلقه بالأعالي؛« ولاء المخلوق الذي يدبّ على قدمين، ليس للأسافل ولكنه للأعالي، ولاء الدمية ليس للوعاء، ولكنه للأنفاس التي تشده إلى السماء، ولاء الابن الضال ليس للأم التي عذته من جسدها، وضعته من لحمها، ولكن لأب بث فيه نار السر، وبذر فيه شرر الغموض، وبذلك فإنه ضال مرس، مرة ذاق طعم النية وفقد الطريق إلى صدر الأم، ومرة ذاق اللقمة الحرام،فطرد من الحرم »[2] حينها ادركت أن لا أمل في استيراد العطية، فتركته يجول على وجهها، واكتفت بمراقبته والـــاسف على حاله .

ـــ **الجبل**: كل انسان في الصحراء يحلم باليوم الذي ينطلق فيه إلى الجبل، فهو رمز للمعرفة، ومحراب الآلهة، وهو يشكل حلقة الوصل بين السماء والأرض، فارتفاعه حوله من مكان حسي إلى مكان مجرد، ذي طابع فلسفي صوفي، فيه يتجاوز الإنسان شرطه الوجودي"« ففوق تلك القمم العارية،يقترب من الآلهة، يتحرر من البدن، ويصبح بمقدوره أن يمدّ يده ويقطف البدر أو يجني النجوم"[3] لذا اختاره الزعيم، الأب الأكبر،مكانا يراقب منه القبائل، « لأنه يحول كل الأشياء التي تبدو على الأرض منفوشة جليلة إلى ألعاب ،المهاري تصير فئرانا، والرجال الملثمون المهيتون المنفوشون في ....، يصبحون دمى تثير الضحك»[4] ومن ثمّ يأخذ الجبل بعدا روحيا، فهو رمز للزهد والتخلي عن الكبرياء، رمز للحقيقة التي تتماهى مع ارتفاعه،«لأن قمّته معصومة من الخطأ »[5].

من هنا كان الجبل مكانا ميطيقيا يمثل الصعود إليه، « رحلة من رحلات الوجد إلى مركز العالم، وما أن يأخذ الحاج يتسلق سفحه حتى يشعر أنه هجر الحياة الأرضية ،

---

1 ـــ رواية السحرة ، ص: 283 .

2 ـــ رواية السحرة ، الصفحة نفسها.

3 ـــ رواية المجوس، ص: 09 .

4 السابق، ص: 10 .

5 ـــ نفسه ، ص: 10 .

وحقق القطيعة على مستوياتها، وعندها ينفذ إلى نقطة الطهارة»[1]، وقد حاول جبارين الارتقاء إلى هذه النقطة، فانطلق صوب الجبل عازما الوصول إلى قمته، وعلى الرغم من المسافة التي قطعها،« وجد نفسه يفصله السل نفسه، المسافة التي تراءت له لأول مرّة»[2]. وجبارين لم يختبر أسرار الحياة وأغوارها، لذا لم يستطع الوصول إلى القمة؛ لأن معرفة الحياة شرط لصعود الجبل، فالأب الذي سبقنا إلى هناك، هو الذي وضع هذا الناموس، وإذا ذهبت إليه سوف يعيدك إلى القبيلة مرة أخرى،وسيقول لك إن عليك أن تتعلم العيش قبل أن تزهد في العيش، وتحيا كما يليق بالأحياء، قبل أن تهجر الحياة»[3] صدقت نبوءة العابر الذي صادفه جبارين قبل الانطلاق إلى الجبل، "فجبارين" تهاوى كما يتهاوى الحطب في النار؛ لأن الشهوة والفضول تملكه، فحاد عن مسعاه، وصار ينشد طريقا آخر. وجبارين لم يعش دنياه كما ينبغي؛ لذا ضيع طريقه واعتراه النسيان .

فغدا الجبل «جبلا صوفيا ، قمة ليس سهلا الوصول إليها »[4] لذا كانت حكرا على الزعيم،لم يستطع غيره الوصول إليها، وجبارين فشل في طلب هذا؛ لأنّ« المادة أثقلته، وغلقت روحه، وأقعدته عن أن يطلب السمو،وألزمته الأرض »[5] وكانت تلك آخر وأول مرة يحاول فيها "جبارين" صعود الجبل .

ـ **الكهوف**:هذا المكان هو الآخر ظفر بالطابع القدسي، ونال حظه منه، فهو يمثل الثورة التي تربط العالم الدنيوي بالعالم القدسي، « ففي ميثولوجيا العديد من الثقافات التاريخية، يقوم الكهف رمزا للخلق والولادة،وهو المكان الذي صدرت الأجرام المادية، والجماعات البشرية الأولى »[6] فشكل معبرا بين المستويين القدسي والدنيوي؛ لذا اتخذه المعتزلة مقرا لهم، في رحابه وجدوا السكينة، وإليه هرب جبارين من لجج القبيلة وضوضائها، فغدا

---

1 ـ ميرسيا إلياد، صور ورموز، ص: 54 .

2 ـ رواية السحرة ،ص557.

3 ـ رواية السحرة ، ص: 673 .

4 ـ أحمد الناوي بدري، خصوصية تشكيل المكان في آثار إبراهيم الكوني الروائية، الرباعية نموذجا، مجلة فصول، ع: 62، ص: 203 .

5 ـ نفسه، ص: 203 .

6 ـ فراس السواح، مرجع سابق، ص: 151.

الكهف مشبعا بدلالات رمزية تشير إلى التأمل، فالظلمة التي تحل به، وتتماهى معه، تجعل منه مكانا يشع بالنقاء، وفي رحابه تتبين الرؤى وتنكشف الحقائق .

وكان الكهف الملاذ الأخير الذي خلد فيه الأسلاف مآثرهم،فحفظوا على جدرانه السير. وللكهف دلالات زمنية لها جذور دينية، فقصة أهل الكهف التي ذكرها القرآن الكريم، تدعم هذه الملاحظة، والمغزى منها هو« البعث من الموت»[1]، فالكهف يرمز إلى الطهر، و هو من ساعد "جبارين" على التخلص من الأوهام التي عاشها من قبل، ففيه عرف تدميرا رمزيا؛إذ استيقظ من الغفلة التي قيدته لأمد طويل، فأدرك خدع الزمان وأسرار الحياة عندما سكن ظلال الكهوف،واستقرأ ظلمتها وعرف كنهها وقدمتها التي خفت عنه؛ لأنها تمثل العودة إلى الأصول والاكتفاء التطهيري، والانطواء المادي في عالم ما تحت الأرض»[2]، فظلمة الكهف هي من أعاد لجبارين اسمه وظله، اللذين أخذتهما الحية ووانتهيط، ففي رحابه عرف جبارين ولادة جديدة .

-البحيرات والعيون(عين ترس) :هي كل ما تبقى من الواحة العظيمة* التي أبادتها الذرة الصفراء بعد أن استفحلت وجرت في مواقع مختلفة من المحيط الدائري ، وهي الدليل على المجد الضائع والزائل.هذه الأماكن أحاطتها السماء بنوع من الحماية، وهذه البحيرات والينابيع شكلت مجالا خصبا للاستقرار،" فعلى إثرها قامت الواحات واستوطنها المهاجرون الذين توقفوا عن الترحال، فعرفوا فيها الاستقرار وأطلقوا عليها:" تارجا" ومن نماذج تلك العيون: عين ترس، الذي ارتادها الكثير من العابرين، فكانت طوق النجاة لكل من ألم به ظمأ في الصحراء، ويقال إن الضربة التي فجرتها، كانت من نصيب مغامر شرير جاء بحثا عن كنوز الهباء الممسوس .

ـــ مواقع الآبار: تدحل ضمن دائرة المقدس التي أولاها أهل المنطقة اهتماما كبيرا، فالبئر يحضر بالتقديس؛ لأنه طوق النجاة وسلاح القبيلة في أرض كساها الجذب والفقر، وغزتها رياح القبلي، وهو يمثل الممر السري لحياة البرزخ، فمنه عبر "بورو" إلى أرض الظلمات التي قدم فيها القربان .

---

1 ـــ حسين خمري، فضاء المتخيل، مقاربات في الرواية، منشورات الاختلاف، الجزائر، ط1، 2002، ص: 159 .

2 ـــ مالك شبل، معجم الرموز الإسلامية، ص: 272 .

هذا السلاح أخفاه أهل الصحراء بحرص أكثر من حرصهم على إخفاء الكنوز المعدنية، لأنها حوت أكبر وأنفس كنز في الصحراء، حوت سر الحياة، وكان إذا ما عثر على موقع جديد لبئر أو لنبع، فإن الفرح يعم تخوم الصحراء وأرجائها، وقد حدث وأن وجد "جبارين "بئرا عندما تلقف الإشارة من فم "بورو"، وانطلق للبحث عن العطية، متناسيا قرينه؛ « لأن من تلقف رقعة الكنز لا ينتظر رفيقا، ولا يعترف بأخ ولا أب، ولا أم، من لختطف رقعة الكنز لا يملك إلا أن ينطلق...فلا مكان لانتظار، ولا لصلة رحم، ولا لعلاقة قران في ناموس الكنوز»[1].

اهتدى "جبارين" إلى الموقع بإشارة من "بورو"، عندما تملكته حالة الوجد، قطع سبع خطوات إلى حيث تشرق الشمس، ثم صعد إلى أعلى ثلاث خطوات أخرى؛ ليجد بئرا تحت لوح أبيض،« تناول حجرا ألقى به في الهاوية، تنصت ، حبس الأنفس، أشار لقرينه أن يتوقف عن معاندة أكوام التراب، فتنصت بورو أيضا، تنصتت الصحراء، تنصتت الكائنات، القبائل...تنصتت قبائل الجن أيضا،تنصتت كل الأنعام، تنصت الزمان بجلالته،...بلغ الحجر الوطن الأخير، ارتدت الإشارة، هاجرت لتقطع نفس المسافة، لتجتاز نفس الحدود،... قطعت الإشارة المشوار، انهت سفر الخروج، فسمعت الأرض، سمعت السماء، الثرثرة، التمتمة، التميمة... »[2].

هذا المقطع ينم عن أهمية البئر، وبذلك أهمية الماء في الصحراء،فالراوي صوّر وبالعرض البطيء كيف عانق الحجر الماء،هذه اللحظة الشاعرية التي انتظرها كل الكائنات واستمتعت بالإصغاء إليها، فشاركت بأحاسيسها طقوس القران، انتشر الخبر وعمت البشارة، فهذه اللحظات مقدسة؛ لأنها تعلم أن العثور على بئر في الصحراء هو بداية لنهاية مأساوية للجذب والقبلي.

ـــ **وانتمغارت:** هو موقع لبئر،أحكم الجن السيطرة عليه، بعد مشادة وقعت بينهم وبين البشر،فكان هذا الأخير نصيب الجن، وهو نبع دائم الجريان لا ينضب ماؤه، يقع في مملكة أغرم نودادن، لا يستطيع المسافر إدراك"آزجر" دون اللجوء إليه والتزود بمائه العذب، هذه

---

1 ـــ رواية السحرة ، ص: 436 .

2 ـــ رواية السحرة ، ص: 442 ـــ 443 .

المنطقة محفوفة بالأخطار، تغزوها المتاهات والأعاصير، وتستوطنها الجن التي دأبت على إخفائه وتضليل المسافرين الذين يرتادونه بإثارة الزوابع في وجوههم، وهو ما حصل لجبارين عندما أحاطت به الزوابع حتى كادت أن تدفنه حيّا لولا العابر الذي ظهر فجأة وأنقذه من هلاك محتّم .

وقد كان للجنية العجوز الفضل في معرفة الطريق إليه،فبعد أن هجرتها قبيلة الجن وتنكر لها أولادها، قام أحد العابرين باحتضانها، فأطعمها وأواها وسقاها، وكردّ للجميل حدّثته عن البئر الذي استولت عليه قبائل الجن، فقالت،« هو نبع لا ينضب له سلسبيل؛ لأنه يستعير ينبوعه من البحيرة الغظمى؛ التي خلقت من العدم » [1] فسر الخلق بالخبر وابتهج أهل الخلاء بالعطية التي ستكفل لهم الوصول إلى" آزجر"، وسمّوه: وانتمغارت تيمنا بالجنية العجوز .

ــ **الدمن:** مكان تجري فيه الطقوس يوم الميعاد، فعقب المشاورات التي يقوم بها الرسل، وبعد تفحص الأرض يتخذون الدمن مستقرا لإقامة الشعائر، وهي تتخذ شكل الأنصاب التي توضع عليها القدور،هذه الأنصاب هي ثلاث، يختارها الرسل موقعا لهم يتربعون عليها، ليبدأوا مراسم اليوم المعلوم .

ــ **المجلس:** مكان مغلق، إلا أنه يحمل قيمة إيجابية، يجتمع فيه كبار القبيلة وزعماؤها، وسحرتها لإعداد الخطط وتدبير المكائد وقراءة النبؤات، هذا المكان له من القدسية ما تمنع عنه الصغار والنساء،فلا يسمح لهم بالاقتراب منه، وكل ما يتقرر في هذا المجلس يصبح قيد العمل والتنفيذ؛ لأن ناموسهم الضائع علمهم« ألا شيء يستقيم دون تدبير، بدون إعداد، بدون شورى، بدون خطة » [2]. والمجلس حوى كل هذه الوظائف .

أهم ما يمكن أن نخلص إليه، أن المكان مثل بؤرة دلالية، استقطبت رموزا عديدة تراوحت بين المعرفة والطهر والعلم، فاكتسب أهمية كبرى أثرت على جميع الشخصيات التي جالت في رحابه، وقد خرج المكان من مجرد كونه مكان محسوس إلى مكان يتمتع بأبعاد فلسفية صوفية، تشير إلى هوية ساكنيه وبنياتهم الفكرية والاجتماعية .

---

1 ــ رواية السحرة ،ص: 853 .

2 ــ رواية السحرة ، ص: 351 .

لقد دأب الطوارق على هذا التقليد، فلا يسمحون لأي كان برؤية وجوههم حتى الأقارب منهم،فالمشي بدون لثام يعد عارا وانتهاكا للقانون المقدس. اللثام يغطي تلك الخطيئة التي طردت آدم من الجنة، بعدما استصاغ اللقمة الحرام؛ التي حولت جسده إلى شكوة من الشهوات والملذات، « في تلك اللحظة... تطاول في النحل، ولملم الليف نسج منه لثاما حول فمه الكريه »[1]، ومنذ ذلك الحين أصبح اللثام لزاما على كل الطوارق،وكل من تخلى عنه تعرض لهجاء الشاعرات. اللثام يحمل دلالة رمزية: «تشي بأن الكثير من المشكلات الإنسانية سببها الفم، والدليل على ذلك خروج آدم أبو البشرية من الجنة اللقمة الحرام؟ وهناك دلالة متوارية خلف اللثام، تتمثل في أن عودة الرجل الحقيقة هي اللسان بوصفه مصدرا لكل الشرور والآلام . »[2].

ــ **الرقع(آهي الضائع)**: إن الصحراء سنت لأبنائها قوانين تحكمهم وتنظم العلاقات فيما بينهم وتوجه سبيلهم، أغلب هذه الوصايا كانت محفورة في قلوب الحجارة والجلاميد الصخرية، واصطلح عليها بآهي الضائع .

تاريخ هذه الرقع مجهول؛ إلا أنها لقيت إجلالا كبيرا، فقد علقت في الصدور، وعلى الرقاب؛ لأنها تدرأ الشر وتبعده، وتحفظ حاملها من الجن وأهل السوء، والسحرة هم من أدرك سرها،فصاروا دعاة لها فاستعانوا بها « وردعوا بها أهل الضلال، وأرهبوا أعداءهم من القبائل الأخرى،وقاوموا بسحرها كثيرا من الأشرار، وعندما أيقن السحرة خيرها...رأوا أن يحفظوها من التزييف والتلف، فأمروا بنقل النصوص من رقع الجلود إلى صلد الصخور، فدونوها على جدران المخابئ والمغور زالكهوف . »[3].

وتلاوة آهي والتدبر في قيمه ليس عبثا ولا لهوا،إنما كان لها أثرها على من يرتلها، وعلى من يستمع إليها، فبواسطتها استرجعت راهنية الزمن المقدس، فبمجرد تلاوة الرواية «كان يتم محو الزمان الدنيوي بصورة رمزية على الأقل، وكان يجري إسقاط كل من

---

1 ــ رواية السحرة ، ص: 570 ــ 571 .

2 ــ المجوس، ص: 589 .

3 ــ كرومي لحسن، جماليات الصحراء في أعمال إبراهيم الكوني، حوليات جامعة بشار، ع1، 2005، ص: 20.

الرواية والمستمعين في زمان مقدس »[1] هذا الخروج والتدمير الرمزي للزمن الدنيوي« حصل بفعل القراء »[2] جعل الإنسان يخرج من شرطه البشري، وتلاوة الرقع تعمل بصورة دورية « على هدم الجدران التي تقدمها أوهام المرء عن الوجود الدنيوي؛ لأنها تسترجع راهنية الزمن الكبير استرجاعا مستمرا"»[3].

هذه الرقع مثلتها ثلاث مجموعات:

ــ جاءت المجموعة الأولى لتدل على الآبار « فأنقذت خلقا كبيرا من الظمإ، فتناقلت سيرتها الملاحم، وتنافست شاعرات القبائل في التغني بالهبة السماوية، ...على الصخور، وحفرت في قطع الصلد، وحملها العابرون كتائم، ودسوها في بقاع شتى،فانتشرت في الصحراء . »[4].

ــ أما الرقعة الثانية فحملت الوصايا الزاجرة والناهية عن الأعمال المكروهة، ودعت إلى خصال جرى بها الخفاء هذه الرقع، حملت ناموس الحياة.

ــ أما الصنف الثالث من الرقع فهو من جلب البلاء إلى الصحراء، فعمت الفوضى والضوضاء، ويرجع سبب ذلك إلى أن هذه الرقع وقعت في أيادي الجهل، فشابها التزوير واعتراها التحريف، فسوء التأويل قلب قيمتها الإيجابية إلى دلالة سلبية، ولكن العقلاء تداركوا الأمر وتفطنوا للخطإ، بعد أن ظنوا أن الجن اختطفوا الرقع الأصلية، رغبة في احتكار الحكمة لأنفسهم ولنسلهم ولكن السر كان في عدم فهم الوصية؛ لأنهم نسوا لغة التخاطب، فقلبوا رموز الرقع وعكسوا علاماتها .

هذا الصنف روج للذهب، « فأشارت في رموز أخرى، أكثر غموضا من كل الرموز، إلى معدن له مسلك الغبار شكلا، وله سلطان الجن سطوة،أطلق عليه فيما بعد: البتر »[5] ،هذه الرقع جاءت بقدر غير القدر الذي أراده وانتهيط للبشر،إذ جعل منه فخا، أراد به اصطياد والإيقاع بالمخلوق التائه(الخير)، فقلب بذلك الخير إلى شر، و جعل من حبات

---

1 ــ مرسيا إلياد، صور ورموز، ص: 76 .

2 ــ ينظر : ميرسيا ا إلياد، مظاهر الأسطورة، ص: 179 .

3 ــ ميرسيا إلياد، صور ورموز، ص: 79 .

4 ــ رواية السحرة، ص: 652 .

5 ــ رواية السحرة ، ص: 652.

الهباء الأصفر الفاني، قرينا للخير،فتسابق الخلق وراءه، وانبهروا ببريقه المزيف، فحلت الكوارث بالأرض، وسفكت الدماء من أجل نيله،" وأنزل على الأرض ما لم تره عين و لم تسمع به أذن" و لم يخطر ببال مخلوق، فلام أهل الصحراء أنفسهم على هذا ؛ لأنهم أخطأوا أول الأمر في تفسير الرموز.

إضافة إلى هذا، فقد كانت الرقع وسيلة الزعيم في التواصل مع رعاياه عندما اعتزل الناس واستوطن الشعاب العليا، وحتى هذه الأخيرة لم تسلم من الرموز بعد أن زور وانتهيط ختمها، وقلب فيها الوصايا، فاستغنى عنها الزعيم وعوّضها بالرسل .

ـــ **التمائم**: عمد الناس إلى مداواة الأوبئة والأمراض بأدوية وأعشاب طبيعية، لكن بعض هذه الأوبئة استفحل و لم تنفع فيه العقاقير، فتفطن الناس إلى التمائم والتعاويذ لأن هذا المرض«كان في اعتقاد القبائل البدائية شيطانا يعتري الجسد،يريد أن يفتك به»[1]، والتعاويذ هي عبارة عن «كلمات سحرية استطاعت أن ترهب قبائل الجن والخفاء، وتكف شر الأرواح الشريرة، التي يعتقد أنها كانت وراء الأمراض التي استقصت على السحرة، وقد كان الترقي يتلو" كلمات القوة »[2] في كل حين، فجعلوا منها حصنا تقيهم غارات الجن وشقاوتها، وحفظت هذه التمائم في جلود مربعة أومثلثة الشكل، وعلقت على الصدور والرقاب .

بدون هذه التمائم لا يتم أي رباط، وبغيرها لا يلتئم شمل المخلوقات، فحتى الوليد الذي فتح عينيه حديثا على الدنيا تقوم أمه بربط هذه التعاويذ على بدنه، مخافة أن يستبدل من طرف الجن،لأن في غيابها يفسد كل شيء. وكانت هذه التعاويذ سببا في قوة وانتكرباست(صاحب القميص) الذي أرهب القبائل، وشتت شملها، كانت تمنحه القوة، فهو لا يغمض له جفن إلا والتعويذة المقدسة ترافقه، ويقال إنها كانت السبب في تجديد نشاطه وحيويته .

وبالتمائم كان الناس يستنطقون الجلاد، فالمهاجر لا ينطلق في سفره إلا إذا أعدّ عقالا متينا من التمائم والغرائم والطلاسم؛ إذا شاء ألا يفتك به الجلاد في منتصف الطريق،

---

[1] -عادل الألوسي،الإنسان والعبقرية،الموت والعبقرية، دار الفكر العربي، القاهرة، ط 01، 2003،ص:15.

2 ـــ واليس بيدج، السحر في مصر، ترجمة:عبد الهادي عبد الرحمن ،دار سينا للنشر،القاهرة،ط1، 1998، ص: 183 .

وقد اعتقد أهل الصحراء أن المسافر الذي يكتفي بالتمائم ليروض الجلاد هو أكثر الفئات شجاعة؛ لأنهم قهروا الشمس بهذه الترنيمة المقدسة .

ـــ **التراب**: مقدس، والتواضع والتسليم هما من رفعاه و أكسباه القداسة، فكل من تشبه بالتراب نال رضى السماء وكان في قوة التراب. هذا السر، اكتشفته الحية وحدها، في حين ضيعه بنو آدم، فغفلوا عنه وداسوه بأقدامهم، « ولم يخطر لهم على بال أن يسألوا لماذا يعود كل شيء إلى التراب بما في ذلك أنفسهم، لم يدركوا أنه الأقوى لأنه الأضعف... »[1] فتواضع التراب قهر الأشياء في عظمتها، فكان ملاذ الحية وحصنها المبجل الذي حفظها من أنفاس الانسان الكريمة، التراب تخلى عن الكبرياء، وكل من تشبه به نال الحكمة والتسليم الذي يرفع إلى الأعالي؛ لأن « من نام أسفل الجميع وساوى نفسه بالتراب نال تلك القوى الخفية التي لا يملكها إلا التراب إذ نال تسليما يحيل كل شيء إلى تراب . »[2] وهذا السر وقفت عليه الحية وأدركته الجن في عظمتها .

ويأخذ التراب رمز الأمان والحماية، فهو يطرد الشؤم والسوء، وكثيرا ما كان "بورو" و"جبارين" يدسان يديهما في التراب،إذا سمعا أو شاهدا ما ينبئ بالسوء،فجبارين دس يده فيه « طردا للشؤم؛دس كلتا يديه في التراب، وانطلقت شفتاه تتمتمان بالتمائم »[3] لأنه عرف أن نبؤة الأسلاف سوف تتحقق؛ لأن صاحب القطيع تطاول على الناموس وتجاسر عليه، فأطلق ضحكة مدوية وصوتا كريها يشبه فحيح الحية، فخرق بذلك مبدأ الوقار الذي تمتع به الزعماء، وهو متوارث منذ القدم .

ـــ **أيمسكي**: هو نصب يدل على الطريق، والصحراء معروفة بتيهها وصعوبة مسالكها، وكثرة رمالها المتحركة؛ فكان يصعب على القوافل والمسافرين التنقل بها دون دليل يوجه سيرهم ويرشدهم إلى الطرقات، فاهتدى أهل الصحراء إلى إيمسكين، وهو نصب يومئ إلى الطريق والآبار، فيسهل من مهمة المسافرين؛ فهو يقف « علامة في باب الحرم، يحاكي

---

1 ـــ رواية السحرة ، ص: 191 .

2 ـــ رواية السحرة ، ص: 709 .

3 - رواية السحرة ، ص:573

الحية فيقف عساسا على الكتر »[1] وهذا ما أكسبه قداسة عند الطوارق وغيرهم؛ لأنه لا يجعلهم دمى يسيرها السراب بتلاعبه كيفما شاء .

ــ **الحجر الأسود**:يأخذ الحجر رمز الكتمان والصبر، وهذا سر قدسيته،فالسحرة والأسلاف اختبروا كل الموجودات التي في الصحراء ليحملوها شرائعها وسننهم، ولكن لم يجدوا من هو أفضل من الحجر للقيام بهذه المهمة « اِطبعوا رموزكم، وهاتوا وصاياكم، فأنا من عرف كيف يتحدى الشرائع ويقهر الزمان؛ لأ، في بدني عرقا من سر الزمان »[2]، الحجر هو ذاكرة القبائل وحافظ تراثها، هو وحده من قهر سطوة الزمن المبلي، فحمل لواء المسئولية، فتح قلبه للسحرة،فتلقف منهم الشرائع، وحفظها عن ظهر قلب، وأخفاها بكل أمان، لينقلها إلى الأجيال اليائسة،قاتل الأيام وخادع الدهر، ورفض البوح بالسر وخيانة العهد، واستطاع هزم النفس، وتقوقع على ذاته. ويأخذ الحجر رمز الهوية الضائعة، فما دام الحجر باق، «فإن الأصل لن يضيع والصحراوي لن يفقد الهوية." »[3] لأنه قهر الشمس وتحدى الرياح، ووجد الشجاعة لكي يبتدع من بدنه حصنا حفظ مآثر الأجداد .

وقد قام الإنسان يحفر اسمه على الصخور؛ لأنه البرهان الوحيد حتى يثبت به للأجيال أنه عاش يوما « إن الإنسان يقدر أن يقهر الموت،إذا حفر اسمه على الجدار الصحراوي، أو سطر حكمة بجوار قطعان الودان، مقدما بذلك برهانا يبث به للأجيال أنه عاش يوما »[4].

والأسلاف هم من أدركوا سر الحجارة،فأوصوا خلفهم بالحجارة السوداء حتى يشيدوا بها قبورهم، فهم لا يرقدون إلا تحت الحجارة التي تخبئ في جوفها النار؛ لأنهم يتشبهون بها، فهي لا تكشف أسرارها وإنما تحفظها في جوفها وتتقوقع عليها. إن الأسلاف عظموا الحجر، فكان سرا لم يكشفوه لغيرهم،لكن بلاهة أبنائهم ضيعته،« ماذا ترون في الحجر غير سلاح تقتلون به، أو رحى ترحون بها، أوماعونا تأكلون فيه...؟ ولكن اعلموا أيها البلهاء،...ما لم تدركوه في الحجارة أدركه آباؤكم، والنار التي وجدوها في حجارة

---

1 ــ رواية السحرة ، ص: 465 .

2 ــ رواية السحرة ، ص: 180 ــ 181.

3 ــ رواية السحرة ، ص: 182.

4 ــ رواية السحرة ، ص: 109.

الجبل الأزرق هي سر واحد من ألف سر يتخبأ في الصلد »[1]. فأكدوا من خلاله حضورهم على مدى التاريخ، وأبادوا الزوال وقهروه.

ـ **الحجر المشع:** آثرت القبائل الحجارة السوداء والميتة، التي منحت وميضها للسماء وفضلتها على الحجارة المشعة،لأن الحجر الأسود حصن من الجان، وقد جاءت تعاليم آلهي لتحذر من امتلاك أي جرم أرضي يدفع بوميضه إلى الخارج، هذا المبدأ لم يمس المعادن وحدها، وإنما انطبق على الحجارة أيضا،فقدّسوا الحجارة الميتة عملا بالوصية: « إن الحجر الوحيد الذي يصلح تميمة هو الحجر الأخرس لأنه كالقنفذ يحمي الجوهر بالانكفاء على نفسه، ولا يتباهى كالأكابر فيبدد الوميض في الخلاء »[2] فالحجر الأسود حكيم لأنه" يسدل لثامه غلى وجهه ويتحجب بقناع الفتنة والكآبة والخفاء"[3] و الحجارة المشعة ملعونة في عرف القبائل؛ لأنها جوفاء تفضح سرها، وتشتت بهاءها في الفضاء،على عكس الحجارة السوداء التي نالت العلا، وتواضعت فارتفعت وفازت بالتقديس، وهذا ما يفسر اختيار القدماء للحجارة السوداء حتى ترافقهم إلى مثواهم الأخير؛ لأنها تتوه الخلق عن كنوزها،" فالأحجار التي تطلق وميضا « سمنها الجن كما يسكنون البئر »[4]

إلا أن السير تحدثت عن حجر مشع، حمل شريعة الضد في جوفه، ففي القصة التي روتها العجوز الحكيمة مدلل ومكرم، سعى في طلبه دهاة السحرة، وكبار الحكماء،« يستطيع أن يحول الأشياء ويمسخ الكائنات، يخفي ما ظهر، ويظهر ما بطن »[5].

"بورو" وجد هذا الحجر،« كان الحجر ممتلئا بهيجا، في حجم يملأ كف اليد، في جوفه تتلامع ألوان وهاجة، ولكنها مخنوقة بعتمة غامضة »[6] فعلى الرغم من اشتداد قبضة "دودو" حوله ألوانه اخترقت الحاجز للتتدفق في الفضاء، ولكن خوف الصحراويين من الوميض جعلهم يحثون" دودو" على رمي الحجر والتخلص منه؛ لأن بريق الأشياء يجعلها تحمل

---

1 ـ رواية السحرة ، ص: 469.

2 ـ رواية السحرة ، ص: 222 .

3 ـ رواية السحرة ، ص. 222.

4 ـ رواية السحرة ، الصفحة نفسها.

5 - رواية السحرة ، ص: 223.

6 ـ رواية السحرة ، ص: 220.

الزيف، وتجر الهلاك على من يحتفظ بها، فلم يقفوا على سر الزمن، و لم يدركوا أن الأشياء المجهولة تتسم بغرابة في الطباع، وتقلب في المزاج،فالفاسد قد يصبح فاضلا مع مرور الزمن، وهذا المسلك مس الحجر فتحول الشعاع والوميض فيه إلى ميزة للحكمة، وذلك «ليضلل الباحثين عن الكنوز الظلماء، فالحجر استعاد وميضه ليغدي سره، وهذا هو حال الكنوز التي تؤثر التلاعب فتستعير حيلة القنفذ وحكمة الحية، فتطلق العنان لشعاعها دون أن تمكن الخلاء من سرقته" فاعلم أن تذبذب المسلك، وتقلب المزاج، وغرابة الطبع، خصال في الحجر الكريم »[1] والسحرة هم وحدهم من فهموا وأدركوا سر الحجر، فبعد أن رمى دودو الحجر، ظهر ساحر أفنى حياته في طلب هذا النوع من الحجارة،لأنها المفاتيح التي تقود إلى واو الفردوس المفقود، ولكنه وصل متأخرا لأن الفتى تخلص من الحجر، وكثيرا ما حاول هذا الساحر معرفة مكانه من دودو، لكن محاولاته باءت بالفشل؛ لأن الشيء إذا ضاع مرة فلن تجد له طريقا للعودة، فاكتفى بتحديث القبيلة عن خصال هذا الحجر وميزاته، فقامت القبيلة بتعذيب دودو ظنا منها أنه يخفيه، ولكنهم فقدوا الحجر وفقدوا السحر معه .

ـ **عظام الذبائح:** من الأشياء التي نالها التقديس، ساعدت السحرة على قراءة النبؤات، هي عبارة عن« ألواح تقرأ فيها النبؤات »[2]، وقد اشتهر السحرة بقراءة الغيب في هذه الألواح، فلم يقرأوا في غيرها الأنباء، وكان منهم ساحر عرف بنهمه وقرمه للحم، ولكن عرف بصدق القراءة، فقراءته لم تخفق يوما، فكان لا يقرأ في غيرها النبؤات ولو كان ذلك على حساب القطيع بأكمله؛ لأنه كان يقول أن النبأ الذي لا يقرأ في العظام هو نبأ كاذب، فذاع صيته، واشتهر بصدق النبأ،حتى أنه قرأ ميعاده في عظام معزاة كان يتعيش على حليبها، ومن النبؤات التي صدقت أنه حذر الزعيم من دخول الأغراب إلى النجع، لأن تلك اللحظة ستكون آخر يوم في حياته.وأخبار السيول أيضا قرئت في عظمة كتف، قرأها الساحر الغريب الذي حل ضيفا على" بورو" و"جبارين" في إحدى الليالي، فأكد فيها أنباء جريان السيول، ولكنه لم يتمم النبؤة، فأثار هذا استياء "بورو"، الذي أراد الاحتفاظ بها ليقرأها له ساحر آخر و يتم النبؤة، لكن الساحر انتهره ورمى بها في النار .

---

1 ـ رواية السحرة ، ص: 229 ـ 230.

2 ـ رواية السحرة . ص: 70.

ـــ **عظام الأجداد:** من أعراف القبائل الصحراوية أنها عندما يبلغ صبي ما سنا معينة، فإنه يقوم باختبار تطابق عظام الأسلاف مع دمه،حتى يتأكد من النسب، و"بورو" كغيره من الأطفال طلبت منه الساحرة البحث عن عظم يتشرب دمه،فكان على" بورو" الذي قضى حياته بحثا عن أبيه المفقود إلا الامتثال للطلب، وبعد مسيرة طويلة وجد العظم الذي امتص دمه، فأعاد إليه الاطمئنان ومنحه الحماية.

ـــ **النطرون:** إن النطرون أيضا حجر مقدس اكتسب القداسة من شكله المستدير، ومن العتمة التي تغطي بدنه،فضله الصحراويون على الملح،دخل في عدة استعمالات، كان يستخدم في المقايضة، وهو ترياق فعال ضد السحر،يصنع منه العقاقير لمداواة أمراض العشق والتعلق بالنساء المجهولات،« يمضغه السحرة مع تابا أو غيرها من الأعشاب، ويشربونه مخلوطا بالماء، فيغسل الأمعاء من الأظافر المميتة،... »[1]، هذا الحجر نبيل ويكمن نبله في اعتماد الأوائل عليه،فكانوا يستخرجونه من مدافن مجهولة،واستخدمه السحرة في « غسل الأموات،ليبقي على الجسد معافى في عودته من المنفى، ويحميه من الديدان والحياة والزمان. »[2] فهذا الحجر رمز للتجدد، وكان الحكماء أكثر استعمالا له .

ـــ **العدد ثلاثة:** تكرر هذا العدد واستعمل كثيرا من طرف الشخصيات الروائية، وهذا يدل على تقديس الطوارق له،فالدمن التي جلس عليها الرسل كانت ثلاث، و النداء تكرر ثلاث مرات، والاشارة المقدسة تحوي ثلاثة الأضلاع. هذا العدد هو رمز« للفأل والحظ الحسن »[3] وهو يمثل عند المسلمين ثالوثا« تتحد فيه السماء والأرض والإنسان»[4] بالإضافة إلى قدرته على جمع الضدين في جوفه،إذ يجمع بين القدسي والدنيوي،فقدسيته تكمن وتشير إلى « الطمأنينة والسكينة، ويرمز إلى البركة(رمز الآلهت تانيت) كما أنه دليل على الحماعة والصواب، والموافقة الربانية، أما دنيويته فتشير إلى الشرك والغواية، وارتكاب الخطيئة(...) واستخدم أيضا في الدعاء بالسوء »[5] .

---

1 ـــ رواية السحرة ، ص: 389 .

2 ـــ رواية السحرة ، ص. ن.

3 ـــ خان.م.صدق. معجم الأعداد: رموز ودلالات، مكتبة لبنان ناشرون، لبنان، ط1 ، 1994، ص: 77.

4 ـــ المرجع نفسه ، ص: 91 .

5 ـــ ماحي عبد اللطيف، رمزية العدد في الفكر الشعبي بين المقدس والمدنس، مجلة انثروبولوجية الأديان. ص: 198.

ـــ **تفتست:** هي نوع من الحبر،خلد به الأسلاف مآثرهم على الصخور،قهر الزمان وأرضخ مزاج الصحراء المتقلب، نادر الوجود، كان الأوائل يهيمون أياما وشهورا بحثا عنه، فإذا ما عثروا عليه أقاموا طقوس الفرح والتمجيد، ورقصوا حتى الثمالة؛ لأنه كان السبيل الوحيد في عقد القران وتخليد الأمجاد .

وقد استخدمه الساحر العظيم" أكّا" في طقوس الميلاد، عندما تعشق الحسان، فقام بسجنهم على الصخور، فقد رسم معشوقته "تادمورت" بهذا الحبر، وخلطه بدمه وحليب النوق حتى تنجح طقوس الميلاد .

ـــ **الدائرة:** الطوق المبهم،الذي حمل أسرار الوجود والكون، فانكفأ على نفسه بحكمة ارتضتها له السماء، فمنحته بهاءها وسر تفوقها؛ لأنه حاكى الأرض والسماء، هذا الطوق أدركت سره الحية، والقنفذ والسحرة العظام تشبهوا به، إضافة إلى هذا فإن الدائرة تحاكي الزمن الدوري، فهو ينطلق من نقطة ليعاود الانطلاق منها .

والدائرة هي من حصنت "بورو وجبارين" من كل الحيوانات التي استهدفتها عندما أخذتهما الغيبوبة ورمت بهما في عوالم أخرى،فجعلتهما لقمة مستساغة للكائنات الطامعة في هذين الجسدين"، فهي هنا تمثّل صورة عن العالم فهي «رمز الصفاء والطمأنينة والحماية من الأخطار»[1]. والكائن البشري يتجه لا شعوريا نحو المركز، نحو مركزه الخاص الذي يمنحه الواقعية والقداسة . وفي الدائرة تلاشت وتماهت الحدود الفاصلة التي رسمها التقاطع الأبدي .

ـــ **الماء:** سر الحياة وكنز الصحراء، لا تستقيم دونه حياة أي كائن، في غيابه يدب الشقاء، وفي حضوره يعم الهناء، فهو رمز الأمان، والتجلي الإلهي على سطح الأرض،قال الله تعالى:(وجعلنا من الماء كل شيء حي) [2] والمجتمع الترقي قدس الماء لدرجة أنه جعل منه قرينا، فهو توأم الصحراوي ومنجيه من الهلاك،قاهر السراب اللعوب، أحد الأركان الثلاثة المكونة للثالوث(الماء، الطعام(الخبز)، والقمر)الذي يكتسب بها الخلق من الإنس والجن،فمن يقدم قطرة ماء في الصحراء لينقذ بها حياة يصبح له ذلك الشخص الذي تجرع

---

[1] - فيليب سيرينغ معجم الرموز في الفن والأديان، ترجمة:عبد الهادي عباس،دار دمشق، سورية، ط1 .1996. ص478

[2] - سورة الأنبياء، الآية: 30 .

الماء عبدا أو قرينا،وهذا ما دأب على فعله"بورو" لكسب القرائن، "فجبارين" كسبه بالماء، كما أنه أنقذ بالماء المهاجر الذي قرأ له نبؤة السيل في العظم؛ الذي لاعبه السراب لحد اليأس، وكردّ للجميل محا الساحر وأزال العلامة التي كانت تتوج جبينه .

إن الماء مقدس في الصحراء لأن العثور عليه أمر صعب، إن لم يكن مستحيلا، لذا كان إذا حفر بئر جديد أو عثر على منبع ماء، فإن أهل الصحراء لا تسعهم فرحة؛ لأنه طوق نجاتهم وأملهم في الحياة.

ـــ **المعادن(الحديد، النحاس، القصدير)**: هذه المعادن مشحونة بقوة قدسية لما لها من آثار على حياة الطوارق،فقد فضلوها على البئر؛ لأنها تخفي سرها في جوفها ككل الكنوز النفيسة، وآثرت التسليم لذا رفعتها السماء إلى الأعالي، فكانت سرا من أسرار الأرض، التي جادت بها على أبنائهم حتى تسهل من مهامهم الحياتية والاجتماعية .

* **الحديد**: رمز الأمان وتميمة السحرة في التحصن من الجن، غرابة طبعه جعلت منه" «شيئا غريبا لا ينتمي إلى الكون العادي ويأتي من مكان آخر، فهو عاليا إشارة من العالم الآخر،صورة تقريبيه للكينونة المفارقة »[1]، استخدمه التجار لحماية بضائعهم ولا سيما تلك المحملة بذخائر التبر، فالبضاعة التي لا تتحصن بهذا المعدن تغزوها قبائل الجن لاسترداد كنوزها « الإفلاس سوف يصيب أغنى التجار، والتبر سيفسخ إلى رماد، ويعود إلى أصله،إذا لم يتحصن هذا النعيم بسوق آخر،بتميمة أخرى من أخلاط المعادن وقوة الذهب »[2] ،فتحصن به حكماء التجار واعترفوا بقدرته على حماية القوافل من غارات الجن.بالإضافة إلى أنه يستخدم في « شعائر الدفاع التعزيمي أو التعزيم، وفي التزيين، وفي أعمال الرقية »[3] .

فالحديد يكتسب رمزا وقائيا يتجلى في قدرته على مداواة الأمراض، ومنه اكتسب الحداد القداسة لأنه اشتغل على المعدن .

---

1 ـــ ميرسيا إلياد. أسطوريات عصر الحديد، ترجمة: حسن حيدر، مجلة الفكر العربي، بيروت، لبنان، ع:73. ص: 34 .

2 ـــ ا رواية السحرة . ص: 105.

3 ـــ مالك شبل: معجم الرموز الإسلامية، ص: 305 .

* **النحاس**: هذا المعدن أيضا يملك قدرة وقائية وعلاجية، فمن استعمالاته أنه كان يستخدم كغطاء تحمى داخله التمائم وتعاويذ السحرة،فقد كان يوضع في « أسفل السندان، وعلى الحراب والخناجر،والأقفال والعدة،فالنحاس معدن سعد»[1] في نطاق يبطل مفعولية الذهب .

* أما القصدير فكان يستخدم في صناعة الأواني .

ـــ **المدية**: لقد عثت الجن في الأرض فسادا،فشقاوتها واستهتارها أرهب القبائل وأثار الفزع في قلوبهم،فظهروا في أشكال مرعبة أبدان بدون رؤوس، أغوال، سعلاة،فأسقطوا الأجنة من الأرحام، وأماتوا الصغار من الخوف،فكان الصحراوي يخشى على نفسه إذا ما خرج وحيدا إلى الخلاء،لأن الجن إذا استفردت بأحدهم أذاقته الويلات،وبخاصة إذا أغفل قراءة التعاويذ، فيشدون وثاقه ويعلقونه في شقوق الكهوف مقلوبا،ويملأون أذنيه قهقهات، ليفكوا بعدها وثاقه وكلهم يقين أن خصمهم لن يرى خيرا طالما بقي على قيد الحياة،هذا الزمن طال كثيرا حتى اهتدى السحرة إلى المدى والمعادن التي أرهبت الجن، فشلت هجماتهم وتصدت لها،والمدية كفت عنهم الأذى،فصار حملها سنة،لأنها ترمز إلى الأمان،ومهمتها «تكمن في إبعاد الشياطين»[2] فحاملها يظل في مأمن من الجن وقهقهاتها الكريهة،وقد كانت المدية سببا في إنقاذ أولئك الذين سقطوا في الوجد، وحار السحرة في أمرهم وكان « جر المدية على أبدانهم »"[3] الحل الوحيد في إخراجهم من الحالات التي سقطوا فيها، ومنذ ذلك الحين أصبحت حياة الطوارق لا تستقيم دون رمح أو مدية .

وقد كان لهذه الأخيرة الفضل في نجاة" أكّا" من المطاردة الشرسة التي أختطف فها "أطلانطس وتانس"، لينقذهم من الجنية التي تحولت إلى غولة مهولة، فقبل أن يتأهب للرحيل أحاط مهريه بالعديد من المدى والسكاكين حتى يتجنب ضربات الساحرة المشئومة .

---

1 ـــ المرجع نفسه، ص: 326 .

2 ـــ ميرسيا إلياد. اسطوريات عصر الحديد: ترجمة: حسن حيدر، ص:35.

3 ـــ رواية السحرة . ص: 105 .

ـــ **الظلمة والظل:** اكتسب هذان العنصران سرهما من الليل المقدس، فالظلمة هي نبع الأصل ونواة التكوين، هي المبدأ وهي المصير،لذا آثرها السحرة على الضياء الذي يزيف الحقائق ويدنسها،فكانت منهلا أسدل وشاحه على الأمل والطمأنينة والسكينة. واستطاع الظل أن يجد مكانا له ضمن هذا الزخم الدلالي، فالظل هو مملكة الخفاء، سر الملكوت، وأرض الحق التي اختبأ فيها السحرة،الضد الغامض الذي يلعنه البلهاء جهارا عملا بوصايا ورثوها عن سائر البلهاء؛ الذين لم يدركوا أنه الملكوت التي ستؤول إليه الباديات، « هو أغنية سماوية مجهولة، لم يعرف سرها سوى العرافون والسحرة، وتعلموا أن يحتموا بها من الخلق »[1].

فالظل هو كنز الساحر الذي دأب على إخفائه، مستعملا عدة طرق لأن ضعفه يكمن في المركز في الظل، وفئة قليلة أدركت هذا السر، فالتخفي في الظلال حيلة تعلمها السحرة من سكان "كانو"، نقلها الدهاة الذين تنقلوا مع القوافل ليرشدوها إلى الطرق والكنوز،فتعلمها أبناء الصحراء وجعلوها حصنا يقيهم الأخطار فهجروا أبدانهم وسكنوا ظلالهم، حتى أن الطعنات في اشتباكات السحرة كانت توجه للظلال « فسر الساحر في ظله، قدره في ظله، مصيره في ظله، وسيظل في دائرة الخطر مادام الظل مكشوفا مفتوحا على الخلاء »[2]، هذه الحيلة تعلمها "بورو" عندما اشتبك مع أحد هؤلاء السحرة، وعبثا حاول النيل منه، حتى صاح به جبارين"الظل"، الظل سدد،طعناتك للظل، لأن سحرة الأدغال يتخفون في ظلالهم، إلا أن هذا الساحر أخفى ظله في يده، في العصا، فتجاوز بقدرته كل الحيل التي ابتدعها الخلق، فالعصا هي رمز القوة والسلطة لأنها جمعت في جوفها الثالوث(الحية، العصا، الساحر) .

وقد مر أمد طويل حتى أدرك الخلق أعجوبة الظلال، فقدسوها وركنوا إليها،فسلموها أمرهم، « فاستظلوا بالكهوف وهربوا من نار الشمس،لأنهم أدركوا أن لا حياة لمخلوق يدب بين الخلق، ولا خلود لأمر افتض بكارته النور »[3] وقد شاع أن الظل

---

1 ـــ رواية السحرة ، ص: 352 .

2 ـــ رواية السحرة ،ص352.

3 ـــ رواية السحرة ، ص.ن.

رقدت في ملكوته كرة دائرية حوت في جوفها سر النقائص كلها، من هنا اصبح الظل رمزا للخلود والبقاء، فيما غدا النور رمزا للهلاك والزوال .

د ــ 2**النبات:** شكل النبات عنصرا هاما في منظومة الحكي،فزاد اللغة ثراء، ووسع من نطاق تحركاتها، فأصبحت هذه الأشياء الصغيرة « عوالم تضيء ما لا يضاء عادة في قراءاتنا، فأضحت إيقاعا جماليا يزيد من قوة الفضاء المرئي وما يحيل عليه »[1] فالنبات هو فرح الأرض ومرحها، هو السمة التي تبرز خصبها وزخم روحها، وانبثق النبات في رواية السحرة كمعلم رمزي له اشراقاته الدلالية وفضاءاته الشعورية، ومن النباتات التي لقيت اهتماما عند الطوارق نجد:

ــ **آسيار:** هو نبات أسطوري « يعتقد أنه بقايا السلفيوم، يعطي طاقة هائلة، انقرض من ليبيا في القرن الثالث قبل الميلاد، ويجمع المأرخون القدماء أنه كان دواء سحريا لكل الأمراض المعروفة في العالم القديم... »[2] واصطلح عليها سعيد الغانمي « صيدلية الصحراء الكاملة »[3] لأنها حوت سلسلة من التناقضات التي يؤدي كل منها إلى الآخر ويمحوه،« متاهة من الثنائيات المتقابلة، التي يلغي بعضها بعضا، ويؤكده في الوقت نفسه»[4] ولعل هذا السبب هو الذي جعل الزعيم يحرمها على غيره، لم تكن تشفه من الوباء فحسب، لكنها «صارت علة وجوده، وسرا من أسرار عافيته وخلوده »[5]هذه الهبة تلقاها من يد الخفاء التي أنقذته حين بدأ جسمه في التحلل وأخذت الديدان تغزو بدنه، وانتشرت رائحة العفن، وغزت كل القبيلة التي فرت، وخلفته وراءها، وتروي الأساطير أن هذه النبتة كانت سببا في النزاع الذي دار بين الزعيم ووانتهيط .

إن آسيار دفعت الزعيم إلى موت رمزي تدمر فيه الجسد الفاني، وتحقق الميلاد من جديد، فتجاوز شرطه البشري العادي، واكتسب سمات جعلته يتبوأ مكانة بين"« الموت والحياة،

---

1 ــ حسن نجمي، شعرية الفضاء، المتخيل والهوية في الرواية العربية، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، ط1، 2000، ص:145 .

2 ــ رواية السحرة ،ص: 230 .

3 ــ سعيد الغانمي، ملحمة الحدود القصوى،ص:80 .

4 ــ نفسه، ص.ن.

5 ــ رواية السحرة ، ص: 231.

بين الوجود والعدم، بين الغياب والحضور»[1] وقد كان الزعيم يتوسل الجن في أن يعطوه الراحة الأبدية بعد أن مل الحياة وسئم العيش، ولكن الجن أخبروه أن الإنسان لا يموت مرتين، وهو مات مرة،فنال البرزخ، فهذا النبات كان له مفعول قوي على الزعيم،فكان مسكنا لنوبات جنونه التي كان ينبغي فيها أن يمرّ[2]بالجنون؛ أي : بالخفاء، بمعناه الحرفي، كانتهاء الجن وأهل الخفاء، وبمعناه المجازي كاختفاء عن الحياة، فتجدد ميلاده عقب تلك النوبات واستعاد عافيته ونشاطه .

ـــ **الطلح والنخيل**: يقف النخيل بوصفه علامة سيميولوجية دالة على الأمل، فهو: «"معلم للحلم ينبجس في عالم المأساة، وهو رمز للإنسان العربي المحافظ على تاريخه الأصيل الذي لم تدنسه الحضارة،مدحهما الصحراويون لما لهما من الفضل على الصحراء وكائناتها، فلا يكاد شعر يتلى، ولا ملحمة تلقى إلا وفيها ثناء وتمجيد للنخل والطلح، فالتخلة والطلح علامتان دالتان على الحياة،فهما مبعث على النشاط الروحي»[3] فالنخلة شعار الخصب، وهي في نفس الدائرة التي يتمظهر فيها الطلح، فوجودهما بالصحراء يوحي على الحياة بالموقع، أما غيابها فهو انعدام لهذه الشعلة، و زوالهما هو علامة على قيام الساعة .

فالنخلة والطلح هما دليل على الاستمرارية؛ إذ كان لهما الأثر البالغ في رد هجمات القبلي المجنونة، والتي أغرقت الصحراء هذه الأرض المقدسة بوابل من الذرة الصفراء، فالنخلة"« دخلت طرفا في العراط مع الريح أوقفتا الشجرة النبيلة، زحف العدو، وساعدت الفلاحين في صد حملات الرملة ومنع ألسنتها الشرهة من الوصول إلى العيون»[4] النخلة ليست مصدرا لرزق الأهالي وحسب، ولكنها شجرة نبيلة، عبدها الأهالي وقدسوها، لأنها كانت سدا منيعا في مقاومة زحف الرمال وحماية الواحات من غول الزوال .

والطلح هو الآخر شحن بدلالة إيجابية، فهي رمز القوة والصبر،« هو صورة الشجرة التي نالت القدرة على التحمل، والصبر على العطش في المراعي،فحمت القطعان من الهلاك

---

1 ـــ سعيد الغانمي. المرجع السابق، ص.ن.

2 ـــ المرجع نفسه، ص: 82 .

3 ـــ مالك شبل. معجم الرموز الإسلامية، ص: 327 .

4 ـــ رواية السحرة ، ص:104 .

وأنقذت الرعاة من الموت جوعا"»[1]، فالرعاة كانوا يستخرجون منها بعض الأعواد الصالحة للمضغ، والتي كانت تسد رمقهم وتسكت جوعهم .

ـــ **تورها:** هو نوع من الشجر تمظهر في دائرة القيم الإيجابية؛ حملت في جوفها سر النجاة، فكانت رمز الأمان؛ لأنها حمت الأسلاف من شر البلاء،« اتخذها الأسلاف واستقطعوا من أعرافها عودا يحتمون به من شرّ قرأوه في عظام الفرابين»[2] هذه الشجرة بعثت السكينة في قلوب أهلها، فمجرد حمل عود من عيدانها يبعث على الراحة النفسية والطمأنينة .

ـــ **الترفاس:**نبات صحراوي، مستدير الشكل،أريجه قوي ، والترفاس كتر من كنوز الصحراء، من امتلكه امتلك انفس العطايا وأبهاها، هذه الثمرة هي:" أنفس عطايا الأرض الثلاث، فكان هذا القول« محل اتفاق، بل إن أهل الصحراء اختلفوا في كل شيء، ولكنهم اتفقوا على الثالوث كما اتفقوا على الناموس، بل إنهم لم يتفقوا على الناموس كما اتفقوا على الثالوث."»[3] هذا المقطع يوحي بقيمة الترفاس وأهميتها في حياة الصحراويين، فهي إشارة دالة على الخصب والنماء، فيها قرأ السحرة نبؤاتهم فاكتشفوا أن هذه الوليدة تتحدث بأصدق الأنباء .

ـــ **زهرة الرتم:** هي إشارة دالة على جمال الطبيعة، ودليل على سيطرتها وتمكنها من نفسية الترقي، هذه الطبيعة التي حوت الإنسان، فغدت كيانا روحيا محملا بالكثير من النقاء والصفاء، زهرة الرتم رمز الجمال؛ لأن نسوة القبيلة استخدمته كعطور لهن .

ـــ **الحنظل:** نبات قاتل، ولكنه ترياق فعال لضربات السحر، هذا النبات جمع في جوفه الضد، فهو حياة وموت في الوقت ذاته، هو من أخرج السم من بدن "بورو" حين تلقى الضربة من العصا السحرية في محاولة منه لدرء الأذى عن الحسناء التي تحولت إلى حية تسعى، سجنها المارد في عصاه .

الحنظل حاكى السماء في عليائها واستوطن الدائرة،فامتلك قوة أقوى من السحر نفسه، وكان الحل الوحيد في استخراج السحر من البدن، لأن السحر إذا طال به الزمان فإنه

---

1 ـــ رواية لسحرة . ص: 103 .

2 ـــ رواية السحرة الرواية، ص: 615 .

3 ـــ رواية السحرة . ص: 670 .

يتحول إلى علة، إلى حية في بدن المخلوق و هذه العلة لا تخرج « إلا بحريق أقوى من السم الذي تنثفه في جوف البدن »[1].

و التمييز بين الحنظل الذكر والأنثى أمر مستحيل، لكن الساحر استطاع الفصل بينهما لأنه امتلك مواهب ودهاء الحية، فاستطاع التمييز بينهما .

بعد أن عثر الساحر على الترياق، أمر "بورو" بالتقدم دون أن يرفع رأسه عن الكتر، فنالت جسده حمى كانت نارها أقسى من نار الخفاء، ونار العلقم،فلم يحتمل جسد بورو هذه الطاقة،لأنها تجاوزت قدرته العادية، هذه القسوة لم يعرفها حتى عندما ابتلع الجمرات المتوجهة،حين نزل عليه أحد المهاجرين، وكان من أبناء الجن،غير أن بورو لم يدرك حقيقته إلا في الصباح،هذا المهاجر كان يستمتع بأكل الجمر المتوهج،فحاكاه بورو في ذلك، لكنه لم يستطع تحمل ناره، فانطلق كالمجذوب في ركض طوى فيه مسافات كبيرة، لكن الوهج لم ينطفئ حتى أغمي عليه .

ـ **الشجرة(قرين بورو)**: هذه الشجرة أنقذها بورو من هلاك محتم،ففي إحدر جولاته وجدها وسط أكمة كآكام الأثل،فاستخرجها وهو يرتل التعاويذ والتمائم درءا لأذى الجن، واعتنى بها حتى أصبحت شجرة بهية تضاهي جمال الحسان، ومنذ ذلك الحين أصبحت له قرينا، ومن أعرافها استقطع أعوادا ليوم القرعة،لأنه كان يعلم أن من يصنع من القرين عيدانا لن يقع في فخ الرسل،وبالفعل كانت العيدان حليفا له، لو لم تستبدل في المرة الأخيرة،« إني أضحي بأصابع قريني، اتفهم، أصابع قريني لن تخذلني،قريني سر،يا قريني، وإن كنت تشك،فأمهلني لأروي لك سيرة القران؟ »[2]

فالشجرة في هذا الأنموذج ارتبطت بالتفاؤل والأمل، الذي ظل مرتبط برمزيتها.

ومن الشجرة أيضا أخذ صمغا يقيه شؤم الصباح، "فجبارين" أدركه الصبح دون أن يقرأ النبؤة في الأفق البهيج، فخالف ناموس آلهي الذي نص على النهوض باكرا،فكل من يناله شعاع الشمس وهو نائم سيناله القصاص لا محالة،لذا قام بورو بتسلق الشجرة وأتى منها

---

1 ـ رواية السحرة ، ص: 332 .

2 ـ رواية السحرة ، ص: 788.

بأعراف وصمغ وقال:« هذه ستطرد شؤم الصباح،(فأومأ إلى الصمغ، هذه ستحمينا من شر الخفاء يوم القربان وأشار بسبابته إلى العرف »[1].

هذه النباتات التي جاءت الرواية على ذكرها تحركت ضمن بؤرة دلالية واحدة، فحملت قيمة إيجابية مشبعة بالخصب والنماء والتفاؤل، هذه الدلالات كان لها وقعها وأثرها على الشخصيات.

ه ــ **الظواهر الطبيعية والفلكيّة**: لقد شكلت الطبيعة ولازالت ملاذا للإنسان، فاحتوت آلامه وآماله، والكوني في رواية السحرة مثل الطبيعة « في إطار نرى من خلاله الأحداث والشخصيات؛ إذ غدت وسيلة للتعبير عن حالة الإنسان »[2] فالطبيعة أيضا مستها مفاهيم القداسة، فجاءت بعض ظواهرها متعاطفة مع الإنسان الصحراوي، وتجسّدت أساسا في:

* **القمر**: جدهم وإلههم الأكبر، هو رمز التجدد والانبعاث،هو أول من يموت كونيا،وأول من يبعث دوريا،من هنا تبدو الرمزية القمرية دائما محملة بدلالات الزمن الدوري الذي يكرر سيرة القمر موتا وتجديدا، وقد جاءت السحرة برواية تجسد ذلك الصراع بين القمر والشمس،بين الخير والشر،فالقمر استقطب كل الدلالات الإيجابية،فهو مؤنسهم في الليالي الحالكة، منه يستلهمون الشعر، وعلى ضوئه استقامت الألحان والأشجان، ومنه تعلمت القبائل الجود، فعبدوه وقدسوه لأنه « لا يطلب قربانا»[3].القمر كائن يفيض بالخيرات دون أي مقابل، هو مقياس الزمن الأول، وهو وعد صريح بالعودة الدائمة، « ويظهر تاريخ الأديان الدور الكبير الذي يلعبه القمر في تشكيل الأساطير الدورية: أساطير الطوفان، والتجدد، شعائر الولادة، والنمو، أساطير فناء البشرية التي تستند جميعها إلى أطوار القمر »[4].

ــ **ظواهر متفرقة**: لقد شاع في ميثولوجيا الطوارق، أنهم قرأوا النبؤات في مختلف الظواهر الطبيعية في السماء، في الينابيع، وفي الآفاق البعيدة، وحتى في الغيوم، وبورو اعتاد أن يقرأ

---

1 ــ رواية السحرة ، ص: 787.

2 ــ ينظر: عبد الله خمار، فن الكتابة وتقنيات الوصف، دار الكتاب العربي للطباعة و النشر،الجزائر، د ط، 1998،ص: 379 .

3 ــ سعيد الغانمي، منحمة الحدود القصوى، ص: 51 .

4 ــ دوران جنبر، الأنثروبولوجيا، أساطيرها، رموزها، أنساقها، ترجمة:مصباح الصمد،المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر، بيروت،ط2، 1993، ص: 72.

النبؤات في الأفق البعيد،ففيه «تولّد لون سخي، احتضر الإيمـــاء، الاسمـــانجوفي، في الأول، وقطب الخلاء بضمير مكتوم في الزند تولد قالسقط، قفز السقط وتشبث بخرقة الكتان، من خرقة الكتان انتقل إلى القش، في القش تماحى وصار نارا... أطلق بورو النداء: يحسن بك أن تنهض ففي الأفق اليوم نبؤة»[1] فالأفق أخذ طابعا قدسيا؛ لأنه يبعث على قراءة النبؤات، والأمر لم يتوقف عند الأفق، فحتى السحب قرأ فيها الطوارق النبؤات « استيقظ مبكـــرا: فوجد السماء تتلغثم بغيم يمكن أن يقرأ فيه الساحر نبؤة»[2] هذا المقطع يدل على أن الأشياء التي تواجدت في الصحراء شكلت علامة قرأ فيها الطوارق النبـــؤات والأخبـــار بنوعيهـــا السارة والضارة .

2 ــ التجليات النفسية للمقدس:

قدم الكوني ميثولوجية متنوعة العناصر، تبوأ فيها الإنسان بهمومه وتطلعاته وحيرته، الموقع الأول،فعبر الفضاء الورقي الأبيض،تابع الكوني كـــل انطواءاتهـــا الذاتيـــة، وانقســـاماتها النفسية،فأكد على أهمية الطبائع والغرائز، التي احتفى بها الترقي واستمسك بهـــا، فكانـــت فخرله، وعزة نفسية، و تجلت هذه الانطباعات في :

* **الحرية:** أو شعلة الطلب، والحرية هي «تقرير الروح لمصيرها »[3] أهم سمة تميز نفســـية الترقي،الرافض للقيد، فحريته مشروطة « بالتخلص من كل القيود، قيود المكـــان وقيـــود الأشياء»[4] والصحراوي يؤثر ويفضل الأماكن المفتوحة على الأماطن المغلقة؛ لأنه يجد فيها نوعا من الراحة والطمأنينة، وكانت الصحراء بفضائها السمح، وامتدادها الواســـع خـــير مكان تحققت فيها هذه الخاصية.

حتى القرينة شكلت قيدا،كبل روح الصحراوي، وكثيرا ما حاول التخلص منه، كما كان يحصل لوالد بورو، فإذا اشتد به الحنين افتعل شجارا حتى يتمكن من حمل نفسه والطواف بأرجاء الصحراء، فإذا نال من فيضها وتشبع بسكونها وعزلتـــها عـــاد إلى البيت،وكلمـــا

---

1 ــ رواية السحرة . ص: 756 .

2 ــ رواية السحرة . ص: 742.

3 ــ مج باحثين: الموسوعة الفلسفية، إشراف بودين، روزنتال، ترجمة: سمير كرم،دار الطليعة، لبنان،ط3، 1991. ص: 171.

4 ــ أحمد النوي بدري: خصوصية تشكيل المكان في أبرهيم الكوني الروائية الرباعية نمودجا، مجلة فصول ع 62، ص 293.

عاودته النوبة خرج للعراء فيتلقفه الخلاء، وكلهما شوق وحنين، وقد أدرك" أكّا" الساحر العظيم، الخطأ الذي وقع في شركه بزواجه من الجنية فضيع شعلة الطلب،ولكنه تدارك أمره وعاد من منتصف الطريق، و فر من قرينته ساعيا وراء حريته، إذ لا شيء يضاهي حرية الصحراوي،فهي أنفس الكنوز عنده وأبهاها.

ــ **التريث**: علّمت الصحراء أبناءها حكما سنت لهم قوانين وطبائع تكفل لهم العيش بسلام، فعلمتهم كيفية وأهمية إمساك النفس وقمعها،"«لا سيما إذا اشتهت شيئا أكثر مما ينبغي »[1].

فقد حصل وأن فقد أحد المهاجرين وقاره،لأن التعب نال منه ، وتمكن السراب من وصاله،وعندما قدم له" بورو" وعاء الماء،ركع على ركبتيه،فخالف وصايا آلهي، وتلقف الوعاء بنهم،متناسيا طقوس الارتواء، مخالفا المراسم القبلية،وسلم أمره للهوى،فأراد بورو أن ينبهه فسحب منه الوعاء ببطء محاكيا الناموس الذي سن حكمة المنع،رأفة بالظمآن، فبادره المهاجر بنظرة عدائية أخلت بأخلاق النبلاء وتشبعت بمسلك العبيد، فالعطش أعمى بصيرته، و فقد وقاره، ولكنه تفطن لنفسه،فاستعاد هيبته وكله خجل مما حصل .

بورو أيضا أخل بهذا المبدأ، ففي إحدى المرات خرج ليستعيد الجمال الضالة في الحمادة،فإذا بزاد الماء ينفذ منه، ونال منه الظمأ والتعب، فدخل غيبوبة فقد على إثرها الإحساس بالمكان، ولكن السماء كانت رحيمة به،إذ تبدى له مارد يحمل قربة،فسقاه، وأبعد عنه الغشاوة التي أفقدته اتزانه، ولكن الطمع أغشاه،و دخل في عراك مع الشبح بغية نيل القربة كلها، لكنه لم يدرك ما حصل له فيما بعد،إذ وجد نفسه ملقى في الصحراء وهو مقيد .

* **الصيام عن الطعام**: هذا المبدأ سنه المعتزلة، فبجلوه، وعبدوه.هذه الطائفة كانت تستقبل بحفاوة كبيرة، و أقيمت على شرفها الولائم، ونحرت القرابين ترحيبا بهم ، ولكنهم لم يحيدوا عن المبدأ الذي سنوه فزهدوا في الطعام، واشتهرت هذه الطائفة بالشهامة،لأنها أدركت أن البطن لا يشبعه إلا التراب،فرأت في الطعام« عدوا، يبلد

1 ــ رواية السحرة ، ص: 316 .

اللب، ويفسد المزاج، ويقسي القلب»[1] والصيام هنا يأخذ بعدا رمزيا تطهيريا، يعلم النفس التريث والتقشف،فهو وسيلة لتهذيب النفس، وترويضها، فرأوا فيه بعدا روحيا، و«رسالة سماوية تحرر الملاك الذي يرفرف في الصدور... من أغلال الأسر، وتفتح لهم في الأبدان البليدة آفاقا إلى ملكوت النبؤة »[2] وبالفعل فقد كانت هذه الطائفة أكثر قدرة على قراءة النبؤات، وأكبرهم تمسكا بوصايا آلهي .

* **الشفقة**: قال السحرة:" إنها أنبل من المحبة؛ لأن في المحبة انتظارا للمحبة، مقابل محبة، قالوا غنها أنبل من الجود؛ لأن الجود صيت، والصيت نفوذ، والنفوذ دائما سلطان السلاطين، في كل زمان، قالوا إنها أنبل من الفضيلة؛ لأن الكثير من أهل الاعتزال رأوا فيها زلفى لسلطان الخفاء... قالوا إنها انبل من النبل؛ لأنها نواح لا يرجى من ورائه رجاء، وصلاة بلا غفران، وحنين بلا وصال، قالوا إن النبل لم يسم نبلا إلا عندما وجدت الشفقة" الشفقة أخذت من كل المشاعر بطرف، فغدت الأسمى بينها،ولولا الشفقة لتحجرت القلوب وقست، والشفقة هي ما أحس به جبارين تجاه الشيخ الذي فقد وقاره، عندما تملكته نوبة جنونية،ملأ فيها صدغيه بضحك مدوّ، أفزع كل من سمعه، لأنه جعل من وانتهيط خصما له، فخسر الرهان،و حاله، «وانقلب الكبر ذلا،والنبل وضاعة،والبأس يأسا، والعقل جنونا، والحكمة استهتارا»[3]. جبارين تناسى ضحك الشيخ ورأف لحاله،ولم يستحضر في ذهنه إلا تلك الصورة، صورة الشيخ الذي لم ير فيها حرصا، ولم ينل منها إثم الضحك،تلك الصورة هزت جبارين وزلزلت مشاعره، فأيقضت إحساسه وانتزعت منه أنبل عاطفة وأصدق شعور عرفه الخلق .

* **القبح**: رغم قيمته السلبية التي تتبدى لأول وهلة، إلا أنه في الفضاء الورقي اكتسب دلالة إيجابية، فهو رمز للعقل السليم والمعرفة والحكمة؛ لذا قدسته شريعة الصحراء،هذه الحقيقة أدركها شاعر عرف بتعشقه للحسان وحبه للجمال،فحل ضيفا على إحدى قبائل الجن فاستقبلوه بأبهى الأفرشة وأشهى الأطعمة التي لم يتذوق مثلها في حياته،وزفوه

---

1 ــ رواية السحرة ، ص: 398 .

2 ــ رواية السحرة ، ص.ن.

3 ــ رواية السحرة ، ص: 609 .

إلى أبهى وأجمل فتاة في النجع،وعندما أدركه الصباح انقلب الحلم كابوسا، فقد عرف أن العروس التي زف إليها الليلة الماضية ما هي إلا جنية بشعة وشعثاء، بعد أن اكتسبت وجها جميلا حمل تقاسيم معبودته التي فاز بيدها قبل أن ينطلق في إثر الجمال، لحظتها أدرك أن الجمال فان وزائل، والجري وراء الحسن شؤم وهلاك،وأيقن حكمة الآلهة من التقسيم إذ« قسمت الحسن بيد الخالق،...فنالت الطيبة عقلا جميلا، ونالت الجنية جسما جميلا،ولكن....آه،آه، الحسن تأكله الأيام من وجه الخبيثة فلا يبقى للرجل منها سوى البلادة والغباء، والنوايا الشريرة، أما من نالت عقلا وفقدت حسن البدن، فلم يخسر قرينها الرهان»[1]، فلما عاد إلى القبيلة عقد قرانه بأقبح امرأة في القبيلة، ولكنه عاش كأسعد قرين، ومنذ تلك الحادثة تحدثت العجائز الجنيات عن الأعجوبة، فقلن أن آهي قد أقر أن من قديم « أن العرجاء أو الحدباء أو الحولاء لا تتفوق في العشق وحده، ولكنها لا تبارى في مجال الحكمة أيضا »[2].

* **الإمتناع**: الحياة لا تستقيم إلا في الامتناع، فهو من يقوّم النفس، ويعلمها التريث،فعاقبة" ماندام" كانت شنيعة، و التي فقد الفردوس المفقود،عندما خالف هذه الشريعة واستصاغ اللقمة الحرام، وسمح للشهوة بأن تتملك ذاته.وعبثا حاول الزعيم أن يعلم الناس هذه السنة، فالناس لم يمتنعوا إلا عندما كاد لهم "وانتهيط"،فأخفى الشجرة المسمومة في البستان، وكل من أكل منها،هلك وناله النسيان، ومنذ ذلك الحين ارتضى واعترف الخلق بهذا المبدأ كأساس قوم حياتهم .

والحية كانت الأدهى والأحكم؛ لأنها أدركت السر،سر الامتناع، قبل أن يدركه الخلق، فامتناعها عن اقتناص الفأر وتريثها إذ اكتفت بالملاحظة، هو الذي أنقذها من فخ الوقوع في شرك القنفذ،« فكان الامتناع شرط حياتها، والصبر سر فوزها»[3].

* **الحياء**: مبدأ المعتزلة، وبهجتهم الضائعة، الحياء هو من حمل الأب(أب دودو على الاعتزال والخلاء، وقد حاول كثيرا الجمع بين امرأته والخلاء، ولكنها رفضت أن تتخلى

---

1 ــ رواية السحرة ، ص: 261.

2 ــ رواية السحرة ، ص: 262.

3 ــ رواية السحرة ، ص: 202.

عن الحياة القبلية، فكان يتركها ويسافر إلى أبعد مكان في الصحراء، و لا يعود إلا و قد تشبع من فيض هذه الشريعة، وتلبس بها، فإذا أحس بنوع من السكينة عاد إلى القبيلة .

* **الحمى ذات الأبراج**: حالة وجدية شامانية الغناء سببها ، هذه الحالة كانت مدعاة للفرح والسرور من قبل السحرة،اعترفوا بقوة طاقتها،لأن صاحبها يخترق بدنه، ويتجاوز شرطه البشري، فيعايش الأجداد ويستقي منهم أخبار الغيب، فهي تكسب الشاعر بصيرة تفوق بصيرة السحرة ،إلا أنها نادرة الحدوث، ليس لصاحبها يد فيها، وكان الأسلاف الميطيقيون هم من يقومون باستدعاء الشخص،لتحدثوه بالنبؤات فيقوم بإيصالها إلى العالم البشري، فيشكل بذلك حلقة وصل بين المستوى القدسي(الأسلاف) والمستوى الدنيوي(القبيلة) .

***الاسم**: هو هوية الصحراوي، والدليل على حياته،هو بداية الحياة ونهايتها،الاسم«ليس بالشيء التافه،الذي لا يقام له وزن»[1] فهو من يحمل سمات صاحبه، وصفاته، والدعامة التي تبنى عليها أركان الشخصية«فالأسماء لا تطلق بغير سبب»[2] ومن ضيع اسمه فقد ضيع كل شيء، فكان له النسيان رفيقا ومؤنسا،لذا علق الطوارق أهمية كبرى على الأسماء، فقد اعقدوا أنها «تحمل قدرات سحرية، وهي ضرورية لكل من الأحياء والأموات»[3] لأن الأسماء هي الرمز السحري ومفتاح بوابة الفردوس المفقود، ومن نسي اسمه أو فقده لا يسمح له باجتياز وعبور البوابة السحرية .

* **الميلاد**: إن جبارين قضى طفولته الأولى في فردوس الأب الفعلي، لكن حلول الطفل الجديد أفقده تلك المكانة، فأحس بنوع من القهر،مما دفعه للبحث عن فردوس رمزي يواصل فيه طفولة غبطة البدايات على كبر،وقد أرشدته الساحرة إلى عظام الأجداد، وبعد بحث طويل« استخرج حجرا مستطيلا، ناصع، مصقول، أملس، يطابق معصمه في العرض، ويقل من عظمة الذراع طولا، قلبه بين يديه،...فوجد أنه برهان ينتمي إلى عشيرة

---

1 ــ عبد المالك مرتاض. تحليل الخطاب السردي، دراسة سيميائية تفكيكية لرواية زقاق المدن، ديوان المطبوعات الجامعية. الجزائر. دط.1995.ص:198 .

2 ــ رواية السحرة . ص: 628.

3 ــ واليس بدج. السحر في مصر القديمة. ص: 143 .

الأسلاف،....التقط السكين الحجري بيد راجفة، حز السكين على راحة اليد،...تدفق الرمز بالحياة،نزلت إلى الأسافل، انطوت، انطوت على الرسالة...بلغت البرهان التقم السلف بنهم الرضيع»[1]، تلقى العظم الهبة، وامتص الدم كله، هذا العظم أعاد لبورو الحياة والاطمئنان، فكان رمزا عوض ذلك النقص الذي أحس به بورو عندما أخذ أخوه مكانته، فأكسبه الأنس الذي فقده،وجدد ميلاده عندما«رأى كائنا ماردا رجلاه تلامسان الأرض، ورأسه يغيب في السماء،ليخاطبه، لم يومئ له، لم يبادله كلمة واحدة،ففاض فيه الاطمئنان، الاطمئنان الذي فقده عندما صده من أحب»[2].

3ـــ التجليات الاجتماعية للمقدس:

اهتمت الرواية بوصف مختلف التجليات الاجتماعية للمجتمع الترقي، فالقارئ يلفي العديد من السلوكات والاستراتيجيات التي تعمل القبيلة على تحييتها والمشاركة في شعائرها، وقد عرض إبراهيم الكوني في رواياته ومنها: رواية "السحرة" هذه العادات والتقاليد بهدف« تعريف القارئ بما يجهله من حياة القبائل في الصحراء»[3] فأبرز بذلك القوى الخارجية الضاغطة على

الإنسان القبلي، والتي تحدد تماسك القبيلة ومشاركتها الجماعية في تحيين تلك الطقوس، ومن

الطقوس التي جاءت الرواية على ذكرها، والتي لقيت إجلالا عند الطوارق، نجد:

* **نحر القرابين:** لقد دأبت القبيلة في مختلف المواسم والأزمنة على نحر القرابين، سواء لقراءة النبؤات، أو لطلب الصفح والغفران، فكلما حل بلاء بالقبيلة لجأوا إلى هذا الطقس التدميري والتطهيري، فيقرأون في عظام قرابينه المسالك الصحيحة .

* **آسوفض:** تشييع المسافر أهم طقس احتفت به القبيلة، كان إذا حل ضيف على نجع، فإن القبيلة تكرمه وتغدق عليه بالولائم والجود،فإذا غادرها يكون ذلك في الصبح الباكر،والقبيلة كلها تشارك في طقوس الوداع، فيتم تشييع الضيف لمدة ثلاثة أيام وبعد انطلاقه« تتقدم

---

1 ـــ رواية السحرة . ص: 472.

2 ـــ رواية السحرة . ص: 472.

3 ـــ ينظر: محمد رياض وتار. توظيف التراث في الرواية العربية،ص: 221 .

الكائنات إلى الأمام ليقفن عسسا على الأثر، على خطو المسافر المحفورة في التراب، يمنعن قضاء حوائجه كلها، لا يرتق له ثوب، ولا يصلح له نعل،حتى يأتي اليوم الذي يزغرد فيه الأفق بالبشارة، ويزف نبأ العودة»[1] وحتى النسوة تقوم بالمشاركة في هذه الطقوس« فيمنعن الزينة عن النساء، وينهرن الحسان عن مشط الشعور،أو حبك الجدائل»[2] هذه الطقوس تقام في جو من المناحة والحزن، وإذا أرادت القبيلة شرا بالضيف، فإنها تنتهك هذه المقدسات، وتدنس الزمن المقدس بالنطق،فتحل اللعنة على الضيف ،الذي لن يعرف الخير إليه طريقا أبدا .

* **الهجرة والترحال:** إن طبيعة الصحراء ومناخها القاسي، دفع الصحراوي إلى الهجرة والترحال، فكانت الهجرة رمزا للتحرر و«خلاص الإنسان من عبوديته، وتواتراته النفسية، وحالة السأم التي صارت ترهق روحه وتسد بوادر الحلم فيها»[3] فالترحال حرر الإنسان من عبودية المكان الأشياء، وجعل الصحراء بأطرافها المترامية منفى ووطنا يحقق طموحاته .

وقد نصت سنن وشرائع آلهي الضائع على هذه الخاصية فقال:« أن المدى المديد لم يقبلهم في أرضه الواسعة إلا بعد أن رأى أنهم لا يجدون في الاستقرار لذة ولا يعرفون لهم غير الأسفار دينا»[4] فالهجرة هي دين الترقي، وحتى الزعيم في عليائه،تنقل و لم يركن إلى مكان واحد، فقد شاع عنه أنه لم يلبث في مكان أربعين يوما، وكان يؤثر التنقل في الشعاف العليا تجنبا للملل، وطردا للسأم .

وتمسك الصحراويون بهذه الخاصية، فحبهم للسفر، وذم الاستقرار، جعل الصحراء تغدق عليهم بأنفس العطايا،فكافأتهم بالترفاس، ووهبتهم السكينة التي افتقدها أهل الواحات .

* **النحت أوحفر الأسماء على الصخور:** يعد هذا المظهر من المظاهر الحضارية للمجتمع القبلي، فقد كان له بالغ الأثر في تعرف القبيلة على مآثر أجدادها وقدمائها، فقد كانت

---

1 ــ رواية السحرة ، ص: 374.

2 ــ رواية السحرة ، ص. ن .

3 ــ ملاس بناجي. دلالة الأشياء في الشعر العربي الحديث، عبد الله البردوني،المؤسسة الوطنية للفنون، الجزائر،د ط، 2000، ص: 101.

4 ــ رواية السحرة ، ص: 293 .

الكهوف تزخر بالعديد من هذه الرسوم والمنحوتات، صور لصيادين، ولقطعان ودان، وغزلان، وهي وسيلة قهر بها الأسلاف الزمن المتجبر، فكان النحت دليلا أكد حضورهم، ومنذ ذلك الحين أصبح هذا التقليد مقدسا، والقبيلة كلها تقوم بنحت أسمائها على الجلاميد الصخرية، وبطولاتها والأدوات التي استخدمتها لأنها رأت « أن الإنسان يقدر أن يقهر الموت إذا حفر اسمه على الجدار الصخري، أو سطر حكمة بجوار قطعان الودان »[1].

* **العودة إلى قبور الأسلاف:** يولي الصحراويون تقديسا كبيرا لقبور أوليائهم، وقد لجأ الصحراوي كثيرا لهذه الأضرحة طلبا للنصح،والمشورة، لأن الحكمة تقضي وتوصي بالعودة إلى القبور، حتى لو تمتع الترقي ببصيرة كبير السحرة، فالقبر أصبح يحمل دلالة ازدواجية حكمتها ثنائية الخير والشر، فاكتنز القبر قوة توجه إلى النفع أو الضرر،إضافة إلى هذا فإن العودة تعبر عن استمرار الغلاقة بين الأحفاد وأجدادهم القدماء، فقد اعتقد الترقي أن الأرواح بعد مغادرتها الأجساد والقماقم تمكنها من اكتساب قوة، تستطيع التأثير بها على الوسط الذي كانت تعيش فيه،فنظر إليها «على أنها قوة قدسية غير محدودة تصدر عن منبع كوني خفي، وإذا كانت أرواح الموتى تكتسب قوة فوق طبعانية بعد مغادرة أجسادها، فلأنها انضمت إلى المستوى القدسي للوجود الأصلي الذي صدرت عنه أصلا»[2]،"فلم يعد القبر عظام من دفن فيه،« بل أضحى تكثيف مكاني للذاكرة، وهو شكل من أشكال التواصل مع الأمس أو القبض عليه"[3] وبالفعل لم يسبق للأسلاف أن« ضيعوا ظنهم يوما، فحسموا أمرهم دائما وجاؤوا بالخبر اليقين الذي تخفيه الصحراء تحت لثام مزاجها المتقلب»[4]. ومن أجل نيل النبؤة من أفواههم، كانت القبيلة تقوم بطقوس معينة:

ولإقامة هذه الطقوس كان على القبيلة إحضار فتاة عذراء، وهو شرط عملية الاستنطاق" «إذا لم تكن الفتاة التي وقع عليها الاختيار، ورضيت الدخول على عالمهم الخفي، عذراء،فإنهم لا يكتفون بالاستفزاز اللفظي، ولا الرجم الليلي بالحجارة، ولكن على القبيلة

1- رواية السحرة ، ص: 109 .

2 ــ فراس السواح، دين الإنسان، ص: 219 .

3 ــ صالح إبراهيم، الفضاء في لغة السرد في روايات عبد الرحمن منيف، المركز الثقافي العربي، المغرب، ط1، 2003، ص: 65.

4 ــ رواية السحرة ، ص: 73.

أن تتوقع غضبة مجوسية قاسية، وقصاصا يليق بمنزلتهم»[1] وهذا ما دفع القبيلة إلى استئجار عذراء من قبيلة أخرى، مجاورة لها، فانقسم أهل القبيلة إلى قسمين، فريق منهم نصب الخيمة فوق القبر، أما الفريق الثاني، فذهب لإحضار العذراء، وأحضروا بكرا في السادسة عشر من عمرها، وبدأوا مراسم الزفاف، فتحلق النسوة حول الطبول، وشرعن في الغناء بألحان تجمع بين البكاء والفرح، وعقب طقوس الاستحمام، وطرد العيون الشريرة بالأبخرة، يقدنها إلى القبر، لتعود في العشية بجواب النبؤة، هذه الطقوس وغيرها، لقيت تعظيما كبيرا عند الطوارق؛ لأنها قربتهم من أسلافهم إضافة إلى أنها سمحت لهم بعيش اللحظة الميطيقية المقدسة .

هكذا وتأسيسا على ما سبق أظهرت الرواية بمثولوجياتها، فضاء زاخرا ينهض بمفهوم المقدس الذي مسّ جميع مكوناته، فكانت لها علاقة مباشرة مع العالم القدسي، وقد تجلى ذلك في الشخصيات أساسا(شخصية الزعيم، والرسل، والسحرة، وكل هذه الوظائف التي تقمصتها الشخصيات لقيت التقدير في المجتمع الترقي .

وقد أشبع المكان بطابع القدسية، فكانت رموزا تحمل قيما إيجابية مشبعة بالخصب والنماء والتفاؤل استوحت قدسيتها مت عالم الصحراء .

---

1 ــ الرواية السحرة. ص: 74.

الفصل الثالث

تجليات المدنس في رواية السحرة

نحاول في هذا الفصل البحث عن تجليات المدنس في الرواية، إذ امتازت هذه الأخيرة بتمفصلات إيقاعية، جعلت من عالمي المقدس والمدنس عالمين متداخلين و منفصلين في الوقت ذاته ،إذ لا وجود فيها لمقدس في غياب مدنس ولا مدنس في غياب مقدس. فهاتين الثنائيين وتضاربهما المستمر هو من صنع أحداث البرنامج السردي، و في ظلهما تنامي الصراع واحتدمت الأحداث ليولد النص زاخرا بمستويات ميثولوجية متنوعة، « تبوأ فيها الإنسان وهمومه، وحيرته وتطلعاته الموقع الأول»[1]، وبناء على ذلك تجسد العالم الدنيوي أو المدنس في الرواية كالأتي:

1-تجليات المدنس في مكونات الرواية:

أ-في الشخصيات: جاءت هذه الشخصيات لتقف على نقيض الشخصيات المقدسة، تقوم بوظيفة المعارضة، و تنطلق من خلفيات ثقافية تختلف عن الأولى، و هذا ما يجعل طبيعتها مشوهة، و من نماذجها نجد:

***وانتهيط:** من الشخصيات الرئيسة الفاعلة، و قد قام الروائي بتقديمها بصيغ مختلفة حتى يسمح لها بإقامة علاقات محددة مع بقية الشخصيات ومكونات النص، كي تنجز دورها المسند إليها تأليفيا في منظومة الأفعال الحكائية»[2]. و من تلك الصيغ التي اعتمد عليها في تقديم تلك الشخصية نجد «التقديم الذاتي، التقديم الغيري، التقديم الخارجي، التقديم الجمعي»[3].

يبدو وانتهيط من الوهلة الأولى متميزا من ناحية ملامح مكوناته، فقد كان له دور هام في تحديد مسار الحكى، و رفع قيمته الروائية، عن طريق عملية التضارب التي جمعته مع الشخصيات المقدسة و لاسيما الزعيم منها.

---

1 -عبد الله إبراهيم، "**الرواية العربية، ممكنات السرد**"، ص24.

2 - مرشد أحمد، "**البنية و الدلالة في روايات إبراهيم نصر الله**"، ص44.

3 - المرجع السابق، الصفحة نفسها.

لقد كان وانتهيط في البداية، صديقا للزعيم، و عضوا مقربا في مجلس الشورى، لا يخفي عنه الزعيم شيئا ولا يفوت عنه أمرا، وإثر نزاع غامض بينهما ظل مجهولا بين القبائل والأقوام، طرد من الفردوس ليجد في الصحراء ملاذا و موطنا أبديا له، و يتخذ من الهجرة والتجوال ضالة لشقائه. فالزعيم تبرأ منه و لعنه أمام الملأ، وبعث بالعديد من الرسائل إلى كل القبائل والأعشار لينذرهم بالبيان الشهير «لتعلم قبائل الجن والإنس منذ اليوم أن الخصومة قامت بيني و بين وانتهيط فلا أنا منه ولا هو مني، ومن أفعاله أعلن أني بريء، و إذا خدع أحد، وجاء ني يشتكي، فلا سلوى عنده عندي، ولا مواساة، وإنما هو العذاب المبين»[1].

فمنذ تلك الحادثة، التي نشر فيها البيان بين القبائل، أصبح التعامل مع وانتهيط لا يغتفر، لأنه تحدى الزعيم و أقسم أن يخرب مملكته، و كل من كان يتبعه يصبح طي النسيان، وكان الأغبياء والبلهاء وحدهم من ينتهجون طريقته و يسلكون دربه.

والمتمعن في المكونات الخطابية والوظيفية لهذه الشخصية وعناصرها اللغوية التي قدمها النص الروائي و التي إذا قام القارئ من خلال أفق توقعاته* بتجميعها وتشكيل ظلالها، فإنه يولف دلالة رمزية توحي إلى إبليس لعنه الله، و صراعه الأبدي مع أبناء آدم «فالعجائز كانت تسبه مع مطلع كل فجر وتخشاه القبيلة أكثر مما تخشى الساحرة تيرزازت»[2] كانت حكمة تلك العجائز تعي خطورة هذا الساحر على الأجيال الصاعدة، وكثيرا ما كانت تغني المراثي، وننشد المواويل، على ضياع الأجيال و شقائها إذا سارت على نهجه، فاللعنة التي حلت به و حرمته من النعيم الأبدي، جعلت الغل والحسد يشتعل فيه اشتعالا، إلى درجة جعلته يقسم أن ينتزع السكينة من الصحراء، ويحجب الهدوء عن كل قاطنيها، فحتى الزعيم وابنه الذي يأخذ رمزية

---

*يستخدم ياوس مصطلح أفق التوقعات لوصف المعايير والمقاييس التي يستعملها القراء للحكم على النصوص الأدبية في حقبة ما .ينظر:سلدن رامان،النظرية الأدبية المعاصرة، ترجمة:سعيد الغانمي،مؤسسة العربية للدراسات والنشر،بيروت، ط1،1996،ص:176.

1 - الرواية، ص56.

2 - الرواية، 37..

آدم لم يسلما من مكره، لأنه عرف كيف يتسلل إلى بيته و يحيك مكيدة بشعبه أغوى الابن بها و فتن بها بينه و بين أبيه.

أما شكل اسمه و الذي اشتهر به فقد كان، «استنادا إلى الصفة المركبة التي تميز بها تميزا خاصا» فوانتهيط عرف بحبه للأتان و تفضيلها عن بقية الحيوانات، فهو يقول:«....لو لم أقم مع الحية عهدا، وأربط مصيري بمصيرها إلى الأبد، لما وجدتني مهاجرا أبديا في الصحراء و لما لعنني الخلق حسدا و سموني وانتهيط لأنني أفضل أن أتخذ من الأتان دابة، بدل جمالكم الحمقاء»[1].

- ظننت أن الحمير أحمق دابة عرفتها الصحراء

- هئ، هئ، هئ،.. يالكم من حمقى مثل جمالكم .

فاسم وانتهيط مستوحى من دابته، التي كان يفضلها على الجمال، و التي كانت تتسم في عرفه بالبلاهة و الحمق كملاكها وأصحابها ،دابته البيضاء وسيلة تنقله كان «يأتي إلى الصحراء ممتطيا حمارة بيضاء، يلوح للخلق بالمقتضيات اللماعة التي لها بريق التبر كي يسحر الناس و يأخذهم بالبريق، فيتدافع الأغبياء و تركض وراءه الأجيال تجري وراءه الأمم، و تتبعه القبائل مأخوذة بالبريق، مسحورة بالتبر إلى أن يرميهم في الهاوية »[2] و هذا ما كان يثير فزع الحكماء والعقلاء، و يدفع العجائز على نظم مواويل الرثاء.

شخصية وانتهيط صورة لتجلي المدنس، و لكن النص الروائي يقدمها شخصية مركبة يتجاذبها المقدس من ناحية و المدنس من ناحية أخرى، أو بعبارة أخرى لنقل إنه يتوسل لغة المقدس لبناء المدنس في هذه الشخصية، ذلك أن وانتهيط هو تلك «الطبيعة التي تفعل شرا، ولكنه شر لابد أن ينقلب إلى خير»[3] فهو يقول في موضع آخر« أنا من يصير خيره شرا إذا فعل

1 -الرواية، ص396، وانتهيط: صاحب الأتان (تماهق).

2 - الرواية ص.37.

3 - الرواية، ص245..

شرا، ولكن لا يفعل الخير أبدا حتى لا يعير شرا»[1] و الملاحظ من هذين المقطعين و اللذين جاءا على لسان وانتهيط نفسه، أن هذه الشخصية محملة ومحكومة وبالضد الذي استعارته من ناموس الصحراء والأشياء الموجودة فيها، فهو يحمل كل الأبعاد و القيم، كلها، إنه مثال النموذج الآثم الذي «يرى العالم مقلوبا، و يقرأ قيم العالم مقلوبة، فأصبحت الأشياء تتداخل فيه، و القيم تتبدل

عنده، ويختلط فيها كل أمر، فيصير الخير شرا و الشر خيرا»[2].

***تيرزازت:** من الشخصيات المدنسة، فتيرزازت نذير شؤم، إذا حلت على نجع أصابه النحس السوء و البلاء، و يعني اسمها في لغة الطوارق الأرنب المشؤوم لأن الساحرات اعتدن أن يتخفين في جسد هذا المخلوق الصغير، و قد جاء النص السردي على ذكر بعض ملامحها الجسدية «كانت تنتصب على قائمتيها الخلفيتين، تضم يديها الأماميتين على صدرها، من اليد اليمنى تبدي مخلب أزرق، كسبابة وعيد، و تبدى و تمدد حتى لامس شعرة شريرة من شوارب نادرة، طويلة متناثرة حول خطم كريه يزم شفتين غليظتين على هاوية بشعة فيها تختفي أنياب أشرس من أنياب السباع، الأذنان مسترخيتان، مستلقيتان إلى الوراء والعينان جاحظتان، ساخرتان لئيمتان، و تتسمان بالشر»[3] فمن خلال الصيغة التقديمية التي قدمها المقطع يتضح أن تيرزازت تحمل من السمات الأسطورية الشيء الكثير إذ تتصف بالبشاعة على المستوى الجسدي أما روحيا فهي« تتبدى وديعة، خائفة لتنقذ نفسها من الضحايا الذين جاءتهم بالبلاء، لأن حكمة السحر علمتها أن البلاء لن يتسلط، و الفعل لن يأتي مفعولا إذا فشل الجلاد في استعارة دور الضحية و لم يستطع أن يتنكر في جلدته»[4] تيرزازت هي رمز لعدم الدقة لأنها نقلت رسالة

---

1 - الرواية، ص501.

2 - ينظر، إبراهيم الكوني، **الرواية و الخطيئة**، مجلة فصول، ص158-159

3 - رواية السحرة، ص 602 .

4 - رواية السحرة، ص ن.

آمغار معكوسة فنالت الجزاء و حملت وزر فعلتها، التي ما انكفأت أن نقلتها إلى المخلوق الشقي،، «نالها بالمسعر في خطمها انشقت الشفة إلي ضلفتين ففرت من أغرم نودادن لتنقل ضمغة الزوال إلى مخلوق الصحراء»[1] إلا أن هذه الساحرة وجدت ما تدافع عن نفسها فهي تقول:« إنها لم تفعل شرا، و لم تأتي بوباء، و إنما جاءت بالنبأ الحق، وتقسم "بوانتهيط" الذي علمها السحر أنها لم تستهجن أن يلعنها الخلق، لأن اللعنة هي أقل جزاء يصيب من أخبر بالحقيقة و بشر المخلوق بالخبر اليقين»[2]، ذلك أن الناس لا يستمرئون إلا الكذب، فحياتهم لا تستقيم بدونه.

كانت تيرزازت أول ما شاهده جبارين، فما إن فتح عينه حتى« وجد ها تقف فوق رأسه بذلك القد المشدود، بتلك المقلة الخفية، أدرك أن الملك تبدل، و الزمان أكتئب، و الحظ استدار و أعطاه القفا» [3] و بالفعل وقع البلاء، فمنذ ظهور الساحرة الشريرة، حلت اللعنة على رأس القطيع الذي بدأ في التساقط بالآلاف، و من دون علل أو أسقام أصابتها.

3- وانتكرباست:شخصية حملت سمات الدنس، فهي محكومة بالشر، عاثت في الأرض فسادا وملأتها هولا كان سببا في تشتت القبائل إذ هب كالإعصار عندما قرر أن يستولي على الصحراء ويستأثر بالكنوز كلها، لا يعرف أحد من أين أتى "[4] فأيادي جنده لم تترك مكانا إلا وطالته، قطعوا الطرق، و نهبوا الإبل، و استباحوا نساء الفلاحين، و انتهكوا كهوف الصحراء.

وقد قيل الكثير عن قوة هذا الغازي، و تروي القبائل أن سر قوته كان يكمن في تعويذة زوده بها ساحر غامض، فعقب كل غنيمة كان وانتكرباست (صاحب القميص)، ينحر قطيعا من الأنعام، و يرتوي من اللابقي حتى الثمالة، و ينهي يومه بترنيمة جنائزية تتلى حتى

---

1 - رواية السحرة ، ص:602.

2 - رواية السحرة ،ص 403

3 - رواية السحرة ، ص601

4 - رواية السحرة ، ص763.

يغفو، كان نصها "لقد عاش دنياه" فينهض السلطان أقوى مما كان عليه و يرجع الفضل لكلمات التعويذة السحرية التي وهبته القدرة على أن يموت كل ليلة، ليولد في الصباح و قد نال حياة جديدة و لكن الحال لم يدم على حاله، فقد استطاع ساحر غامض أن يقلب التعويذة التي كانت سببا في ضعفه، وعوضا أن يزفوه إلى فراشه بطقوس جنائزية، زفوه في جو مليء بالفرح، لقد بدأ يعيش دنياه"، و لم يتوقفوا، فانقلب حال وانتكرباست، وأصابه البلاء الذي عجز السحرة أن يعرفوا له سرا.

4- بوشا :طفل الخطيئة، لأنه من سلالة شقية، أرادت الأم أن تسترد به النسل الضائع، وتملك به الأرض التي عرفوا فيها النبل و السماحة، لأن الخلق قد جربوا أن«الأخت إذا أخذت النسل من صلب أخيها و أصبح الخال للابن أبا فسدت الأرض، وحل الجدب و عم الخراب »[1]، و هي لعنة أرادت "هابا" أن تدخلها إلى آزجر لتنتقم . هذه العلاقة محرمة في عرف الناموس وشريعة الصحراء، "فتانس"، و "أطلانس" انتهكا الناموس بفعلتها و لكي تبقى القبيلة بخير، قرر السحرة إلحاق الابن بالسلف، فذهبوا يعقله، وخلفوه كالأبله يتخذ من الشقوق مسكنا، ومن نباتات المرتفعات قوتا يقمع به جوعه، و من مطاردة آمغار الجد الأول حرفة له.

5- أتباع وانتهيط و رسله المزيفون: سخر وانتهيط رسلا لخدمته و مساعدته في مهامه، هؤلاء الرسل كانوا من أهل الخفاء، استطاعوا أن يخدعوا أهل الصحراء، فنقلوا إليهم الأخبار المزورة، و كان هؤلاء الجند قد « ارتدوا مسوح الرسل، و زوروا الختم في الرقع، وأقبلوا عليهم بالبلاغ الكاذب»[2]، فقلبوا الوصايا و حرفوها وحملوا ختم الزعيم في عيونهم وعلى رقعهم و وصايا وانتهيط على ألسنتهم.

---

1 - رواية السحرة، ص 168.

2 - رواية السحرة ، ص794

و حتى رسل القرعة شكك في أمرهم "بورو"، فهم أهل للمكر و الكيد، و كان يخشاهم أكثر من الساحرة تيرزازت لأنهم لؤماء لذا ارتأى أن يتبعهم حتى لا يغفل عنهم قال:«أهل الكيد يستطيعون أن يضللوا الزعيم نفسه»[1]، و لاسيما بعد أن استبدلوا أعواد القرعة، و وقوع الاختيار عليه، هذا الأمر جعله يحدث جبارين عن مكائدهم و خدعهم فقال :

« لا تنس أنهم من أهل الخفاء، في الخفاء يرون الخلق و لا يراهم الخلق فيستطلعون مبكرا، يستطلعون و يستخبرون، و يطلبون حتى إذا وجدوا ضالتهم، نصبوا الفخاخ، و أعدو الأشراك، و دبروا المكيدة» [2].

و ذلك لاصطياد ضعاف النفوس في كل مرة يحين فيها الميعاد و يقام الحرم لابد «أن ينصبوا كمينا ليأخذوا الإنسان قربانا»[3]كما حصل مع خبذا الذي لم يحتمل الجور الذي وقع عليه فانتحر، و في اعتقاده أنهم أطلقوا الجواسيس وراءه حتى يتبينوا أمره، بعد أن وقع عليه الايغايغان، ولكن بورو لم يستسلم لأنه استلقى تحت طلحته، برفقة قرينه، وبدأ يدندنان لإغاضة الرسل والجواسيس.

وكان الجن أيضا من الجند المسخرين لخدمة "وانتهيط" يتنكرون في ثياب الرعاة أو أثواب النبلاء، و ذلك لنصب الفخاخ للقبائل و العابرين و هو ما حصل لجبارين، ففي إحدى المرات تنكروا له في أثواب الرعاة و قالوا له:" مساك ملت" فازت بالسيول و قد فعلوا هذا من أجل تضليله، و لكن جبارين لم يقع في الفخ لأنه احتكم لرأي ناقته التي هدته إلى المسلك الصحيح وأنقذت حياته أكثر من مرة.

6- تانس الملقبة ب "هابا": "تامدمورت" الذي حولها الحقد إلى غولة لاحقت أكا حتى تستعيد نسلها، بعد أن فر به، حتى ينقذه من براثن السلالة الشقية، وفي هذه المغادرة استردت ابنتها التي تحولت بدورها إلى غولة مهولة، فتخلى عنها الأب و فر مع الابن، و من

1 - رواية السحرة ص815.

2 - رواية السحرة ، ص829.

3 - رواية السحرة، ص829.

أجل الانتقام حول "وانتهيط" الابنة إلى حسناء، استطاعت أن توقع أخاها في حبائلها. هذه الشقية أدخلت أيضا معدن النحس إلى الصحراء، «فكان على العقلاء أن يصدقوا في النهاية أن السوار الذي لمع على معصم الأميرة أيضا مسبوك من معدن النحس، في قلادة التمائم التي تنام على صدرها ليست محفوظة في رفع الجلد أو قطع الفضة وإنما من نفس المعدن المشؤوم و حتى الخواتم، التي كانت تتغامز و تتلألأ على أصابعها، كانت مصنوعة من العسجد»[1] فالأميرة المزيفة خالفت شرائع أهي الداعية إلى تحريم التعامل بالمعدن المشؤوم، فتوقع الحكماء الذين استنكروا الأمر شرا، سيلحق بالسهل، و بالفعل حصل البلاء، و ازدان فراش تانس بطفل من صلب أخيها، و بعد أن ارتفع صوت الوليد بصرخة الاستهلال، لفظت أنفاسها الأخيرة و أتمت المهمة التي أوكلها لها "وانتهيط".

في نفس تلك الليلة نزل رسل، خلصوا السهل من الكثر من الدنس، فلم يتركوا قطعة إلا وأخذوها معهم.

ب- الحيوان:

***الحية:** هي من الشخصيات الرئيسة التي كان لها حضور قوي على مستوى النص السردي فجاءت محملة بوهج أسطوري، زاد و كثف من دلالاتها السميائية، والحية عرفت برمزياتها المتعددة فوجودها استقر في الذاكرة الإنسانية منذ القدم، وموضوعها طرحته مختلف الأساطير و الملاحم، و لعل أهم موضوع ارتبط بوجودها تجلى أساسا في المعصية، فقد كانت سببا في هبوط آدم من الجنة، «لأن آدم أعطى الخلود يوم خلق بينما لم تعطه الحية»[2] و هذا ما تؤكده الأساطير الترقية التي تقول: «جاءتني الحية بعد أن أغوت سلفكم ابن آدم، و أدخلته

1 - رواية السحرة ، ص 145.

2 - الشريف بموسى عبد القادر، الاغتراب في حكايات ألف ليلة و ليلة، مقاربة نفسية، اجتماعية، رسالة ماجستير مقدمة لنيل شهادة الماجستير في الأدب الشعبي، إشراف: د. شايف عكاشة، تلمسان، 1996-1997، ص 137.

الحرم الحرام، يغادرها الإله، و تلاحقها اللعنة. كانت إنسانا ماردا برجلين و يدين، و لكن الله قد أنزل بها قصاصا، و نزع بصرها.. »[1].

وعقب الخطيئة التي ارتكبتها تخلصت من قامتها، عقدت صفقة مع الخنفساء المقدسة فقايضت أرجلها و يديها بأعين هذه الأخيرة بحجة أن الحية لها أعداء كثر أما الخنفساء فلا أعداء لها، و لكن الحية فعلت هذا حتى تنال الغفران.

و تذكر رواية السحرة أن الأرض هي التي أنجبت الحية، حتى تستعيد بها دميتها الضائعة التي صغتها من بدنها، و لكن ماردا من الجن اختطفها، و طار بها إلى الأعالي،إلى وطن الزعيم، فأصاب الأم الحزن « و اشتد بها السقم و الظمأ، ناجت طويلا على وليدها الفقيد (....) تابع تحولات الشقاء على وجهها، مضت تتيبس، و تتغضن و تهرم، و تهرب منها الحياة»[2]، حتى استحالت إلى صحراء، و كان وانتهيط لا ينفك عن مراقبتها، خاصة وأنه سمع بقصة فقيدها، فتحايل عليها و دس المكائد في رأسها، فحدثها عما فعله الزعيم بدميتها، قال: "أنت لا تعرفين حيل الزعيم« يا أرضي الجليلة، لقد نفخ في الدمية أعطاها من نفسه فصارت تمشي وراءه تدب على قدمين....»[3] أذهلها قوله، ثم ما لبث أن أقنعها بصنع بدن يستطيع به دخول الحرم، فيستعيد الدمية و ينتقم لنفسه، فقال: "....إذا أبدعت في صنع البدن كما أبدعت في خلق الدمية فإني سأعرف كيف أخدعهم، و سأجد السبيل إلى الدمية التي تتسكع الآن هناك على قدمين». [4] فاستفسرت الأرض عن أوصاف هذا البدن، فانطلق وانتهيط في وصفه.

«الأنسب أن يكون منسابا، مرنا، رقيقا، لطيفا، صقيلا، ناعما، بلا أرجل، بلا أيد، بلا عظام، بلا رأس، سهل الالتواء، يستطيع أن يتكتل و يسترخي و يناور، و يداور، و يستدير ليستحيل كتلة واحدة، كرة واحدة. يزحف أرضا، يلج الشقوق و الجحور. لابد أن يكون بدنا

1 - إبراهيم الكوني، رواية السحرة، ص 470.

2 -رواية السحرة، ص 278.

3 - رواية السحرة ، ص 279.

4 - رواية السحرة ، ص 279.

تافها في حجمه و لكن لابد أن يمتلك سلاحا خارقا للدفاع عن النفس»[1] و بالفعل استطاعت أن تبدع الأرض هذه الأعجوبة التي دخل بها الأرض المقدسة، و أخرج بها الدمية من النعيم، بعد أن أغوته الحية بجسدها المركب من الثالوث الأنثى، الحية، و وانتهيط، هذا الجسد الذي اكتسب دلالة الدنس و الزيف، فلم تنكفئ ولم تكف حتى أذاقت الدمية البلهاء من العشبة المحرمة التي كانت سببا في خروجه من الحرم المقدس.

إضافة إلى هذا استحوذت الحية على مجموعة من الرموز، و حفلت بمجموعة من المفارقات الدلالية التي زادت من تكثيف ايحاءاتها الرمزية، لتصبح من أفضل الأفضية الرمزية خصوبة بالنسبة لجميع الكتابات، و من نماذج تلك الرموز التي استأثرت بها الحية على مستوى النص الروائي نجد:

الحية رمز للخوف: أكثرها يثير الرهبة و الخوف في نفس الإنسان هو هذا الجسد المنساب على بطنه فالحية هي ألذ أعداء الإنسان،« فآثارها وحدها تكفي لإرهاب القبائل، الغضون التي تحفزها بجسدها، و هي تنساب كالسبيل على الرمل، تكفي لإنزال الفزع في قلوب الفرسان و تكفي لإصابة"إيركا يتادم" بالشلل »[2] والحية في هذا المقطع تأخذ رمز الخوف و المكيدة، التي استقتها من الداهية و معلمها في السحر وانتهيط، فجعلها علامة من علامة الموت.

الحية رمز أرضي: الحية هي ابنة الأرض، و وليدتها، تستوطن جحورها، و تلج شقوقها وتغيب في أعماقها و ظلماتها، هذا الأمر هو من أضفى عليها هذه الرمزية، و هو مفهوم شائع عند أغلب الشعوب، « ذلك أن هذا الحيوان من جهة داخل في تماس مع العرض بكل جزء من جسده، الأمر النادر وجوده في المملكة الحيوانية، و من جهة أخرى يغيب في بطن الأرض عدة

1 -رواية السحرة، ص 279-280.

2 - رواية السحرة ص 278.

مرات في اليوم، و يبقى في الأرض كل الليالي و كل الشتاء »[1]، لذا جعلتها الأرض حارسا لكنوزها و أسرارها.

الحية رمز للمعرفة و الحكمة: من الدلالات التي سيطرت عليها صورة هذا الحيوان، رمزية المعرفة و الحكمة «فالأرض التي تلد الينابيع، و القادرة على أن تعطي الغابات و أن تخضوضر و تزهر دوريا و بخاصة التي تغذي الحيوانات و البشر، محولة الحبة إلى سنبلة غنية كانتا في نظر القدماء تمتلك علما و أسرارا و باختراق الثعبان لجوف الأرض، ينتزع أسرارها، و يصبح عند بعض شعوب الشرق رمز المعرفة فالعلم و الحكمة بمضيان سوية،»[2] و حكمتها جعلتها لا تقتات إلا على المخلوقات التي تحمل المعرفة في جوفها، لأن الفرائس الخالية من السر كانت تسبب لها الغثيان، و قد اختارت الحية الفأر وليمة لها لأنه: «يستطيع أن ينافسها و يذهب في سفر مجهول إلى الظلمات»[3] و كانت تختار الفرائس المحملة بالسر حتى تستزيد حكمتها ومعرفتها «فابتلاع مخلوق حمل لها الوحي و ألقى في قلبها بشرر الإشارة عمل أكثر متعة من ابتلاع الكائنات البلهاء المسكونة بالفضول المميت، الكائنات الجوفاء التي لا تحمل رسالة، و لا تكتم سرا، فالمخلوق الذي يطيب ابتلاعه هو المخلوق الذي وضعت الأرض فيه سرا (...) الحية لا تحيا بالمخلوق وحده، بالطعام وحده، و لكنها تقتات وحيا مع اللقمة، مع بدن المخلوق»[4] وهذا ما زاد من حكمتها لأنها تعلمت أن تستزيد من الأسرار، و تبتعد عن الأشياء الجوفاء التي لا طائل منها ولا منفعة.

إضافة إلى هذا الحية أذهلت الأرض بذكائها و حسن تدبيرها، فأرادت أن تسترجعها من وانتهيط بعد أن تنكر لها وليدها و فقدت الأمل في رجوعه إلى أحضانها، فلم تجد الأرض غير الأعجوبة التي صنعتها لتكون عزاء لها، «لم تلجأ الصحراء للاستحواذ على المخلوقة الحكيمة

---

1 - فيليب سيرنج، الرموز في الفن و الأديان، تر: عبد الهادي عباس، دار دمشق،، سورية، ط1، 1996ص 117.

2- - رواية السحرة ، ص 197 .

3 - رواية السحرة ، ص 197 .

4 - رواية السحرة ص 284.

بحثا عن الغراء وحده أو طلبا لملء الفراغ الموحش الذي تركته الدمية الضائعة التي خسرتها إلى الأبد، و لكنها تنازعت الحية مع وانتهيط بسبب الخصال، فلم تعرف الصحراء كائنا واحدا منسابا، مرنا، رقيقا،(.....) و برغم هذا البدن التافه الذي صار مثالا في الرخاوة و المرونة والاسترخاء، إلا أنه يملك سلاحا أفتك من كل الأسلحة التي عرفتها الصحراء و هذا السلاح ليس السم الزعاف كما سيعتقد البلهاء من أحفاد الدمية البلهاء و لكنه الدهاء»[1] فدهاء الحية أثار إعجاب الأرض لذا حاولت استرجاعها، و لكنها فشلت، ومن حكمتها أيضا أنها شقت لسانها إلى شطرين حتى لا تبوح بأسرارها لأنها أدركت من دون المخلوقات أن اللسان لعنة والكلام مستنقع للدنس.

الحية رمز للشباب و التجدد: عقب عودة "تامنضال" من الرحلة الموعودة ونجاحها في المهمة التي صتعت من أجلها، حصلت أعجوبة أدهشت الأرض و أثارت تساؤلاتها التي أضحكت وانتهيط فأجابها: "إنها تبدل جلدها، أنها تجدد نفسها، إنها تبتدع الحياة هذا السر نالته من الرحلة لأنها أكلت من العشبة السحرية و قد نالت هذه الرمزية أيضا لأنها : « تنبثق من الأرض في كل ربيع مع تجدد النبات»[2] وعملية الانسلاخ التي تقوم بها دوريا رمز القدرة على الشفاء لأنها تتحول و تتولد باستمرار.

الحية رمز للحياة و الخلود: إضافة إلى دهاءها وحنكتها، اقترن مفهوم الحية بالخلود والحياة فقدرتها على تجديد شبابها منحها سمة الحياة الأبدية، فبصنيعها هذا قهرت الزمن ألذ أعداء الحياة، وقضت على جبروته و سطوته. واسم الحية مشتق من الحياة نفسها، فبمساعدة الحية نال وانتهيط الحياة، فكان لا ينفك عن ترديد: «و هي لابد أن تبدل جلدها كي تبدع السر، كي تبث الأنفاس بالتميمة كي تصنع المعجزة كي تخلق الحياة و هي لن تستطيع أن تحقق الحياة إذا

---

1 - رواية السحرة ، ص 285.

2 - فليب سيرنج، معجم الرموز في الفن و الأديان، ص128

لم تقهر عدوا اسمه الزمان»[1] فالحية هي إلهة الحياة، لقدرتها على الانبعاث و التجدد لذا اتخذها وانتهيط قرينا و جعل لها مستقرا أبديا في عصاه، لأن الجسم الذي يتبدل و يغير جلدته هو الجسم الوحيد الذي لا ينفي و لا يبيد لأن سرا اسمه الحياة قد بث فيه مبدأ البدء »[2] و هكذا نال الثعبان سمة الحارس، حارس الخلود، و الحياة لذا ارتضته الأرض حارسا لكنوزها، و قد وهبت الحية سمة الخلود لأنها تستمد السر من النبع فهي تتزود بأنقى و أنفس الكنوز من أعماق الأرض، و«حكم على الإنسان بالغباء الأيدي لأنه بحث عن السر في الأشياء و نسي أن حقيقة الأشياء في ظلال الأشياء يقوم إلى الحية فيقتلها و ينسى أنها لم تسمى حية إلا لأنها اختلست من الإنسان الحياة»[3] فكان الإنسان بغبائه ألذ أعدائها فبدنه كان يصيبها بالدوار، و هي ترى أنه مخلوق لا ستحق الشفقة على الإطلاق.

الحية رمز للشر: تعد الحية من أمكر الحيوانات وأشدهاحيلة، فهي تأخذ رمزية "الشر والشيطان»[4] لأنها قادت آدم إلى الشجرة المحرمة فأخرجته من النعيم الأبدي، وتحمل في النص الروائي رمز الشر لأنها اقترنت بوانتهيط الساحر الملعون.

وفي الأخير، يلاحظ أن الحية احتوت عدة دلالات جمعت بين الإيجاب والسلب ولكن ظلت العلامات السلبية و المأساوية هي السمة الغالبة عليها ذلك لأنها ارتبطت بأكبر بؤرة سلبية في النص الروائي ألا و هو وانتهيط.

الصرد: طائر مشؤوم يقف على الطرف الآخر لطائر البشارة، هذا الطائر يرتبط في الذهنية الصحراوية بالخراب و الهلاك، لأنه «لا يظهر في نجع إلا و حل فيه الوباء، و لا يترل أرضا إلا و نالتها المجاعة، و لا يوقوق على مسمع قبيلة إلا هاجمها الغزاة أو مات فيها الزعماء»[5]

---

1 - رواية السحرة، ص 285.

2 -رواية السحرة، ص 281.

3 - رواية السحرة، ص 215 .

4 - فيليب سيرنج، معجم الرموز في الفن و الأديان، ص 125.

5- رواية السحرة، ص42.

فالإيحاءات التي ارتبطت بهذا الطائر، ارتبطت أساسا بدلالات سوداوية تجلت في الموت و الجدب و المجاعة و الفناء.

1-البومة: من الصور الحيوانية التي ارتبط حضورها بدلالة الحزن و الشؤم فهي تأخذ أيضا رمزية المكيدة، لأنها مسكن للجن ،و الجن عرفوا بشقاوتهم و حيلهم التي أرهبت القبائل «وفجأة نعقت البومة، نعقت في مكان ما فوق رأسه، و سمع ضحكة مكتومة، تناول حجرا، ورماه إلى أعلى باتجاه الساحرة المشؤومة »[1] فبمجرد أن سمع صوتها، توغل إلى نفس " بوبو" الحزن وشعر بالفزع يتسلل إليه، لأن حضورها مقرون بالخديعة والمكر.

2-الأرنب: استدعى النص السردي صورة الأرنب بوصفه علامة رمزية توحي بالمكر، فالأرنب هو« رمز لعدم الدقة، و رمز للجبن و النذالة، إنّه رمز السحرة، فحسب خرافة من القرون الوسطى أن الساحرات يتحولن إلى أرانب برية... كما يمكن أن يكون الأرنب البري رمزا للمذنب»[2] كما أن معظم الشعوب القديمة كانت تتشاءم منه وتحمله مسئولية إخراج الإنسان من الفردوس، «أمّا الطوارق فقد بلغ تشاؤمهم حدا جعلهم يحرمون ذكرها بالاسم لأن النطق بالاسم استدعاء لها، ويصرون على أن يذكروها بأسماء مستعارة»[3].

3-الجدي: ارتبطت صورة الجدي هي الأخرى بدلالات سلبية، فالجدي يأخذ رمزية « المذنب و رمز القذارة و الشيطان»[4] فقد كان الجدي وسيلة وانتهيط التي قضى بها على قطيع الزعيم، واستدرج به هذا الأخير إلى حتفه، فالجدي كان يحمل بين فكية أنيابا، « ضرع تاملالت مضروب بالناب، الضرع ما زال يترف. الناب الذي رأيته بين فكي الشقي هو الذي أصاب الضرع، ألا ترى أن فكيه أنياب ثعبان»[5] فالجدي تحول إلى مسخ أباد بها القطيع كله،

1- رواية السحرة، ص255

2 - فليب سيربنخ، معجم الرموز في الفن و الأديان، ص 78.

3 -السحرة، ص 23.

4 - فليب سيربنخ، المرجع السابق، ص 76.

5 - رواية السحرة ، ص 628.

وتركه كالعهن المنفوش، يغطي كل السهل ، واستطاع به وانتهيط النيل من صاحب القطيع الذي تباهى بماله الشريف، و ظن أنه حقق البلغة ،يقول وانتهيط: « لا مكان للصغار في حضور الكبار رسالة المسخ انتهت عندما ألقى بك بين يدي بعد فراقنا الطويل، لم يدخل الجدي لك قطيعا إلا لسبب أراك له ناس كما لم يفر الجدي هاربا إلا لكي يقودك إلي»[1] فالمسترعي قضى نحبه على يدي وانتهيط و خسر الرهان، لأنه تحداه و قد نصت التعاليم على عدم جعل وانتهيط خصما لأي كان مهما كان الأمر بسيطا، قوقع في قبضته لأنه كبقية الخلق لم يفهم سر الملكية، فضل السبيل ووقع في الفخ.

أهم ما يلاحظ في الأخير، أن النص السردي تموضعت داخله علامات حيوانية ارتبطت إيحاءاتها بالسلبية، لأنها لم تخرج عن دائرة الساحر اللئيم واكتسبت تشكلاتها دلالات مأساوية تجلت في الموت و الجدب و المكر و الخديعة.

المكان المدنس: تتمثل الأماكن المدنسة في رواية السحرة في الأماكن غير المألوفة، ولاسيما تلك التي تستوطنها الجن و العفاريت.

هذه الأماكن تثير الخوف و الفزع في نفوس القبائل لأنها غير مأهولة لذا فهم يتحاشون الاقتراب منها، لما يلفها من غموض و سواد و ما يصبغها من مفاجآت غير سارة و في العموم هذه الأماكن هي أماكن مغلقة، و العلاقة التي تربطها بالشخصيات هي علاقة انفصال، و من أهم الأماكن المدنسة و التي جاء النص الروائي على ذكرها نجد:

*آير" أو "**تينري**" أرض مدنسة، مبعث على الشؤم لأن الطائر السحري ورسول الصحراء مولا، مولا هجرتها، فحلت بها (الأرض)اللعنة، و وقع عليها البأس والشقاء، لذلك يتشاءم المسافرون منها، لا« لأنها أرض تنقطع فيها آبار المياه لمسافة تزيد عن الشهر، و لكن لأن

1 - رواية السحرة ، ص 639.

مولا مولا هجرتها في قديم الزمان»[1] و ذلك بسبب البخل الذي كبل أبادي القبائل فجعلهم يرفضون اقتسام الطعام مع طائر البشارة.

***مواقع المعارك:** كل أرض سالت فيها الدماء، استوطنها الجن، و جعلوها أحب وأفضل مكان لهم، و كل من انتهك حرمة هذا التل، أو تعدى عليه بالمس، سلط عليه الجن القصاص، و هذا ما حصل للمهاجر الذي أغشته الظلمة، فلم يدر أين يبيت، فوقع في الشرك، س«فما أن أنزل اللثام على عينيه، و أعطى ظهره للأرض حتى أحس بأجسام صغيرة، كثيرة، كثيرة، غريبة، مرنة، و لكنها تنفث في قفاه أنفاسا حارة، لم يتحرك حبس أنفاسه، و تنصت لم يسمع صوتا، لم يسمع سوى أنين السكون الخالد. و لكن الأجسام استمرت تنفث الأنفاس الحارة، سكن، لم يتحرك، و لكن الأنفاس تمادت فنفثت سائلا لزجا كأنه المخاط. تحسسه بيده فغرقت أصابعه في اللعاب المقزز. تحت السائل اللزج كمنت الأجسام الصغيرة التي تشبه الأنوف، أنوف، أنوف»[2] فزع المهاجر المسكين الذي خانه ضوء القمر، فحيثما وضع يده وجد أنوفا ثم ما لبث أن "سمع ضحكة مكتومة، نطق المارد إثرها شعرا: «ايطيسن فول، تيمهاز، أيضس أن يسحرو، تيهار" من استهتر وهجع في مواقع السلف، حيثما وضع يده يعترضه أنف »[3].

لكن المهاجر تفطن للمكيدة، فتسلح بالمدية التي أرهبت قبائل الجن و أرضختهم، فكانت الحد الفاصل بينه و بين شقاوة المارد هنا تكلم غريمه بالنبوءة، « أعترف أنك غلبتني، سأبرهن لك على ذلك بعطية صغيرة في الصباح وجد المسافر أنه كان يتوسد قلة فخارية قديمة مليئة بماء التبر»[4] .الظلمة كانت سببا في نزول المسافر بالحرم المقدس (بالنسبة للجن)، وتوسده

1 - رواية السحرة ، ص 42.

2 - رواية السحرة ، ص 258-259.

3 - رواية السحرة ، الصفحة نفسها.

4 - رواية السحرة الصفحة نفسها.

التبر الذي حرمه أهل الصحراء على أنفسهم، جعلته عرضة لشقاوة المارد المسخر لحراسة الذهب.

***الرماد:** حياة البدو لا تستقيم من دون نار، و مخلفات تلك النار أي الرماد، كان يستوطنه الجن، فهو مكان مقدس بالنسبة يهم، و كل من سولت له نفسه الدخول إليه ناله العقاب و وقع على رأسه البلاء .وهو ما حصل للراعي الذي نزل سهلا عاريا بعد سفر يوم شاق، «لم ير أنه يتوسد رمادا خلفه الأولون، و اتخذت منه قبائل أهل الخفاء وطنا. كان يستغرق في النوم، يستنشق أزاهير الرتم في الحمادة يقلع الترفاس، و يقرص نهود الصبايا في مراعي الربيع، عندما تلقى على وجهه صفعة قاسية فز لها واقفا اختفت أشجار الرقم المجللة بالبياض و تبدد المذاق الترفاس، و سافرت الصبايا... »[1] تبدد كل ما كان يحلم في ومضة و وجد نفسه يقف وحيدا في الصحراء و السكون و الظلمة يحيطان به، لكن آثار الصفعة لازالت تحرقه، بحث يمينا، و شمالا، أراد أن يتبين الأمر و خيل له أنه يتوهم ؛جلس على الأرض حينها «اكتشف شبحا يتشح بأسمال سوداء، يتربع في مواجهته، أدهشه كيف لم يتبين الضيف و لكن أمر الجن لم يخطر له على بال »[2] و بعد حوار بينهما ساء له فيه الجان عن نسبه بلهجة متوعدة، أمره فيها بالخروج، هنا اكتشف الراعي سلالة الضيف، «في تلك الومضة وجد أن هامة الشبح بدأت تنمو، وتتمدد وتعلو ظلت تطول و تعلو حتى غابت في السماء الظلماء، لحظتها أدركته القشعريرة، و فهم كل شيء ولكن بعد فوات الأوان»[3] هنا ارتأى المارد أن يداعبه، «فجرده من اللثام بضربة واحدة، ثم أمسك بأذنه اليمنى و جره على الأرض مسافة طويلة، أخرجه من الوطن بالقوة، و ألقى به في أرض أخرى، تتمدد فوقها سماء أخرى»[4]، لكن الراعي عاد إلى المكان لاسترداد جمله الضائع فوجد « مخلفات الرماد وآثار المقابر فأدرك كم كان ظالما

1 - رواية السحرة ، ص 256.

2 - رواية السحرة ، ص257.

3 - رواية السحرة ، ص258.

4 - رواية السحرة الصفحة نفسها.

ومتهورا إذ نزل أرض الأغراب، و هجع دون أن يقرأ التعاويذ »[1]، و هذا كان مصير كل من توسد أكوام الرماد دون التحصن بتميمة أو قراءة تعويذة.

***آغرم نودادن:** أو الغابة الحجرية، مكان سديم و مخيف، يتجنبه المسافرون، ولا يقترب منه الرعاة لا يسمح لأحد بدخولها، أو انتهاك حرماتها، هي مملكة الودان، عبارة عن غابة حجرية تتكاثف فيها الظلمات، و كل من يدخل هذا المكان لا يجد طريقا يعود به إلى الصحراء، فمن خلال الوصف السردي يتضح أن هذا المكان هو مكان تغلب عليه السمات الأسطورية وذلك لأنه مكان «ينعدم فيه منطق التآلف و العيش والتداول الحيوي بين الأشخاص المتعين حضورهم دائما في المكان على نحو دائم وشامل وكلي»[2]هذه الأرض «تقف المغنيات الساحرات على بابها عسسا، لينشدن أشجى غناء»[3] يستدرجن به الغابرين والرعاة لذا نجد القوافل تفر وتبتعد عن أفضيتها والمسالك المؤدية إليها.

***السهل:** إن الإنسان مخلوق عاجز لا يهوى ركوب الأخطار، و يرى الكوني وحكماء القبائل أن السبب في تفضيل السهل و استهواء العيش فيه هو الوعورة التي يتجنبها الإنسان، و ما السهل هنا إلا رمز لتلك المادة التي تثقل كاهل الإنسان، و استطاعت بجبروتها أن تغلف روحه، و تقعده عن طلب السمو فهو يقول: «الوعورة.الوعورة. هي السبب. القبائل لا تنزل الأرض إلا إذا كان سهلا. كان السهل دائما وطن الخلق المفضل و حتى إذا تجاسرت قبيلة و تسلقت الجبل لتعبر كما فعلت القبيلة الجبلية الشقية انقطع الحبل في منتصف المسافة، لتجد القبيلة نفسها معلقة في الهواء»[4] فالقبيلة الوحيدة التي قطعت المسافة ، و وصلت إلى الجبل ، هو الودان، الذي تحرر من سلطة الشهوة والنوازع المادية، و كل من يستوطن السهل ،و يستسلم لجبوزته هو مخلوق شقي لم يتذوق ولن يتذوق طعم الحياة التي جبلت بالقمم العالية لأنه موطن

---

1 - رواية السحرة ص:258.

2 - محمد صابر عبيد ،سوسن البياتي ، جماليات التشكيل الروائي ، ص 237.

3 رواية السحرة ، ص 848 .

4- رواية السحرة ، ص674 .

الخطيئة، ففي رواية المجوس يؤكد الكوني هذه المقولة:" إن القمة معصومة من الخطأ، وهي إذا أظهرت المكابرين كدمي فإن تلك هي الحقيقة، السهل هو الذي يزيف الناس و يحولهم إلى وهم و أولئك المندفعون الجادون في نشاطهم أكثر من غيرهم يبدون مضحكين لأنهم في الواقع أراضي، واهمون أكثر من الجميع، وأودعوا أرواحهم في قبضة الشيطان.

"الجادون لقمة أسهل على إبليس، وكما الجبل محراب الآلهة، فإن السهل مملكة الأبالسة»[1] إن الدلالات السلبية الواردة في هذا المقطع جعلت السهل مكانا للزيف، والوهم الذي كبل عقول الناس، فجعلهم دمى مضحكة سقطت في قبضة الشيطان، و لا مفر من ذلك إلا في صعود الجبال و الاقتراب من محراب الآلهة.

***الزمن المدنس:**

-اللحظة الآنية :(الحاضر) كثيرا ما كان يتذمر" بورو" من وجوده في الحاضر، ولا ينكفيء من الحديث عن الماضي و إشراقاته، و زمن الأجداد الأول في الواحة المفقودة، وتمنى لو أنه ولد في ذلك الزمن، لأنه زمن ينعدم فيه الشقاء، ففي كل حديث له مع بوبو كان يستأثر أمجاد الماضي، ويثني على الزمن الأول،فبوروأصبح يعيش قلقا وجوديا فاللحظة الحاضرة أضحت تشكل «تقدما باتجاه المزيد من الألم....ففي عالمنا لن تكون هناك عواطف غير الخوف و الغضب والغلبة وامتهان الذات »[2] وهو ما أحس به بورو فمات حسرة لما أصابه.

- وقت ظهور الساحرة تيرزازت أو الساحر وانتهيط :

إن المجتمع الترقي يعتبر وقت ظهورهما وقتا مدنسا لان أهل الصحراء يعرفون أن البلاء واقع لامحالة ، وما ظهورها إلا علامة على الهلاك ووقوع المصائب .

الأشياء المدنسة:

---

1 - المجوس، ص10.

2 -رشيد بوجدرة،بنية الزمن في الخطاب الروائي الجزائري (1970- 1986) المؤثرات العامة في بنية النص،دار الغرب للنشر والتوزيع، وهران،ط1، 2002 ، 1/20.

إن الرواية محكومة بالثنائيات، فكما وجدت أشياء مقدسة، يستطيع الإنسان من خلالها، تحقيق وجوده، و التواصل مع العالم العلوي جاءت الرواية على ذكر أشياء مدنسة تحكم البيئة الدنيوية و هي:

1-الأشياء الجامدة:

أ)-الأرجل و القامة: القوائم والأرجل هي رمز للكفر، و الشقاء الذي يعشيهما الإنسان، هما سبب الكبر الذي يتملكه و يبعده عن صدر أمه الحنون، التي تنكر لها و صار ينشد الأعالي فحكم عليه بالتيه الأبدي.الأقدام هي بلاء، لذا قامت الحية بالتخلص منها، فقايضتها بعيني الخنفساء، فقامت بإلغاء المسافة التي كانت تفصلها عن الأرض و تخلصت من ساقين كريهتين كانتا ترفعانها أشبارا فوق صدر الأم، «ركعت و قبلت التراب، لثمت جبين الأم، لبست جسد الأرض، فنالت الغفران»[1]، و هذا سر اكتشفته وحدها، فآثرت الزحف، لتنال التسليم و الرحمة و الغفران عقب الخطيئة التي ارتكبتها.

الحية وحدها من أدركت سر التحول، لأن التحول جعلها تكتشف نعمة الزحف و التسليم وكثيرا ما كانت تعيب على الإنسان جهله و بلاهته فهي تقول: « آه لو رضي الإنسان بالتسليم، وكف عن الركض وراء الأوهام، و رقد هكذا في وداعة من لا قامة له، إذن لاستحال إلى ولي، ستكون هي الحية الداهية أول من يعبده و يتخذ من بدنه ضريحا يقدم له القرابين، ستسيل دما غزيرا احتفالا بزهد المخلوق المكابر، ستنحر آلاف الحيوانات الصغيرة احتفاء بعودة الابن الضال إلى الأم. الإنسان لا يعرف أنه لو تشجع مرة و تخلص من القامة، وقبل أن يحيا زاحفا لصيقا بالأرض لفاز بالبطولة و أصبح إلها»[2] فالتخلص من القامة، هو سر الوصول إلى مرتبة الألوهة، فالتسليم وحده من يجعله وليا كانت الحية لتتعبده و تقدم له القرابين. فالقامة هي سر البلاء، « البلهاء الذين يدوسون الأرض بأقدامهم يمدون قامات الكبرياء ليبلغوا

1 - رواية السحرة ، ص 194.

2 - رواية السحرة ، ص 15.

السماء طولا لن يجدوا الصراط و لن يدخلوا الملكوت ما لم يزحفوا على الأرض ما لم يقبلوا التراب و يغوصوا في الرمل، على جبين هؤلاء سطر القدر نبؤة الشقاء»[1] فالمخلوق اليائس لن يبلغ القمة، و لن يجد له طريقا إذا لم يزحف على التراب، لأن خلاصه مجبول بالتسليم، و لكن هيهات أن يفهم الإنسان هذا لأنه لم يدرك سر الضد، و من لم يدرك سر الضد، صعب عليه طعم المنفى، عاش أبد الدهر بين الحفر ، تسكنه الظلمات و تحيط به.

ب–اللسان: اللسان أيضا يأخذ بعدا و دلالة سلبية، تجعله يندرج في إطار المدنسات، كيف وهذه العضلة الصغيرة هي منبع المكر، و سبب بلاء الإنسان على قطع لسانه بقدر ما حثته بالتنازل عن كبريائه و الاستغناء عن قامته، فقامت بشق لسانها إلى نصفين حتى تضمن سلامتها، و تأمن عذر هذا العضو الشقي، فاللسان معروف بثرثرته، و لا يستطيع أن يكتم سرا مهما هذا السر صغيرا و قد نالت الحية طقوس الإجلال بفعلها هذا فتنازلها عن العضو الشقي، جعل تختارها أمينا على كنوزها لأنها أدركت أن قطع اللسان هو الحيلة الوحيدة التي يستطيع الكائن أن يحفظ بها بشرا»[2]، و ذلك أن الطبيعة البشرية الضعيفة لا تستطيع احتباس الكلام، وهذا ما يؤكده العجوز الحكيم عندما ظهر فجأة لعيارين، و حدثه عن خطورة الفم و اللسان، كان هذا العجوز " نحيلا، طويل القامة، يرتدي أسمالا شبيهة بأسمال الرسول الغامض الذي أصابه البلاء، (.....) كان يقتات الأعشاب أيضا، و يستخرج من الأرض جذور النبات، يقضي النهار في المغاور، ولا يبيت ليله إلا في العراء، يميل في مسلكه إلى السكوت و لا يرد على أسئلة العابرين إلا إذا قضت الضرورة (.....) ظهر له كثيرا و لكنه لم يكمله إلا مرة واحدة، ظهر من وراء جلمود بدين و سدد له نظرة طويلة، غامضة استولت عليه الرهبة و لكنه لم يشعر بخوف. هرب ببصره بعيدا فسمعه يقول: «لن يعرف الخلق في حياتهم هناء ما لم يترعوا من أبدانهم عضلتين، عضلة بين الفخذين و عضلته بين الفكين، قال هذا الكلام و توارى عن

1 - رواية السحرة ، ص 204.

2 - رواية السحرة ، ص 195.

الأنظار، و هذا إن دل فإنه يدل على أن «استخدام هذا العنصر استخداما عابثا عبر محسوب من شأنه أن يصيب الإنسان بالأذى والشرور، في حين يقيه من خطر الزوال و التلاشي حين يكون بمثابة صمام أمان»[1] فاللسان بطبيعته المتألقة و إغوائه المميت، لابد و أن يخفي بلاءا عظيما و هذا السر حاول "جبارين" كثيرا أن يفهمه، "فوضع رأسه بين يديه، و حاول أن يفهم لماذا خلقنا كل الألسنة شهية للنظر، لماذا يتألق في كل الألسن هذا الإغواء المميت، إغواء الشهوة، إغواء الهلاك، إذ لا شيء يمكن أن يتألق الإغواء إن لم يغف في جوفه هلاكا أكيدا»[2]، لذا قرر "جبارين" أن يتخلص من الضوء المشحون بالسهولة و الإغراء والإغواء، وهو الشيء نفسه الذي حدث "لبوشا"، إذا تبعا هدي الجد الأول، لأن شريعة الصحراء و الخفاء فرضتا أن تنقطع أغنية كل من عرف للسر سبيلا.

***التبر**: المعدن المشؤوم، يعود سبب اللعنة التي أحاطت به إلى البريق الذي يشع منه، فكل شيء مشع من الخارج، هو أجوف من ال

داخل، غير أن هذا المعدن لم يكن مدنسا في البداية، لأن الرقع التي نزلت لتهدي الناس إلى شريعتهم، في أصلها جاءت للتبر بقدر غير القدر الذي هو عليه الآن، فقد قيل في الناموس: "إن المعدن الأصفر كان ذرة نبيلة الأصل، لأنها تهدي إلى طريق السر، و ورد أيضا أن في المسافة الأولى إلى السر تقف الحية على باب التبر عساسا لأن التبر أنبل من أحبل حيوانات البرية»[3] لكن سوء قراءة الرقع، قلب التعويذة، فحمل التبر اللعنة، و جلب البلبال و البلاء للصحراء، لأن ساحرا عظيما جعل منه فخا أراد من خلاله اصطياد الخير هذا المخلوق التائه، ولا يعرف حتى السحرة أنفسهم لم شاءت مشيئة الخفاء أن ترميهم بالرقع التي روجت للذهب، و أشارت في رموز أخرى أكثر غموضا، من كل الرموز إلى معدن له مسلك الغبار شكلا، و له

---

1 - عبد الله إبراهيم ،صالح هويدي ، تحليل النصوص الأدبية القراءات نقدية في السرد ، دار الكتب الجديدة المتحدة ،ط1 1998،ص 18 .

2 - رواية السحرة ، ص846.

3 - رواية السحرة ، ص653.

سلطان الجن سطوة أطلق عليه فيما بعد اسم "التبر"، و يقال إن الخلق لم يلوموا في هذا الاكتشاف الذي قلب حياة الصحراء، أحدا سوى أنفسهم لأنهم أخطئوا في قراءة الرسالة قبل أن يخطئ أولي الأمر في فك الرمز لأن ساحرا خرج على السحرة، ورأى أن يدبر شرا للإيقاع بالمخلوق التائه في البرية و يقيم له من حبات الثرى قرينا يقف له ضدا فكان أن صار في يده التبر علامة إغواء أذل. بها البلهاء، و خدع الخلق و نال بها الحسان، واستدرج معتزلة، و أوقع بسلاطين، و قلب أمما، و سلط قبائل على قبائل، و أنزل على الأرض بسببه ما لم تره عين و لم تسمع به أذن و لم يخطر ببال مخلوق »[1] هكذا أصبح التبر وسيلة مضللة، أقعد بها وانتهيط الأمم وأرضخها لمشيئته، و ذلك اعتقادا منهم أن التبر «يأتي بكل الأشياء التي يذهب بها الموت فكيف لا ينصب إلها للسموات، و حياة لكل أرض؟»[2] هذا الاعتقاد جلب الشقاء للصحراء،« فكثرت الغزوات، وسفكت الدماء في الواحة الخالدة، و كثر النهب و السلب و عرف قاموس الصحراء القتل والغدر والخداع لأول مرة»[3] و عبثا حاول السحرة، تصحيح الأمر وتصويب الخطأ الذي وقع فيه الخلق فقالوا: «إن الأركان الثلاثة هي واحدة بالأصل، و ما الماء و التبر و الناموس سوى شيء واحد مسخر لسبيل السر، و لكن عبثا لأنهم ذهبوا بعيدا، و رأوا في التبر إلها للحياة ، ما دام قادرا على أن يعيد لهم تلك النعم التي جربوا أن الموت لا يأتي إلا ليأخذها منهم »[4] هكذا استطاع وانتهيط أن يجعل من التبر فخا ألهى به البلهاء، لأنهم تمسكوا بالباديات، و غفلوا عن السر الحقيقي فالذهب:« لعنة الصحراوي، سلطه عليه وانتهيط، حتى يلهيهم عن الكنوز الأخرى. معدن النحس، صار البلهاء عبدة له، لا تستقيم حياتهم إلا به»[5] فهو كتر أجوف، يفضح أسراره، و لا يشتبه بأهل الصحراء في شيء، لأن شرائعهم تنص على

1 - رواية السحرة، ص 653.

2 - رواية السحرة ، ص 654.

3 - رواية السحرة ، ص 654.

4 - رواية السحرة ، الصفحة نفسها.

5 - رواية السحرة ، ص 141.

الابتعاد عن كل شيء، يفضح سره ، لأنهم أدركوا أن الأشياء التي تتبدى و تكشف سرها تتملكها الجان، و تحوق بها اللعنات. و قليل هم من أدركوا أن «التبر ما هو إلا هباء يعمي ويضلل و يصيب الخلق بالمس، التبر قشرة البيض، فيض البيضة، الوهم الملعون بكل الألسن المهلك، المقيت، المميت، أما الذهب الحقيقي، الذهب الآخر، ذهب الخفاء، ذهب السر فهو في الخفاء في مكان ما في الأعماق التي تدرك بغير التحول في المسافة المجاورة للخطر، في البرزخ الأبعد من السماوات و من الأرض»[1] فالذهب الحقيقي يكمن في الحية، «و المخلوق الشقي عجز عن فهم هذا لأنه لم يفهم سر التحول و شريعة الأضداد، و قد استطاع الزمن أن يبرهن لأولئك الذين أدركوا و علموا أن جوهر الحياة و سرها وروحها تتخفى في جلد الحية»[2] فالحية هي الكنز الحقيقي، وهي لا تقف حارسا على أكوام التبر إلا للتمويه.

هذا المعدن اللئيم استخدمه أيضا وانتهيط في حربه مع الزعيم، يقول وانتهيط:« إن الذهب صنعتي و التبر لعنتي، و كل ما يشتريه هذا المعدن الرهيب هو تحت طائلتي، حتى أن لعنته طالتني، فلا ألمس ترابا إلا استحال تبرا، و لا أمسك بيدي حجرا إلا و تحول سبيكة من سبائك الذهب، و لا أقدر أن أتناول طعامي إلا إذا تحصنت بالتعاويذ التي تحميه من التحول»[3]فحتى وانتهيط نفسه لم يسلم من إغوائه و بريقه، لذا اصدر الزعيم قرارا بتحريم معدن النحس، و أنزل القصاص على كل من تعامل به، إضافة إلى هذا قد أرجع الكثير من الحكماء، لوم هذا المعدن، واللعنة التي حاقت به إلى سبب آخر، وهو تفضيل النساء له، «إذ يقال إن الشقاء بدأ عندما آثرته النساء على بقية المعادن، فسخرن رجالهن لاقتنائه، فتنافسوا في طلبه، اختلفوا، تشاجروا، تناحروا، و قتل بعضهم بعضا لأول مرة نسي الأشقاء إنه معدن بليد كالنحاس، كالحديد، ككل المعادن، وسعوا في طلبه حتى نسوا أنفسهم، سنوا الحياة و صار يوم الحصول عليه هو الحياة، شربت الأرض دما فاستنكرت النساء و أشاحت عنهم خجلا، توقف المطر، فتوقفت الأنهار التي

1 - رواية السحرة ، ص 204-205.

2 - رواية السحرة ، ص 210.

3 - رواية السحرة ، ص 145.

ظنها البلهاء خالدة»[1] فمنذ أن ظهر هذا المعدن، قلب حياة الصحراء وأفسد كل شيء فيها ،وتضارب الناس على تحصيله وعرفت الصحراء على إثره، البؤس، و الشقاء فحل بها الجدب، فنضبت أنهارها و جفت وديانها و بحيراتها و كان هذا قصاص أنزلته السماء بهم لأنهم تنكروا لوجودهم، و غفلوا عن الحياة التي منحتهم إياها، فقطعوا الوصال مع الدنيا، و تشبثوا بالوهم، و شريعة وانتهيط فنالهم القصاص، و حل بهم العقاب.

***الأبخرة** : عادة ما تكون الأبخرة، ذات بعد قدسي، و لن الرواية في بعض مقاطعها، صبغت عليها سمة الدنس، لأنها أخذت رمز الكيد، « و لكن رائحة كريهة غزت أنفه، رائحة ذرته بتلك الأبخرة التي تحرقها الساحرات في القبيلة عندما يبدأن في تدبير المكيدة»[2]

النبات المدنس: عرف النبات هو الآخر تجليات للمدنس لأنه اكتسب دلالة سلبية و النباتات المدنسة تجلت في:

***الأثل**: موطن الجن، فهو «صياد الملح، و مصاص كل ملوحة في الصحراء »[3]، فالجن أضاعوا الطريق إلى مناجم الملح، و السبل إليها. " فلم يجدوا منجما يمدهم بحاجتهم الخالدة منه فالتجئوا إليه واتخذوه معقلا »[4] و قد كانت القبائل تخشى الاقتراب من هذه الشجرة لأن الجن وضعوا عسسا عليها "فمع تدفق الأيام استولوا على الشجرة، و جعلوا منها وطنا، و لم يكن غريبا أن يصاب بورو بالحمى عند الأكمة التي تنتصب على رأسها الأثلة الهرمة حرسا، لأن العقل يقول: « إنّ الشجرة التي نذرت نفسها لاستجلاب كنوز الملح من أبعد الممالك، و أعمق الأمكنة لابد أن يقف على رأسها الجن عسسا، أيضا كما تقف هي عساسا على كترها

1 - رواية السحرة، ص 758 .

2- رواية السحرة ، ص255 .

3 - رواية السحرة ، ص341

4 - رواية السحرة، ص341

النفيس»[1] و بورو لابد و أن يكون قد داس على قدم عسس من عسسها، لذا صرعته الحمى ونال منه الوهن و التعب.

***الأكمة**:هي أيضا من الفصائل التي فضلتها الجن و اتخذتها موطنا لها، و هذا الشجر أيضا « لا يقترب منه صحراوي دون أن يتخلى عن كل شيء و يغرق في تلاوة التعاويذ»[2].

***الحنظل**: إن ثنائية الذكر و الأنثى، مست هذا النبات أيضا، فكل من دخل دائرة الأنوثة أصابته اللعنة، و أصبح مدعاتا للهلاك، فإذا كانت الكرة الخفية أنثى فهي داء و سم، الأنثى قاتلة حتى لو اختبأت في كرة علقم، الأنثى سم»[3]فقد اشترط الساجر أن تكون كرة الحنظل ذكرا، حتى يخلص بورو من العلامة التي وسمت جبينه، فالحنظل الذكر هو فقط من يصلح للعلاج، و قد كان من الصعب التفريق بين الحنظل الأنثى و الذكر، ولكن الساحر بحنكته تمكن من التمييز بينهما، و استطاع أن يعالج بورو من السم الذي تمكن منه إثر ضربة العصا.

***الشجرة المسمومة**: هذه الشجرة كانت سببا في إخراج الدمية "مندام" من الفردوس الأبدي،فغيرة الحية منه، لأن الإنسان نال المجد الأبدي، و نعيما لا يستحقه في نظرها، لأن الأرض ارتضته وليدا أبديا لها،ألبسته من نفسها و أغدقت عليه من حنانها، جعل لؤم الحية و دهاءها يوقعانه في الفخ، فخرج من النعيم الأبدي إلى مملكة الذاكرة «..و كانت تخشى عليه من شجرة لئيمة أوقفت الحية حرسا على بابها. و لكنها هي الحية ما لبثت أن أكلت الغيرة قلبها عندما رأت المخلوق المدلل الذي نال القرب و أحيط بطقوس إكبار لا يستحقه، فدعته إلى وليمة، ساقته إلى الشجرة اللئيمة ليأكل من ثمرها المسموم، و ما أن وقع في الشرك، و ذاق الطعم حتى خرج من مملكة النسيان»[4] ثمار الشجرة المسمومة أخراجت "مندام" من الفردوس،

---

1 - رواية السحرة ، ص342

2 - رواية السحرة ، ص341

3 - رواية السحرة ، ص337

4 - رواية السحرة ، ص192

فنال بذلك الشقاء و لم يكتف بذلك، بل صار ينشد شيئا فقده في الأعالي، لأن من تذوق و شم نسيم الجبال، ظل أسيرا لها إضافة إلى ذلك نال لعنة الأرض التي تنكر لها، لأنه«رفع رأسه عن الأرض، امتد بقامته إلى السماء، و كابر تطاول إلى الأعالي و نسي الأسافل نسي الأرض، وداسها بالأقدام، وبصق عليها و تقيأ فوقه وجهها، و بال على ظهرها، و ظل يطلب في السماء شيئا مجهولا فقده، قامت الأم و ناحت بفجيعة، لعنته بصوت رددته كل جبال الصحراء، وأخذت من قرينها الماء عهدا بألا يكشف للإنسان عن سره أبدا »[1] بهذه الطريقة ظل المخلوق الشقي سواء السبيل في حين تمسكت الحية بالأرض، و استجارت بها، فنالت بذلك الغفران، وكل شيء ابتغته هي.

هذه الشجرة، موجودة في البستان، و لا أحد يعلم مكانها، إلا الزعيم، اندفع جبارين نحو البستان،« فاستوقفه بورو،و توعده بالسبابة محذرا، في أشجار البستان فاكهة شهية حقا، ولكن وانتهيط زرع فيها شجرة مسمومة من أكلها هلك، أو أصيب بمس أو ناله داء النسيان، فامتنع أهل الصحراء عن تناول ثمار هذا الشجر منذ ذلك اليوم فاحترس»[2]، و قد أخفى الزعيم مكان هذه الشجرة، لحكمة ارتضاها لنفسه، فقد كان يريد أن يعلم قومه الامتناع.

ج–ظواهر طبيعية متفرقة :

***القبلي:** هي ريح جنوبية، تتّسم بسمومها الحارة، و لفحاتها المحرقة، أعظم عدو تخشاه القبائل، لأن نيرانه و ألسنة الشرهة تقضي على كل شيء تصادفه في طريقها، فالريح« تتخذ رمزية الزمن الرمادي المكفّر الضارب في أعماق المأساة إذ منفكّت تغمر كل ما تصادفه في طريقها»[3] و تذكر أساطير الطوارق أن هذا الرّسول سلطته السماء على الخلق، عقابا لهم لأنهم آثروا زيف البريق، و حادوا عن الشرائع، و تمسكوا بالقشور فاتبعوا نهج وانتهيط، و تناحروا فيما بينهم، لا لشيء لأن الوهم تملك ألبابهم، "فلم يمض وقت طويل حتى سلطت عليها السماء

---

1 - رواية السحرة ص192

2 - رواية السحرة ص808

3 - ملاس بناجي' دلالة الأشياء في الشعر العربي الحديث، ص54

رسولا أزاحها من الوجود، و غمرها بالتراب، حقا كان رسولا مميتا، أقبل من الجنوب، و أطلق عليه الخلق اسم "القبلي"[1]، وقد استعان في هجماته على الواحة الخالدة، بالرمل اللعوب، وذرّاته الصفراء، و لم يتوقف إلا بعد أن أزاح الواحة العظمى، ووأد أنهارها و بحيراتها، فاندثر الوطن، وتوارى تحت التراب، و لم تنجو إلا واحات قليلة كانت النخلة سببا في نجاتها.

الشمس: تحوي الرواية في طياتها، أسطورة عن صراع الشمس و القمر، فلقد حاول أهل الصحراء كثيرا أن يخفّضوا من شدة هذا الجلاد المستبد، فالشمس عندهم لعنة الأرض، وقدر الصحراء، «إنها البهلول، الشمس هي التي خلقت من الصحراء أرضا جرداء، لولا الشمس لما كانت الصحراء صحراء »[2]، فقسوتها و تبجحها، أذاقهم الويلات، «فتسببت في يباس غابات الرتم و جفاف آبار المياه، وتعاقب موجات التصحر، فأجبرتهم على الخضوع لسلطانها »[3] فجربوا نحر القرابين. تقربا منها ففي "البداية نحروا الأنعام، قطعانا من الأنغام، كانوا يجرون الدواب إلى السفوح الجبلية حيث ينام الأسلاف في دوائر "إيديبنان"، و يجرون المدى النحاسية الفظيعة، و يجرونها على رقاب المخلوقات الوديعة، ثم يقعدون فوق الصخور المغسولة بالدم ويرفعون أيديهم إلى الإله المستبد، و يرددون وراء السحرة: تيمسي أرمسين تيمسنتيم : «يا نار أمسكي نارك »[4] و لكن الجلاد لم يأبه بتبجلاتهم و أدعيتهم، و إنما استزاد في طغيانه و تمادت حرائق نيرانه.

فكل محاولات السحرة باءت بالفشل، و بعد تشاور و طول سهر، أجمعوا على أن يكون القربان هذه المرة الجد مقدس، الودّان، فأطلق السحرة النذير، و جمعوا الفرسان للانطلاق في حملات الإبادة غير أن زعيمهم، احتج و رفض أن يشارك في المذبحة، و حذرهم من العواقب، «و سمعه كثيرون يقول أنه لن يقبل بنحر الجد استعطافا للجلاد، لأن الناموس لن

1- رواية السحرة ، ص758 .

2- رواية السحرة السحرة، ص53 .

3 - سعيد الغانمي، ملحمة الخدود القصوى، المخيال الصحراوي في أدب إبراهيم الكوني، ص51.

4 - رواية السحرة ، ص381

يرتضي أن ينحر إله تقربا لإله آخر وهو لن يشارك في المذبحة حتى لو تمادى الجلاد وأطلق حريقا يلتهم الحجارة أيضا لأنه لا ينوي أن يروي "آنهي" للأجيال أن رضي أن يرتكب الخطية (...) فقال: إن الحكمة الخفية تقول: إن من يبدأ ينحر الجد المقدس، فسوف لن يتوقف حتى يجد نفسه في المنتهى ينحر أولاده و بناته »[1] و لكن القبيلة لم تأبه لكلام زعيمها، و بالفعل وقعت في المحظور، و أبادت قطعان الودّان بحجة أن القربان الحقيقي لا يكون قربانا ما لم يحتل أعلى درجات القداسة، و بالفعل "مضت الشمس تتوارى حتى ظنها العقلاء قد انطفأت إلى الأبد، ولكن المطر لم يتدفق إلا بعد أمد طويل، و لم يتوقف إلا بعد أمد طويل أيضا. استمر ينهمر حتى ارتوت حجارة الجبال فدفعته إلى الأسافل»[2] فحّلت الظلمة، و تحول المطر و الظلام إلى نقمة جرفت كل ما صادفته في طريقها فتشتتت القبائل، وعمت الفرقة، فطلب السحرة الغفران و الرحمة، و لكن البلاء ظل على حاله حتى تولى ساحر الأمر، فنحر طابورا كاملا من الأبكار الصبايا، فعاد الجلاد إلى الظهور، و منذ تلك الحادثة، «بدؤوا يمجدون القمر في صلواتهم ويروجون القبيلة لديانة جديدة ترى أنه يستحق العشق أما الشمس فقد حرموا ذكر اسمها منذ تلك الفاجعة، و أطلقوا عليها اسم الجلاد، لأنها دخلت دائرة الأعداء الخالدين، و صارت عضوا، في العشيرة التي تحمل الأسماء المستعارة مثل الساحرة "تيرزازت، و مخامد، وتامنضال »[3].

2-التجليات النفسية للمدنس:

1 - رواية السحرة ، ص383.

2 - رواية السحرة ، ص384.

3 - رواية السحرة، ص.385.

تمتاز الطبيعة البشرية بالضعف، والتناقضات، فشرها أكثر من خيرها، فالنفس أمارة بالسوء، لذا جاءت الشرائع لتحد من طغيانها فحذرتها من بعض الصفات التي تحمل سمة الدنيوية و الدنس، و قد جاءت الرواية على ذكر بعض هذه السمات و نذكر منها:

الجدل: هو عدم الاتفاق على رأي، و هو سنة من سنن الصحراوي، لا تستقيم حياته من دونه فما من مجلس انعقد، إلا و شب فيه نزاع و قام فيه جدل بين السحرة المعتكفين على قراءة النبوءات في عظام الذبائح، فالجدل ضروري لهم و لن يتنازل الصحراوي عنه أو يتركه إلا « يوم يدخل الجمل في سم الإبرة، و قال آخر بنفس اللغة، العناد قدر الصحراوي و الجدل لعنته و لكن هذا لم يجبرهم على التخلي عن الجدل، بل إن كبار السحرة حرضوهم على التخلي عن التجادل، و ممارسة الخلاف وقالوا بلغتهم الغامضة المستعارة من دنيا النبوءة حياتنا في خلافها و موتها في وفاقنا »[1] فالوفاق عندهم يتخفى وراءه الموت أما الحياة فتتجلى في الخلاف وكان السبيل الوحيد إلى فض و إنهاء الجدل بين السحرة هو نحر الذبائح، فيطفئ سيل دمها لهب النزاع حول النبؤات.

الهزيمة: إن الترقي رجل صور بطبعه، فبيئته القاسية علمته التكيف مع كل أحوالها، وغضباتها المحوسية، و لكن قوة الجلاد و جبروته ورقصات السراب، كثيرا ما أرضخت أشجع وأنبل الرجال وأذاقتهم طعم الظمأ والتعب، و هو شعور بضعف من همة الصحراوي، و هذا ما حصل للمسافر الذي غلبه الظمأ و نال منه، فترنح و ركع لوعاء الماء، و هي طقوس لا تليق بالنبلاء، فعندما استقبله "بورو" بوعاء الماء «شاهد في عينيه انكسارات خفيا، ليس تعب المسافة، و ليس حزن التيه و إنما شيء آخر أكبر من الأتعاب و أعمق من الأحزان، فهل هو فجيعة الهزيمة؟، يجمع حكماء الصحراء أن لا شيء يقهر الرجل النبيل مثل الهزيمة»[2]. و هو ما تكلمت به عينا المسافر لأنه لم يتمكن من عبور الصحراء دون الحاجة إلى الماء.

---

1 - رواية السحرة، ص72.

2 - رواية السحرة ، ص17.

***عشق الأشياء و رغبة تملكها:** من الشرائع التي سنتها الصحراء لأبنائها، دعوتهم على الابتعاد عن عشق الأشياء و التشبث بمنهج المعتزلة و زهدهم في الحياة، و ذلك لأن كلما زاد شغف الإنسان بالشيء ستحين اللحظة التي سوف يكرهه فيها بقدر ما أحبه أو ربما أكثر.

وقد كانت الحياة كفيلة بتعليم الخلق هذا السر «فالمخلوق يكره بقدر ما يعشق ليس غرابة في الأطوار أو تقلبا بليدا في المزاج، و لكنه يفعل ذلك دفاعا عن النفس، فإن استسلم وظل على عشقه تملكه الكائن المعشوق و هلك فيه إلى الأبد (....) الشريعة الخفية تقول إن المخلوق البائس ما امتلك شيئا إلا امتلكه الشيء المملوك، و لن ينجو من الفخ إلا إذا تخلق بمسلك المهاجرين الخالدين الذين لا يسمحون لأنفسهم بأن يعشقوا شيئا غير شذى الترفاس أو زهرة الرتم أو رموز الأولين »[1]، فما عدا هذه الأشياء يجب على الإنسان أن يقابلها بألوان عديدة من الكراهية و العدوان حتى لا يقع في فخاخها.

***السأم** : و تطلق عليه العجائز، اسم الحية الذاهية لأن هذا الشقي استطاع أن يغلب حكمتهن و ذهاء السحرة، لأنه تمكن من الصغار، فلم يجدوا وسيلة أو حيلة تقضي عليه فتملك قلوب الصغار ودفعهم « لتخريب مدن أنفقوا في بنائها أياما، و تحطيم دمى كانت لهم بالأمس حياة »[2]، هذا الإحساس هو من دفع "بورو" إلى محو و قطع أصل الحجر النفيس من أرض الحمادة، بعد أن وجده في حين لم يعثر عليه أدهى و أحنك السحرة، لأن الحياة الصحراوية و شرائعها علمتهم أن حب الأشياء لا يلبث أن يتحول إلى كره و عدوان.

***التباهي:** و هو من علامات الكبر، فغرور الحية أنساها للحظة أن هذا الشعور هو « أولى علامات الخطر، أولى آيات الكفر ببينات الأرض »[3] فحنكتها خانتها و جعلها تغفل عن من علمها السحر، و تتناسى تعاليم الناموس القاتل بأن فوق كل ذي علم، عليما، فتخلت عن فريستها لأنها تعلم أن لا سبيل للنجاة إلا في التخلص من الثمرة (الفأر) التي كانت سببا في

---

1 - رواية السحرة، ص223.

2 -رواية السحرة، ص222.

3 - رواية السحرة، ص211.

وقوعها في الشرك حينها أدركت « أن الدرس يستمر ما استمرت الحياة، و المخلوق الجاهل هو من لم يعلم أنه لم يؤت من العلم إلا قليلا، و ما المأزق الآن إلا برهان على شريعة توارثتها الأجيال في الصحراء تقول إن الواهم من ظن أنه يستطيع أن ينصب فخا، أو يقيم كمينا دون أن ينصب له فخ أو يقام له الكمين »[1] و الحية وقعت في الحفرة التي حفرتها، و نالت جزاء تباهيها.

***الفضول:** و هو التطفل على الغير، و رغبة جامحة تتملك النفس لمعرفة أسرار الخلق والفضول وحده هو من جعل الفأر يقع في المصيدة، لأنه كسائر الخلق لا يعلم « أن الفضول أهلك من المخلوقات ما لم تهلكه النار، و لا السيول، و لا الجفاف و لا الحروب »[2]، و الحية وحدها أدركت خطر هذا الشعور، مما جعلها تتريث و تراقب الدائرة التي تحمي البدنين من بعيد، و تتأسف لحال الفضوليين الذين اجتذبتهم رائحة الإنسان الكريهة، و الفضول هو من دفع جبارين إلى تغيير وجهته فعوضا عن التوجّه نحو الجبل بحث عن منبع النبع فظل الطريق ونسي مهمته.

***التسرع** : إن الشرائع علمت الحية أن التسرع يجلب الهلاك فهو « مريد من أتباع الجشع و إطلاق الجشع وقوع محتم في الأشراك، في أفخاخ القدر في أفواه الكمائن المشرعة أبد الدهر»[3]، فكنوز الأسافل حدثتها و أرشدها إلى عذر الزمان، فالأرض إذا بعثت بالفأر، فلا بد أن يظهر وراءه عدو يتخذ منه شركا، و بالفعل ظهر عدو الحية الذي نافسها في السر و تسلح بالدائرة ألا و هو القنفذ، بالإضافة إلى أن السرعة في اتخاذ القرارات، تبعدهم عن اليقين و بالتالي عن مواقع الكنوز، و تجعلهم يقعون في المحظور.

***الحنث بالنذر:** و هو شيء لا تغفره الآلهة، "فبورو"حلت به لعنة أصابت إبله، فهي لا تنتج أبدا، حتى و إن أنتجت فإنها تسقط حملها قبل أن يحين أوان المخاض، فلجأ إلى السحرة

1 - رواية السحرة، ص211.

2 - رواية السحرة، ص196.

3 - رواية السحرة ، ص202.

وتحصن بالتعاويذ و لكن الأمر لم يفلح أبدا، حتى التقى بعابر غامض في جبال "آلون"، هداه إلى حل يمكن أن يفيده و تحصل به المعجزة، فقبل « أن ينطلق العابر في فجر اليوم التالي قال له إن عليه أن ينذر للسماء نذرا إذا أراد أن يفوز بالحوار »[1] لم يصدق "بوروا" الأمر و لكنه ارتأى أن يجرب فصعد إلى أعلى شعفة « رفع يديه إلى السماء الصارمة، البعيدة، اللامبالية، و صرخ بأعلى صوت: أيمسينغ و أن أفلا، أهيد يكفن أورا. هاكغرسغ ماس » * و بالفعل، وقعت المعجزة وأنتجت الناقة حوارا، ولكن "بورو" بسي وعده و لم ينحر أم الحوار فوقع في المحظور ونال الجزاء ، بأن أخذ السيل كل قطيعه، وأوشك على سحقه أيضا، و بعد صراع كبير معه في محاولة منه انقاد الحوار الذي وهبته له السماء بعد عناء طويل، تذكر الوعد، فتمتم بذهول: « نسيت، نسيت، كيف نسيت؟ في المرة الأولى نسيت أن أنحر القربان للآله، و في المرة الثانية انتويت الإيقاع ب "آمغار" و نسيت أني أريد أن أنحر الاله »[2]، و لكن السماء نالت قربانها بيدها، وأخذت القطيع كله.

*الكبر:

الكبر هو علامة على الغباء، و الإنسان في نظر الحية هو مخلوق غبي لا يستحق الشفقة، لأنه تطاول و رفض حنان أمه، و داس عليها بكل جبروت و كبرياء، و من حكم الناموس أنه: «كل من رأى في نفسه ذكاء، وكل من كابر كان الأغبى و لم يخطر لهم على بال أن يسألوا لماذا يعود كل شيء إلى التراب»[3] فحل بالمخلوق الشقي البلاء، و زاده كبره شقاء وتيها، و في المقابل تحصنت الحية بالتراب لأنها فهمت تواضعه فنالت النعيم و فهمت السر، الذي غاب عن الخلق.

---

1 - رواية السحرة ، ص 726.

* يا اله السماء، رزقني حوارا، أنحر لك أمه"

2 - رواية السحرة ، ص752.

3- رواية السحرة، ص191 .

*الضحك: كانت القبائل الصحراوية تخشى الضحك، لأنها تعلم أن الضحك يجلب المصائب للقبيلة، فمن آيات الناموس التي طبعت على حدران الكهوف، حكم تنهى عن الضحك، و من ذلك ما قرأه "حبارين" و"بورو" في إحدى تجاويف الكهوف «اليوم ضحكت كثيرا، فإن لم تغفر لي يا مولاي فماذا ينتظرني يا ترى؟»[1])وبجوار العبارة يمينا حفرت بخط أقدم حكمة مستعارة من آلهي المفقودة « و من ملأ فمه بالضحك، سوف يملأ بالدموع»[2] و"بورو" كغيره من أهل الصحراء كان يخشى الضحك فكلما انتابته ضحكة كتمها بيده فإن لم يستطع حشا فمه بلثامه و تحصن بالتعاويذ و التمائم لطرد الشر.

*الحرص:إن الزعيم كثيرا ما كان يحذر قومه من الحرص، « و أخبرهم كيف أهلك الأمم، و حاول أن يقنعهم بأن لا حياة إلا في الامتناع»[3]، لأن الحرص على الشيء يتحول مع مرور الزمن إلى حب و عشق و إذا قام الإنسان بحب شيء استطاع ذلك الشيء أن يتملكه ويتمكن من وصاله، فيصبح أسيرا له، و هذا ما أراد الزعيم أن يعلمه لقومه، فنهاهم على الحرص على الأشياء، و الحرص هو من أفقد الزعيم قطيعه، بعد أن رفض التضحية بواحد منه.

*الكلام: (النطق) لقد حرم الناموس النطق في الأوان المقدس، فهذا الوقت تخرس فيه كل الكائنات، و تكتفي فقط بمراقبة و تشييع الظلال، و تتهيأ للميلاد، مع القبس الجديد، فالكائنات «تعلم أن ما خرج من الفم مثل ما طلع إلى النور، حاقت به اللعنة وطوقه السخط، وقد سره، و من فقد سره في الأوان المقدس فقد في النهار ظله»[4]، و الكائنات أدركت سر الصمت، فتجسست على بعضها البعض لأنها تدرك الخطر الذي يحدق بها إذا تجاسرت وخالفت الناموس الذي حرم النطق «و منع التفوه بالأسماء التي تنتظر دعوة الداعي لتلبي النداء.

---

1 - رواية السحرة، ص:174.

2 - رواية السحرة، ص:175.

3 - رواية السحرة، ص:808.

4 - رواية السحرة ، ص:373.

فالكلام الذي اكتسب مسلكا غدارا لابد أن يجر إلى مستنقع الدنس»[1]، و كل من تفوه بالكلام طاله الدنس، و ناله سوء المصير.

***النسيان:** هو عدم التذكر، و كان النسيان سببا في نيل "بورو" العقاب لأن الذاكرة خانته، فنسي وعده بنحر الناقة إذا ما أنتجت له حوارا، فالنسيان لعنة قطعت صلة الإنسان بوطنه الأول و لولا النسيان لما استطاع أن يغرّر "وانتاهيط" بالخلق و يخدعهم، فأخذ منهم الحية، مقابل أن يترك لهم زيف الهباء الأصفر، و لولا النسيان لما ظل "جبارين" الطريق إلى الجبل و إلى النبع بعد أن أوشك على الوصول إليه.

داء السويداء: هي نوع من الحمى، تصيب كل من وقف على سر، أو عرف فه طريقا، و قد اختلف الحكماء في أمرها فادهما يقولون: « إنها داء جلبه القبلي مثل الوباء، مثل الأوبئة الأخرى، من ممالك الجنوب، فولد من هذا اليقين تميمتهم التي تقرأ على رأس المصاب وتقول:"ريح جاء بك، ريح يذهب بك"[2] أما الحكماء رأوا «أنها لعنة جلبتها تيرزازت، عندما دخلت الصحراء رسولا يحمل النبأ الشرير، و أصابت بها أخيار القبائل لأنهم شككوا في أمرها وشككوا في صدق النبأ»[3] و الدليل على ذلك أن هذا المرض كان يقتصر على الحكماء والزعماء، و الشعراء، فالشاعر يسمع لحونا لم تسمعها أذن فيقع في حالة من الوجد، و الفارس يفقد عقله إذ يتخيل إليه أنه رأى حسانا لم تجد بجمالهن الصحراء، و تجعل السلطان يزهد في ملكه وسلطانه و قد أصيب "آمغار" بهذا المرض فاعتزل الناس و توارى عن الأنظار و لولا العشبة السحرية لكان مآله الهلاك، إلا طالبي الواحة المفقودة كانت هذه الحمى تقربهم من أحلامهم رغم شدة قسوتها.

3-التجليات الاجتماعية للمدنس:

1 - رواية السحرة ، ص:373.

2 - رواية السحرة ، ص:402.

3 - رواية السحرة، ص402.

إن المجتمعات محكومة بأعرافها وتقاليدها، وكل مجتمع و له خصوصياته التي تميزه عن باقي المجتمعات، هذه الميزات «هي التي تمنح المكان قيمته الاعتبارية في نظر أهله، و في نظر الوافد إليه، و تحدد نمط علاقته بالمجتمع و نوع أحساسه بالمكان»[1]، و المجتمع الترقي له من الخصوصية و المعطيات الشيء الكثير الذي يميزه، فهو الآخر نص عادات و سلوكات معينة تقيدت بها القبائل، ووضع بالمقابل حدودا لا يجب أن تنتهك، و من ضمن السلوكيات التي نصت شرائع الصحراء على عدم الاقتراب منها أو التقيد بها نجد:

أ)–تسمية الأشياء بأسمائها: فهي سمة مدنسة فقبائل التوارق وضعت قوائم لأسماء يجب ألا تذكر بمسمياتها، لأنها تجلب الشؤم و البلاء للقبيلة، فقاموا باستنكارها تجنبا للعناتها «لم يكن الخبر يخرج من الخباء بهذه العبارة الفاجعة التي يتجنب الحكماء التلفظ بها و إنما اللؤماء دأبو على تسمية الأشياء بأسمائها الحقيقية، و تفوقوا في فك رموز لغة السحرة الغامضة، و نقلها إلى لغة العوام القاسية، هم الذين استعاروا دور النذير في النجع، فتجاسروا دائما أن ينطقوا بكلمة "منّا"* الصغيرة المركبة من ثلاثة أحرف، التي قضت شريعة الحكماء، شريعة "آنهي" الضائع شريعة الأسلاف الأوائل، أن تضعها في معجم السر المحرم مثلها مثل "إيبجي"* و "تيرزازت" المشؤومة فاختاروا لها استعارات لغوية أخرى كثيرة حتى كادت الكلمة الأصلية أن تنقرض»[2] ولكن الرعاة كانوا يتعمدون لفظ الأشياء بمسمياتها، رغبة منهم في انتهاك المحرمات وركوب الخطر و كذلك لاستفزاز الحكماء و الأسلاف معا.

ب–أشعار الشاعرات: لا شيء يثير خوف و رهبة الترقي كالهجاء، فهجاء الشاعرات كان له وقع كبير في نفسية الترقي، و كثيرا ما أدى هذا النوع من الشعر بالعديد من رجال

---

1 – مرشد أحمد، البنية و الدلالة في روايات إبراهيم نصر الله، ص90.

* منّا: الجذب.

* إيبيجي: الذئب.

2 – رواية السحرة ، ص70.

القبيلة للانتحار، « فالرجال في آزجر يخافون أشعار الشاعرات أكثر مما يخافون شرائع الزعيم»[1]، فالعار الذي يلم بالمهجو، لا يشبهه أقسى عذاب عند هذه البائل، و كان الهجاء سببا في دفع "خبذا " إلى الانتحار، و هو الشيء نفسه الذي حصل للمسافر الذي استهوته حياة الوحات، فتخلى عن الحرية و لكن الأمد لم يدم به حتى حن لتلال الصحراء و سرابها، فقرر العودة، بعد أن تخلى عن كل شيء كسبه في الواحة، و لكنه بمجرد وصوله إلى القبيلة سمع الهجاء الذي نظمته الشاعرات فيه فقرر الانتحار، لأنه يعلم أنه الوسيلة الوحيدة لغسل الإثم و العار.

ويروي أنهي الضائع في القبيلة حصد من الأبطال و النبلاء أكثر بكثير مما حصدته الأوبئة و المجاعات وسيوف الغزاة[2]. فشكلت بذلك خطرا على القبيلة أدى إلى إفناء رجالها إذا قام الكهنة بتحريمها و منعها .

ج-تشييع المسافر بالفرح:

لقد ذكرنا فيما سبق الطقوس المقدسة لتشييع المسافر، فإذا أراد به خيرا مرت الطقوس في جو جنائزي، أما إذا أرادت القبيلة بضيفها سوءا فإنها تشبعه في جو من البهجة والسرور«فيأمرن الصبايا بالفرح، يمشطن لهن الشعور يجدلن لهن الضفائر، يدلكنا لهن الأجساد برحيق الرتم، يزغردن فوق رؤوسهن، و يذهبن إلى الخباء ليرتقن ثوبه، و يصلحن نعله، ويهرولن وراءه، و يمسحن أثر عقبه على التراب، و يتمتمن بالتميمة المجوسية القديمة: ويل لمن سافر و خلف وراءه بذل المناحة! ، ويل لك يا من لم يخف حوائجه بعيدا و ترك أهل الكراهية يعملون فيها رتقا و إصلاحا و رفوا»[3]، و كل من وقعت عند رحيله هذه الطقوس حلت عليه اللعنة، و مسه التيه لأنه لن يجد له طريقا ما دام على قيد الحياة.

---

1 - رواية السحرة ، ص57.

2 رواية السحرة 295 .

3 رواية السحرة، 374 .

د-الظهور برأس حاسر: من العار في الأنظمة القبلية الصحراوية، الترجل برأس حاسر، «لأن حكمة الأوائل تلعن كل مكشوف لا يتقنع، و ترى من لم يتلثم كائنا ممسوسا، مسلوبا»[1]

فالأشياء الحاسرة وحدها تمتاز باللؤم، أما الأشياء المقنعة تمتاز بالنبل لأنها اعتادت أن تخفي أسرارها، و لا تكشفها و كل من عاد عن اللثام، تنكر لشريعة جده الأول، و تشبه بالذهب، هذا الكتر الأجوف «لأنه أبى أن يتخذ قناعا و آثر أن يمضي في الصحراء حاسرا فكان أن تملكه الجن الذين اتخذهم "وانتهيط" جندا له»[2]، فأصابته اللعنة، و لحق به العار.

ه-حمل الزاد: إن حمل الزاد في الصحراء هو مدعاة للسخرية، فمن لم يتسلح بالشجاعة في وطن الرؤى السماوية، لن تكفيه الآبار حتى لإرواء ظمأه، لأنه في عرف السحرة، من «جبن و استزاد من الزاد و الماء و الأعباء مات في منتصف الطريق جوعا أو عطشا أو بلذغ حية أو على يد عدو غاز، أو قاطع طريق أو بمكيدة من أشرار الجن، و من تجلد واستهان بالأعادي و خرج إلى العراء عاريا بلا زاد»[3]، نال الرفعة، و حقق النصر، و أمن شر الإنس والجن، و لكن هيهات أن ينجح في ذلك إلا ساحر عظيم. فحمل الزاد في الصحراء رذيلة إستنكرها أهل الصحراء «لأن المسافر الذي أعتاد أن يحمل زاد الماء في الأسفار، لابد أن يعرف الذل، إذا نضب الزاد و عانى من العطش، ينكسر مهما تحلى بالبطولة، و مهما حاول أن يتشبه بالفرسان، لأن من اعتاد أن يمضغ تابا، لابد أن يفقد صوابه إذا افتقد العشبة»[4]، فمن حمل الماء كان مآله الهلاك لا محالة في المقابل نجد أن من تخلوا عن حمله، و خرجوا عراة فإنهم حتى و إن عرفوا قسوة الظمأ فسيظلون يحتفظون بوقارهم أمام القطرة المجيدة.

---

1 - رواية السحرة ، ص231.

2 - رواية السحرة ، ص231.

3 - رواية السحرة ، ص372.

4 - رواية السحرة ، ص317.

و-اقتحام مجلس الرسل: بمجرد أن وقع الاختيار على ناقة "بورو"،و "جبارين"، فقد "بورو" عقله لأنه لم يحسب حسابا لهذا الأمر، لقد تهيأ ليوم القرعة، و تحصن بالحرص، فأعد العدة و صنع من قرينته الشجرة عيدانا تكون له يوم الميعاد، سند تقيه شر و مكر الرسل، و لكن الحظ انقلبا عليه لأن أحد الرسل تفطن لخدعته، و قام باستبدال الأعواد، فوقع الاختيار عليه، فعند سماع النبؤة «فز كالممسوس و هجم على المجلس، فز فجأة فلم يدركه أصحاب الأنعام، وقطع المسافة الفاصلة بين زحام أصحاب الأنعام و مقر المجلس في غمضة واحدة، تلقف الرسول الأطول قامت في غمضة أيضا، فشلت الدهشة الأعوان (....) تلقفه بين يديه، طوقه بذراعيه، ورفعه إلى أعلى لم يرفعه إلى أعلى، و لكن الخلق رأوا مخلوقا يطير في الهواء مسافة طويلة (....) قفز ثلاثة و تشبثوا بالرجل، و لكنه نفضهم بعيدا فسقطوا...»[1]، لثم تدخل "جبارين" و أمسك بقرينه، ثم أغار الجمع كله عليهما، فقيدوا "بورو" بأمر من الرسول البدين، و أصدر في حقه حكم الإيغايغان لأنه من اقتحم مجلسا للرسل تلقى أقسى عقاب حتى و إن أخطأ هذا المجلس في شيء فإنه يحضر اقتحامه بالطريقة التي اقتحمه بها "بورو".

ز-استبدال أعواد القرعة: إن استبدال العيدان في المرة الثالثة دون استبدالهما في المرات التي سبقتها بدعة دخيلة على الناموس، و على الرغم من معرفة قواعد القرعة فقد قام الرسل باستبدال الأعواد في المرة الثالثة متناسين أن الناموس أقرّ للقرعة طرقا ثلاث: طريقة تستخدم العيدان مرة واحدة ، هي الأولى و هي الأخيرة، و طريقة تستخدم العيدان ثلاثا على أن تستبدل في كل مرة بعيدان أخرى، و يكون الحكم هو حكم المرة الأخيرة، و طريقة ثالثة تستخدم نفس العيدان للمرات الثلاث»[2]، و لكن الرسل خالفوا الشرائع، و هذا ما أثار جنون "بورو"، و استياء "جبارين "و حتى الأعوان أنفسهم شككوا في عملية القرعة.

---

1 - رواية السحرة، ص820.

2 - رواية السحرة ، ص831.

ك-الاستقرار و الزراعة: لقد أدمنت القبائل الصحراوية على التنقل و الترحال، حتى أصبح الاستقرار في عرفها مدنسا، لأن الحكماء أدركوا أن الاستقرار قيد يحد من حرية الترقي الذي ينفر عبودية المكان، فلم يركنوا لمكان واحد و احتقروا الفلاحة، و تشبثوا بتعاليم "آنهي" الضائع «فاستنكروا الحراثة و الزراعة و انتهاك حرمة الأرض العذراء، اتبعوا المسلك الذي يليق الأغراب في الأرض الغريبة فسنوا شريعة تحرم إتلاف الشجر الأخضر»[1]، و كل من تجاسر وانتهك الناموس و امتهن الفلاحة كان قصاصه تجريده من النبالة و نزع اللثام عنه، و تنكروا لهو لذريته بأن حرموها من الانتماء إلى ملتهم، فكل من شنق وجه الأرض أو أخل بعرف من أعراف ناموسهم، فهو خائن و لا يليق به أن ينتمي إلى قبيلتهم و أقسى عقاب يسلط عليه هو هجاء الشاعرات .

إن وصايا آنهي تنفي و ترفض و تعيب على الصحراوي عجزه و توقفه عن الترحال لأن هلاكه سيكون في عزوفة و اعتزاله الترحال فأهل الصحراء يشبهون الغزلان التي تهلك إذا لم تستكشف و لم تستطلع فمن «يركن إلى التراب و يستسلم لليأس فيخالف وصية "آنهي" التي أخبرت الأجيال أن قدرها هو الرحيل و الموت سيحل مع اليوم الذي يتوقف عن السفر ليبني بيتا أو كوخا أو يركن إلى أرض مكتفيا بالاسترخاء، قانعا بامتصاص حبات لنوى تلقاها صدقة من أرباب العبودية في الواحات...»[2] و القبيلة نالها القصاص لأنها كفرت بالناموس، فآثرت التجمع في نجوع، و استسلمت للاستقرار، منتظرة أن يأتيها الجن بأخبار الأمطار، و هي حيلة استخدمها الجن للثأر و الانتقام من القدماء فنقلوا لهم الأخبار الكاذبة و فحواها أن الجذب حل بالصحراء، و هذا جزاء من كفر بدين الهجرة لأن "تانيت" تخلت عنهم فوقعوا فرائس سهلة تسلمها "وانتهيط" .

---

1 - رواية السحرة ، ص294.

2 - رواية السحرة، ص102.

ل-الفرار: منذ ظهور التبر، تهافت الغزاة على الصحراء و تنافسوا على كنوزها، فأتوا من كل حد و صوب، فكثرت الغزوات، و أسيلت الدماء، و أمام هذه الوضعية، و بعد مشاورات دامت طوال الليل، قرروا الفرار، و ترك الصحراء لتدافع عن نفسها كما عودتهم لأنه السبيل الوحيد لقهر الغزاة الذين فاقوهم عددا و عدة، فقد جرب أسلافهم «أن العدو لابد أن يموت بالظمأ أو بالوباء، أو بالتيه، إذا تخلت القبائل عن المواجهة، و تركت له الأرض فراغا»[1]، فخالفوا الناموس بصنيعهو هذا واستبدلوه بناموس إبتدعوه وأملته عليم ضمائرهم، فخانوا الوصية و غدروا بالعهد، و تركوا الصحراء لمصيرها، لكن الزعيم لم يترك الصحراء و إنما دافع عنها بمساعدة من الجن، حتى حقق النصر، و قد عاقب القبائل بعدم دخول قلب الصحراء منذ تلك الحادثة، إلا في المواسم المسموحة بذلك.

الغناء: إن حياة الصحراء بقسوتها وعزلتها لا تستقيم من دون غناء، فالترقي حياته تكمن في الألحان التي تنسيه قفر الصحراء وشدتها، ولكن الغناء والفرح كان سببا في هلاك شباب القبيلة وزعمائها، حتى صار الغناء عندهم بدعة بلهاء يعقبها ندم وانتحاب فضيع ، إضافة إلى هذا الغناء هو وسيلة "وانتهيط" في التسلل إلى القبائل ونشر الأوبئة فيها، لذا ارتأت القبيلة تحريمه وحتى أن شباب القبيلة كانوا يتجنبون الاقتراب بالحسناوات التي تعشق الغناء خوفا على أنفسهم من المصير البائس فأغنية واحدة « تستطيع أن تسلط عليه عددا من الجن يكفي ليأخذوه معهم إلى الظلمات في غمضة عين »[2]، فتجنبوا ارتياد مجالس السهر وقلبت القبيلة ناموسها ووضعت ناموسا جديدا يحرم الغناء. إضافة إلى هذا كان الغناء سببا في عدم وصول الشيخ إلى الأرض المفقودة بعد أن تبدت له على بعد أمتار ، ولولا الغائر الغامض الذي ظهر له وسحره بغنائه الشجي الذي سحر الصحراء وأدهش قبائل الخفاء، لدخل الحرم وتنعم بنعيمه الأبدي ومن تلك الحادثة ظل ينوح ويندب حظه السيئ ، « ومنذ تلك الواقعة حرموا الفرح البليد، فمنعوا الغناء

1 - رواية السحرة ، ص768.

2 - رواية السحرة ، ص 108 .

وحذرهم السحرة منه: «الغناء! الغناء. السر في الغناء لن تعرفوا خلاصا، ولن تدخلوا واوا ما ظللتم تعبدون الألحان وتسجدون لإله الغناء »[1]، فتحولت ليالي الصحراء إلى حداد وسنوا قصاصا لكل من سولت له نفسه ورفع عقيرته بالغناء «فكانوا يلقون القبض على كل من تجاسر ورفع عقيرته بالغناء، يجردونه من لباسه، يضعون القيد في يده ويشدونه إلى ديل جمل ليطوفوا به بين المضارب عاريا تماما»[2]، وكان العشاق لا يحتملون غول هذا العار ، فينتهي بهم المطاف إلى الانتحار. ولكن الأمر لم يدم على حاله لأن التحريم الذي سنه السحرة أجج الصدور، بالوهج فضاقت النفوس بالحنين ، لأن الحياة في الصحراء لا تستقيم إلا بالمواويل، «فرمزية الألحان مثل رمزية الألوان، تعبر عن إرتداد نحو التطلعات الأكثر بدائية للنفس ولكنها تشكل أيضا وسيلة للتخلص من الحتمية الزمنية ومحاولة للتعايش مع الزمن من خلال تلطيفه»[3] وبعد أن استند القانون الجائر بأهل الصحراء وكاد أن يفنيهم ، تفطن العقلاء إلى مكيدة السحرة ، لإفناء القبيلة ، لأن الحياة عندهم «نفسها أغنية، الحياة لعب ولهو وتفاخر بالأموال والأولاد»[4]. وبعد ثلاث مشادات توصل الفريقين إلى قرار أخرجوا به الغناء من دائرة التحريم، لأن الشاعرات حملنه شريعة الضد، فتغذت الألحان من صفات الآلهة، فكانت قربانا قبل أن تكون لهوا يتلهى به البلهاء. الكل شارك في عملت البحث والمزاوجة بين الضدين حتى توصل في الأخير إلى رسم مسيرة للغناء في ثلاثة ألحان كبرى صارت قالبا لكل ترنيمة.

م-**البحث عن أصل الرسل:** إن الصحراوي إذا حل عليه زائر أو عابر فإنه لا يسأله عن أصله أو فصله لأن السؤال عار و مذلة، و إنما يكتفي بإكرام ضيفه، فإذا تجاسر و سأل وقع عليه

---

1 - رواية السحرة ، ص 108.

2 - رواية السحرة ، ص 417.

3 - جيلبر دوران، الأنتروبولوجيا، رموزها، أساطيرها، أنساقها ترجمة مصباح الصمد، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر بيروت ط 2، 1993، ص:2010 .

4 - رواية السحرة ، ص 418 .

القصاص، وكان "جبارين" لا يسأل عن أصل الرسل التي كان الزعيم يرسلهم ليستكشفوا حال القطيع.

و في الأخير و تأسيسا على ما سبق ذكره، يتضح أن المدنسات هي الأخرى مست مختلف مكونات الرواية، مشكلة عالما خاصا بها، وقد امتازت تمظهرات المدنس في هذا الفصل بسمة الإسودادية و لم تخرج عن دائرتها السلبية، فكل ما أشيع فيها كان يوحي و يشير إلى الموت و الظلام و النهب.

الخاتمة

بعد جولتي في غمار البحث والتقصي، ومن خلال تلمس المظاهر التي اشتغل عليها إبراهيم الكوني عبر صفحات روايته، خلصت إلى مجموعة من النتائج جاءت كالآتي :

- إبراهيم الكوني توغّل في شتات الذاكرة، وارتوى من قداحة الماضي، واشرأبّ الراهن والتسب أنظمته بكل ما اعتراها من ضياع وفساد، فأنتج تجربة إبداعية جعل فيها المعرفة والقيم المقدسة زادا وقاعدة،فقدم نصا تحدث فيه عن سر الخطيئة الأولى وأعاد نحت الذات وجسد الصراع بين أبناء آدم وإبليس.
- ما من مجتمع إلاّ وحكمته هاتين الثنائيين، ويعود سبب اشتغال الكوني عليهما إلى أهميتهما في تلبية حاجة الحكي، وقول المسكوت عنه، فهاتين الثنائيين استحالتا إلى مادة طبيعية أخضعها الروائي لمقتضيات المجتمع الذي حاد عن الطريق التي رسمتها له الشرائع السماوي، فتناسى أمر وجوده ، وتمسك بالزيف والوهم .
- للمقدس أهمية كبرى لما يحتويه على عادات وسلوكات اجتماعية تتطلب الامتثال الجماعي والقبول،والسحر كمظهر تجلى من خلاله التقديس هو عملية لاستنطاق العوامل الطبيعية وفهم أسرارها،لأنّه يحقق نوعا من التوازن في البيئة الترقية.
- إن المقدس يحافظ على توازن البيئة الكلية للمجتمع، وذلك بالحد من صورة الدنيوي، وإذا ما فقد الإنسان تلك العلاقة مع ما يعتبره مقدسا ، فإنّه سيفقد ذاتيته .
- المقدس يجمع بين ما هو واقعي واللاواقعي أي ما فوق الطبيعي.

- المقدس له طابع الزئبقية، فهو غير ثابت، ففي المجتمعات التي عرفت اكتمالا دينيا – المجتمع الإسلامي – خرج المقدس عن طابعه الديني ليدخل ميادين حياتية جديدة، لأن الناس أصبحوا يقدسون أشياء يرتادونها فتحقق لهم نوعا من التوازن النفسي ، كتقديسهم للملاعب مثلا.
- تحكم المقدس والدنس علاقة تتميز بطابع التضايف و التنافر في الآن نفسه، فلا غنى عن العالمين.
- إن استلهام الكوني لروح الثقافة الترقية، واستثمارها ،مكنته من ناصية هاتين الثنائيتين فأبدع نصا زاخرا بالأساطير والرموز الإيمائية المكثفة التي سكنت أطراف النص، منتقدا بذلك النفس البشرية التي تناحرت فيما بينها أثقلها الوهم وزيف المادة.
- المكان الروائي، أدى دورا أساسيا في التعبير عن رؤية الروائي فتجلى هذا الأخير، وفق مستويات دلالية حكمتها الثنائيين وفق ما حددته القيم الاجتماعية، فجاءت الأماكن المقدسة منطوية على خاصتين أولهما الانفتاح، وتجسد أساسا في الصحراء ، أما الخاصية الثانية فهي الارتفاع، وهو رمز للرقعة والمكانة العالية، أما الأماكن الدنيوية ، فاتسمت بسمة الانخفاض، السهل، وهي دلالة على الركون واليأس الذي يقيد النفوس.
- يحاول الكوني من خلال إبداء الشعائر و الطقوس، العثور على معنى وتأويل للمقدس والمدنس، وحقيقة تجليه في حاضره ومستقبله أكثر مما يبحث عنه في مرتكزات الماضي.

قائمة المراجع

قائمة المصادر والمراجع :

- القرآن الكريم
- **المـــصـــادر :**

1. إبراهيم، الكوني :
   - السحرة منشورات اللجنة الشعبية العامة للثقافة والإعلام، ليبيا، ط3 ، الفاتح من وفاة الرسول ص ، 2008.
   - المجوس، منشورات اللجنة الشعبية العامة للثقافة والإعلام، ليبيا، ط5، 2007.

المراجـــــع :

1) إبراهيم صالح، الفضاء ولغة السرد في روايات عبد الرحمان منيف، المركز الثقافي العربي، الدا ر البيضاء، ط1، 2003 .
2) إبراهيم عبد الله صالح الهويدي، تحليل النصوص الأدبية، قراءات نقدية في السرد، دار الكتاب الجديدة المتحدة، بيروت، ط1، 1998.
3) أحمد مرشد البنية والدلالة في روايات نصر الله، المؤسسة العربية للدراسات والنشر بيروت, ط1 2005.
4) أزرويل فاطمة الزهراء، مفاهيم نقد الرواية بالمغرب مصادرها العربية والأجنبية نشر الفنك، الدار البيضاء، د ط، 1989.
5) الأزهري أبو منصور محمد ابن أحمد الأزهر، تهذيب اللغة، تحقيق أحمد عبد الرحمان مخيمر، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 2004.
6) الألوسي عادل،الإنسان والعبقرية،الموت والعبقرية،دار الفكر العربي ، القاهرة، ط 01، 2003.

7) أمين أحمد ، ظهر الإسلام ، ظهر الكتاب العربي، بيروت، ط5، 1969.

8) البخاري أبو عبد الله إسماعيل البخاري الجعفي، صحيح البخاري المسمى التجريد الصريح لأحاديث الجامع الصحيح، ضبطه مصطفى ديب البغا، دار الهدى، الجزائر، ط03، 1987.

9) بن بريكة محمد، موسوعة الطرق الصوفية، متون التصوف الإسلامي، دار الحكمة ،الجزائر دط ، 2009.

10) بطّاش أحمد بن مصطفى كبرى زاده، موسوعة مصطلحات السعادة ومصباح السادة في موضوعات العلوم، تقديم:وفيق العجم، تحقيق: دحروج، مكتبة لبنان ناشرون، لبنان، ط1، 1998.

11) بناجي ملاح، آليات الخطاب النقدي المعاصر في مقاربة القصة الجزائرية، دراسة في قراءة القراءة،دار الغرب للطباعة والنشر،الجزائر، ط1،2002.

12) بناجي ملاس، دلالة الأشياء غي الشعر العربي الحديث، عبد الله البردوني نموذجا، المؤسسة الوطنية للفنون، الجزائر، دط،2002.

13) بوتور ميشال، بحوث في الرواية الجديدة، ترجمة: فريد أنطونيوس،منشورات عويدات، بيروت، ط2،1986 .

14) بوجدرة رشيد،بنية الزمن في الخطاب الروائي الجزائري (1970- 1986) المؤثرات العامة في بنية النص، دار الغرب للنشر والتوزيع،وهران، ط1، 2002.

15) بوشارب عبد السلام، الهقار، أمجاد وأجداد، المؤسسة الوطنية للإتصال والنشر والإشهار، الجزائر، دط، 1995.

16) بيدج علي، علي، مصطفى، الأدب الحديث في ضوء المذاهب الأدبية و النقدية ،ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، ط1، 1988.

17) التهانوي محمد، كشف اصطلاحات الفنون و العلوم،تقديم: رفيق العجم، مكتبة لبنان ناشرون، لبنان،ط1، 1996.

18) الجاحظ أبو عثمان عمرو بن بحر، الحيوان، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، دار الجبل، بيروت .د.ط.1992.

19) جرجس داود داود، أديان العرب قبل الإسلام وجهها الحضاري والاجتماعي، مجد المؤسسة الوطنية الجامعية للدراسات، بيروت،ط3، 2004.

20) الجويلي محمد، الزعيم السياسي في المخيال الإسلامي بين المقدس والمدنس، المؤسسة لوطنية للبحث العلمي، تونس، دط، دت.

21) حماش جويدة، بناء الشخصية في حكاية عبدو و الجماجم و الجبل لمصطفى فاسي، مقاربة في السرديات، منشورات،الأوراس ،الجزائر، د.ط.2007.

22) خان محمد عبد المعين ، الأساطير و الخرافات عند العرب ، دار الحداثة ، بيروت ،ط3 ،1971.

23) رضوان عبد الله ، البنى السردية،نظرية الرواية العربية ، دار اليازوري العلمية للنشر ، عمان ، الأردن ،.ط1، 2003.

24) الزاهي نور الدين، المقدس الإسلامي، دار توبقال للنشر والتوزيع، الدار البيضاء، ط1،2005.

25) الزمخشري جار الله محمد بن عمر، الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، دار الكتاب العربي، بيروت، دط، دت.

26) السواح فراس، نشأة الدين، بحث في ماهية الدين و منشأ الدافع الديني، منشورات دار العلاء، دمشق،ط3، 1998.

27) شبل مالك، معجم الرموز الإسلامية، شعائر، تصوف، حضارة، دار الجيل، بيروت، ط1،2000.

28) صالح فخري، في الرواية العربية الجديدة، منشورات الإختلاف، الجزائر، ط1، 2009.

29) طالب أحمد:

- الفاعل في المنظور السيميائي، دراسة في القصة القصيرة الجزائرية، دار الغرب

للنشر والتوزيع، الجزائر، دط،2002 .

- مفهوم الزمان ودلالته في الفلسفة و الأدب ما بين النظرية والتطبيق، دار الغرب للنشر والتوزيع،الجزائر ،دط،2004.

30) بن أبي طالب علي، نهج البلاغة، شرح: محمد عبده، راجعه: علي أحمد حمود، المكتبة العصرية، بيروت، دط،2006.

31) طوالبي نور الدين، في إشكالية المقدس، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، ط1،1988 .

32) بن عاشور الطاهر، تفسير التحرير والتنوير، الدار التونسية للتوزيع والنشر، تونس دط، 1984.

33) عباس إبراهيم، تقنيات البنية السردية في الرواية المغاربية، المطبعة الوطنية للكتاب، الجزائر، دط، 2002.

34) عبد الباقي محمد فؤاد ، المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، دار المعرفة، بيروت، ط4، 1994.

35) عبد الرزاق الموحي، العبادات في الديانة اليهودية، صفحات للدراسات والنشر، دمشق، ط2، 2007.

36) عبد الله خمار، فن الكتابة، تقنيات الوصف، دار الكتاب العربي للطباعة والنشر والتوزيع، الجزائر، دط، 1998.

37) عبد محمد صابر، سوسن البياتي، جماليات التشكيل الروائي، دراسة في الملحمة الروائية مدارات الشرق لنبيل سليمان، دار الحوار، سوريا، ط1، 2008 .

38) عشراتي سليمان، الخطاب القرآني، مقاربة توصيفية لجمالية السرد الإعجازي، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، ط3 1998.

39) العقاد،عباس محمود، إبليس، بحث في تاريخ الخير والشّر،وتمييز الإنسان بينهما من مطلع التاريخ إلى اليوم،مطبعة نهضة مصر، القاهرة (مصر)،د ط، 1985.

40) علي محمد، مقامات العرفان، مؤسسة الإنتشار العربي، بيروت، ط1،2007.

41) العمر معين خليل، معجم علم الإجتماع، دار الشروق للنشر والتوزيع، الأردن، ط1، 2000.

42) العوا عادل وجيب، علم الأديان وبنية الفكر الإسلامي، منشورات عويدات، بيروت، ط1، 1977.

43) الغانمي سعيد، ملحمة الحدود القصوى، المخيال الصحراوي في أدب إبراهيم الكوني، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، ط1، 2000.

44) الغزالي أبو حامد، إحياء علوم الدين، دار الثقافة للنشر والتوزيع، بيرون، ط1، 1991.

45) فضل صلاح، قراءة الصورة وصور القراءة، دار الشروق، مصر، ط1، 1997.

46) فوغال جمال، وسيني الأعرج، شعرية السرد الروائي، صدر عن وزارة الثقافة، الجزائر دط، 2007.

47) الفيصل سمر روحي، معجم الروائيين العرب ، دار جروس برس، بيروت، ط1، 1995.

48) القشيري عبد الكريم، الرسالة القشيرية في التصوف، دار الكتاب العربي لبنان، دط، دت.

49) بن قينة عمر، أشكال التعبير في القصة الليبية القصيرة، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، دط، 1986.

50) ابن كثير عماد الدين ابو الفداء، إسماعيل القرشي، تفسير القرآن الكريم، دار التراث العربي للطباعة، بيروت، دط، دت.

51) لحميداني حميد، بنية النص السردي من منظور النقد الأدبي، المركز الثقافي العربي للنشر، الدار البيضاء، ط3، 2000.

52) الماجدي خزعل، أديان ومعتقدات ما قبل التاريخ، دار الشروق، عمان، الأردن، ط1، 1997.

53) مجموعة باحثين، تحولات الخطاب النقدي العربي المعاصر، عالم الكتب، جدار الكتاب العالمي ، الاردن، دط، 2006.

54) مجموعة باحثين، الإنساان والمقدس، دار محمد علي الحامي للنشر والتوزيع، تونس ، دار ، ط1، 1994.

55) مجموعة باحثين أسئلة الحداثة في الرواية الجزائرية، مداخلات ملتقى الرواية الرابع، رابطة أهل القلم، سطيف، الجزائر، دط 2008.

56) محمد بن عبد الله أبو عبد الله الحاكم النيسابوري، المستدرك على الصحيحين، تحقيق:مصطفى عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت،ط1،1990.

57) محمد زكي نجيب، تجديد الفكر العربي، دار الشروق، بيروت، ط1، 1982.

58) مرتاض عبد المالك:

- في نظرية الرواية بحث في تقنيات السرد، عن المجلس الوطني للثقافة والفنون، الكويت، دط 1998.
- الميثولوجيا عند العرب، دراسة لمجموعة الأساطير والمعتقدات العربية القديمة، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، دط، 1998.
- تحليل الخطاب السردي، معالجة تفكيكية سميائية مركبة لرواية زقاق المدق، ديوان المطبوعات الجامعية،الجزائر،دط،1995.

59) مرزق عبد الصبور، معجم الأعلام والموضوعات في القرآن، دار الشروق للنشر والتوزيع، بيروت، ط1، 1995.

60) المسعودي أبو الحسن علي بن الحسين بن علي، مروج الذهب ومعادن الجوهر، تحقيق قاسم السماعي الرفاعي، دار القلم، بيروت، لبنان، دط، دت.

61) مسلم،بن الحجاج أبو الحسين القشيري النيسابوري:صحيح مسلم،تحقيق:محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء التراث العربي،بيروت،د ط،د ت.

62) معتصم محمد الذاكرة القصوى، دراسة وتحليل للروايات، رجوع الطفولة، الساحة الشرقية، محاولة عيش،دار الثقافة للنشر والتوزيع،المغرب،ط1،2006.

63) ابن منظور أبو الفضل جمال الدين بن مكرم، لسان العرب، دار صادر، بيروت، دط، 1965.

64) منيف عبد الرحمان، عروة الزمن الباهي، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، ط1، 1997.

65) نجمي حسين شارية الفضاء، المتخيل والهوية في الرواية العربية، المركز العربي، الدار البيضاء، ط1، 2000.

66) النويري، شهاب الدين احمد بن عبد الوهاب، نهاية الأرب في فنون الأدب، مطابع كوستانسوماس وشركاه، لبنان، دط، دت.

67) وتارمحمد رياض،توظيف التراث في الرواية العربية،اتحاد الكتاب العرب، دمشق.(د.ط.)2002، .

68) اليازغي سعد، إستقبال الآخر، الغرب في النقد العربي الحديث، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، ط1، 2004.

69) يقطين سعيد، إنفتاح النص الروائي، النص والسياق، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، ط2، 2001.

70) المراجع المترجمة:

71) أرميسترونغ كارين، تاريخ الأسطورة، ترجمة وجيه قانصو، الدار العربية للعلوم ناشرون، بيروت، ط1، 2008.

72) إلياد ميرسيا:

- مظاهر الأسطورة، ترجمة نهاد خياطة، دار كنعان لدراسات والنشر دمشق، ط1 1991.

- صور ورموز، ترجمة حاسيب كاسوحة، منشورات وزارة لثقافة، دمشق، دط ، 1998.
- المقدس والمدنس، العربي للطباعة والنشر والتوزيع، دمشق، ط1 ،1987 .
- الحنين إلى الأصول في منهجية الأديان وتاريخها ، ترجمة حسين قبيسي ، المركز الثقافي، الدار البيضاء ، ط1 ،1995.

73) ببدج واليس، السحرة في مصر القديمة، ترجمة، عبد الهادي عبد الرحمن، دار سينا للنشر، القاهرة، ط1، 1998.

74) جيلبير دوران ،الأنثروبولوجيا، رموزها، أنساقها، وأساطيرها، ترجمة، مصباح الصمد، المؤسسة الجامعية للدراسات و النشر . بيروت، ط2، 1993.

75) رامان سلدن،النظرية الأدبية المعاصرة،ترجمة:سعيد الغانمي،المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ط1،1996.

76) سيرنخ فيليب،الرموز في الفن والأديان، ترجمة: عبد الهادي عباس، دار دمشق، سورية، دط، 1996.

77) ليفي ستراوس كلود:

- الإناسة البنيائية، ترجمة: حسن قبيسي، المركز الثقافي، الدار البيضاء، ط1، 1995.
- دراسة فكرية، ترجمة ثائر ديب، منشورات وزارة الثقافة ح، ع، س، دمشق، دط 2002.

78) مجموعة باحثين الموسوعة الفلسفية، إشراف بوديب روز بيتال، ترجمة سمير كرم، دار الطليعة، لبنان ط3، 1991.

- المراجع باللغة الأجنبية:

79) MERCIA ELIAD , Traité d'histoire des religieuse PAYOT, PARIS 1964

80) CAILLAOIS Roger l'homme et le Sacret , Gallimo, PARIS 1950

81) المجلات والدوريات:

82) مجلة فصول، الأعداد:

83) المجلد 17، العدد:01، صيف 1998.

84) العدد:62،ربيع وصيف 2003.

85) مجلة الفكر العربي الأعداد:

86) العدد:73،بيروت، لبنان.

87) العدد48-49،مركز الإنماء القومي،بيروت.

88) مجلة اللغة والأدب، العدد:14،جامعة الجزائر،1999.

89) مجلة أنثروبولوجية الأديان،العدد:05،تلمسان (الجزائر).

90) مجلة الموقف الأدبي،العدد:272،اتحاد الكتاب العرب،دمشق.

91) الملتقيات:

92) ملتقى رشيد بوجدرة وإنتاجية النص،09-10 أفريل2005، منشورات casc، وهران، 2006.

93) الرسائل الجامعية:

94) الشريف بموسى عبد القادر، الإغتراب في حكايات ألف ليلة و ليلة،مقاربة نفسية اجتماعية، رسالة مقدمة لنيل شهادة الماجستير في الأدب الشعبي،إشراف:شايف عكاشة، تلمسان،1996-1997.

95) حكيم ميلود،الكرامة الصوفية في منطقة تلمسان،دراسة،أنثروبولوجية-سيميائية من خلال مدونة ابن مريم"البستان في ذكر الأولياء والعلماء بتلمسان"رسالة لنيل شهادة الماجستير،إشراف:عبد الحميد بورايو،جامعة تلمسان، 1997-1998.

- الانترنيت:

96) الحوار المتمدن.

فهرس

الموضوعات

فهرس الموضوعات

مقدمة ..... أ

مدخل : نشأة الرواية الليبية وواقعها النقدي 2

الفصل الأوّل : المقدس والمدنس تحديدات وتمظهرات 15

ماهية المقدس والمدنس 15

أ) لغة 15

ب) اصطلاحا 17

- جدلية المقدس والمدنس 24

- تمظهرات المقدس والمدنس 26

أ) في المكان 26

ب)في الزمان 31

ج) في الذوات 33

د) في الأشياء 36

هـ) النبات 39

و) الحيوان 41

الفصل الثاني : تجليات المقدس في رواية السحرة 45

1- في المكونات الروائية 46

أ) في الشخصيات : 46

*الإلاهية: 47

1) تانيت 47

2) آمناي 47

3) آمغار 48

4) السحرة 49

5) الرسل 51
6) رسل القرعة 53
8) الرعاة 53
9) المعتزلة 53
10) الشيوخ والحكماء 53
11) حكيم الحيوانات 53
12) الواويون 54
ب) في الحيوان 55
1) الودّان 55
2) الناقة 56
3) المهاري 57
4) الطيور 57
5) مولامولا 58
6) الخنفس المقدس 59
7) القنفد 60
8) الضب 60
9) السنور 61
10) الحرباء 61
11) البط البري 61
12) آبيل – بيل 61
ج) الزمن 63
1) موسم الربيع 64
2) الليل 65
3) الغسق 66

4) يوم البرد 66
5) إيلوكمنا 67
6) الفجر 67
7) يوم القرعة أو يوم القربان 68
د) الفضاء 71
1) آزجر 71
2) تارات 72
3) واو 72
4) الصحراء 73
5) الجبل 75
6) الكهوف 76
7) البحيرات والعيون 77
8) مواقع الآبار 77
9) وانتمغارت 78
10)الدمن 78
11) المجلس 79
ه) الأشياء 79
1- الأشياء الحسية 79
1- اللثام 79
2- الرفع 80
3- التمائم 82
4- التراب 82
5-أيمسكني 83
6- الحجر الأسود 83

6- الحجر المشع 84
7- عظام الذبائح 85
8- عظام الأجداد 86
9- النطرون 86
10- العدد ثلاثة 86
11- تافست 86
12- الدائرة 87
13- الماء 87
14- المعادن 88
15- الميدية 88
16- الظل والظلمة 89
2- النبات 90
01- أسيار 90
02- الطلح والنخيل 91
03- الترفاس 92
04- زهرة الرتم 92
05- الحنظل 92
06- الشجرة 93
3- الظواهر الطبيعية 93
1- القمر 93
2- ظواهر متفرقة 94
2- التجليات النفسية للمقدس 94
1-الحرية 94
2- التريث 95

3- الصيام عن الطعام.....95
4 - التفقه.....96
4- القبح.....96
5- الإمتناع.....97
6- الحياء.....97
7- الحمى ذات الأيراج.....97
8-الاسم.....98
9-الميلاد.....98
3- التجليات الاجتماعية للمقدس.....98
1- نحر القرابين.....99
2- اسوفض.....99
3- الهجرة و الترحال.....99
4- النحت أو حفر الأسماء على الصخور.....100
5- العودة إلى قبور الأسلاف.....100
الفصل الثالث :تجليات المدنس في رواية السحرة.....103
1- في مكونات الرواية.....103
أ- في الشخصيات.....103
1- ونتهيط.....103
2-تيرزازت.....106
3-وانتكريباست.....108
4- بوشا.....108
5- أتباع وانتهيط.....109
6- تانس.....110
بـــ- في الحيوان.....111

1- الحية..... 111
2- الصرد..... 116
3- البومة..... 116
4- الأرنب..... 117
5- الجدي..... 117
جـ- المكان المدنس..... 118
1- اير..... 118
2- مواقع المعارك..... 119
3- الرماد..... 120
4-اغرم نودادن..... 121
5-السهل..... 121
د-الزمن المدنس..... 122
اللحظة الانية..... 122
وقت ظهور تيرزازت وواتنهيط..... 123
أ-الأشياء المدنسة..... 123
الأشياء الجامدة..... 123
1-الأرجل و القامة..... 123
2-اللسان..... 124
3-التبر..... 126
4-الأبخرة..... 129
أ-النبـــــــات..... 129
1-الأثل..... 129
2- الأكمة..... 129
3- الحنظل..... 130

4-الشجرة المسموم..... 130
جـ-ظواهر متفرقة 131
1-القبلي 131
2- الشمس..... 132
2- التجليات النفسية للمدنس.....134
1-الجدل 134
2- الهزيمة 134
3-عشق الأشياء و رغبة تملكها 135
4-السأم 135
5-التباهي 136
6-الفضول 136
7-التسرع 136
8-الحنث بالندر 137
9-الكبر 138
10 – الضحك 138
11-الحرص.....138
14- النسيان 139
15-داء السويداء..... 139
3- التجليات الاجتماعية للمدنس 140
1- تسمية الأشياء بأسمائها 141
2- أشعار الشاعرات 141
3- تشييع المسافر بالفرح..... 142
4- الظهور برأس حاسر..... 142
5- حمل الزاد 143

6- إقتحام مجلس الرسل..... 143
7- أستبدال أعواد القرعة 144
8- الإستقرار و ازراعة..... 144
9- الفرار 145
10- الغناء..... 146
11- البحث عن أصل الرسل..... 147
خـــــاتمة.....160
قائمة المصادر و المراجع.....361
فهرس الموضوعات 173